قولي في المرأة

ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب

بقلم

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً



بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي

الجفان والجابي

دار ابن حزم

قولي في المرأة

ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب

طبعات كتاب : « قولي في المرأة »

الطبعة الأولى : المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٥٤هـ .
الطبعة الثانية : المكتبة العربية بحلب .
الطبعة الثالثة : دار الرائد العربي ببيروت ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .
الطبعة الرابعة : الجفان والجابي ـ دار ابن حزم . ١٩٩٠م .
الطبعة الخامسة : دار القادري ، دمشق بيروت ١٩٩٣م .
الطبعة السادسة وهي هذه التي بين يديك : الجفان والجابي ـ دار ابن حزم ٢٠٠٣م .

AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O. Box: 54170 - 3721 Limassol-Cyprus
Fax: 357 - 25 - 878804 Phone: 357 - 25 - 878805
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ ـ تلفون : ٧٠١٩٧٤

قولي في المرأة

ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب

بقلم

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي



دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم



مُصطفى صبري

شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، وَأَفْضَلُ ٱلصَّلاةِ وَأَتَمُّ ٱلتَّسْلِيمِ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

ترجمة المؤلف

مصطفى صبري

(١٢٨٦ ـ ١٣٧٣هـ = ١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م)

مصطفى صبري التُّوقَادِي ابن أحمد بن محمد القازآبادي : من علماء الحنفية . فقيه باحث . تركي الأصل والمولد والمنشأ . ولد في توقات = توقاد (مدينة في شمال تركية على نهر قزل أرمق) وتعلَّم في قيصرية (مدينة تركية ، تقع إلى جنوب غرب توقات في الأناضول) . وعُيِّن مدرساً في جامع محمد الفاتح في إستانبول وهو في الثانية والعشرين من عمره . ثمَّ تولّى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية . وقاوم الحركة الكمالية (أي : ما نادى به وقرّره كمال

أتاتورك) بعد الحرب العالمية الأولى . وهاجر إلى مصر بأسرته وأولاده سنة ١٩٣٢م .

أفضل مصدر يحدثنا عن حياته هو ما ذكره نفسُه في أوَّل كتابه « موقف العقل » مخاطباً والدَه حيث يقول :

كان أعظم أمانيك في أمري . . رحمة الله عليك وعلى والدتي التي لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى ، حتى أني كنتُ أقنعتها قبلك ـ وأنا في ملتقى الشباب والصبا ـ بأن تأذن لي وتستأذنك في السفر لأول مرةٍ إلى قيصرية المشتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول . . . كان أعظم أمانيك أن أجتهد في طلب العلم وأصبح عالماً من علماء الدين . وكنتَ في رغبتك هذه أشدّ شرهاً من المنهومَيْن[1] ، حتى إنك لما أتيت الإستانبول من بلدنا توقاد ، ورأيتني مدرِّساً في جامع السلطان محمد الفاتح ـ الذي كان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة ، وأفضل من الأزهر الحاضر ـ وأنا يومئذٍ في الثانية والعشرين من عمري ، قلتَ لبعضِ أصدقائك عني :

---

(١) « منهومان لا يشبعان : طالِب عِلْمٍ وطالب دنيا » . الحديث [رقم : ٩١١٦ ، « الجامع الصغير »] .

« استأذنني لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية[١] فما لبث أن حصل على شهادة العالِمية وتربّع على كرسي التدريس . وكان الواجب عندي أن يستمرّ في التعلّم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

وقد كنتَ رحمك الله على حق في استقلال مكتسباتي العلمية ، لكن استعجال القدر في أمري ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرني من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثاني ما لم يسرّك من موقفي يومئذ أني توليت وظيفة التدريس بمرتب من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذي ثروة تكفلني وأسرتي المستقبلة . وبالقياس على هذا لا أرتاب في أنك لو كنت حيّاً يوم تولَّيْتُ منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية ما ازددتُ مكانة عندك وحصولاً على مرضاتك .

---

(١) أخذت العلم في القيصرية عن الشيخ محد أمين الدُّورِيكي الشهير بداماد الحاج طَرّون أفندي ، وقبلها في بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذي في القيصرية الشيخ أحمد أفندي زُولْبية زاده إلى آخر التصوّرات من « شرح الشمسية » للقطب الرازي ، وأخذت في الآستانة عن محمد عاطف بك الأستانبولي وعن أحمد عاصم أفندي الكُومِلْجِنَوِيّ الذي كان وكيل الدرس في المشيخة الإسلامية ، والذي زوّجني بنته [عَلَوِيّة هانم] بعد أن تولَّيْتُ التدريس . فأولئك أساتذتي وشيوخي تغمَّدهم الله برحمته .

ولكنك لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسَائر مشخصاتها ، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح ، معانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب ، ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين ، غير محسّ يوماً بالندامة على ما ضَحَّيْتُ به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها ؛ لأوليتني إعجابك ورضاك .

وهذا الكتاب الذي وضعته في سنواتي الأخيرة ، سنوات التوقف في المهجر عن الجهاد السياسي ، متفرِّغاً للجهاد العلمي الديني ، والذي كتبت فيه ما يحتاج المتعلِّم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسْلَم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصري وناضَلْتُ أشتاتاً من أهل العلم والأدب في الشرق والغرب أحياءً وأمواتاً[1] . وقد توغلت في طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمةَ قلمي عند الكتابة . . . هذا الكتاب أرجو أن يكون مما

(١) وبعضهم كانوا أحياء في أثناء تأليف الكتاب ، ثم ماتوا قبل نشره .

يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع مني بعد طلب العلم ، وأنا أحتسب في رضاك هذا رضى ربي سبحانه وتعالى[١] . ٱنْتَهَىٰ .

ومن المصادر النّادرة التي نسْتَمِدُّ منها ترجمةً لحياتِه ، كتاب الدكتور محمد محمد حسين [نحو ١٣٣٠ ـ ١٤٠٣هـ = نحو ١٩١٢ ـ ١٩٨٣م] « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ، نقلاً عن الأستاذ إبراهيم بن مصطفى صبري المتوفى في يوم السبت ١٧ شوال ١٤٠٣هـ = ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٨٣م . إذ يقول : غادر الشيخ مصطفى صبري الآستانة فراراً من الكماليين قبيل استيلائهم عليها سنة ١٩٢٣م ، فحضر إلى مصر ، ثم انتقل إلى ضيافة الملك حُسَيْن في الحجاز . ثم عاد إلى مصر ، حيث احتدم النقاش بينه وبين المتعصِّبين لمصطفى كمال ، فسافر إلى لبنان ، وطَبَعَ هناك كتابه « النكير على منكري النعمة » ، ثم سافر إلى رومانية ، ثم إلى اليونان ، حيث أصدر جريدة « يارن » ومعناها : « الغد » . وظلَّ يصدرُها نحو خمس سنوات ، حتى أخرجته الحكومة اليونانية بناء على طلب الكماليين .

---

(١) « رضى الرب في رضى الوالد » . الحديث [رواه البخاري في « الأدب المفرد »] .

فاستقرَّ في مصر إلى أن توفي بها سنة ١٩٥٤م = ١٣٧٣هـ .

وقد بدأ مصطفى صبري نشاطَه السياسي بعد إعلان الدستور الثاني سنة ١٩٠٨م إذِ انْتُخِبَ وقتذاك نائباً عن بلدته توقاد في الأناضول ، فبرَزَ اسمُهُ وقتذاك لمقدرته الخطابية ، ولم يلبثْ حين تبيَّن سوء نيَّة الاتحاديين أنِ انضَمَّ إلى الحزب الذي تألَّف من الترك والعرب والأروام الذين يعارضون النزعة الطورانية التي اتَّسَمَ بها الاتحاديون وقتذاك . وكان نائباً لرئيس هذا الحزب المعارض .

ولما استَفْحَل نفوذُ الاتحاديين فرَّ من اضطهادهم سنة ١٩١٣م ، فأقام في مصر مدة ، ثم تنقَّل في بلاد أوروبة ، حتى عاد إلى الآستانة مقبوضاً عليه عند دخول الجيوش التركية إلى بوخارست في الحرب العالمية [الأولى] ، حيث كان يقيم لاجئاً إليها وقتذاك . وقد ظلَّ معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة تركية ، وفرَّ زعماء الاتحاديين ، فعاد إلى نشاطه السياسي في الآستانة ، وعُيِّن شيخاً للإسلام وعضواً في مجلس الشيوخ العثماني ، وناب عن الصدر الأعظم في رئاسة الوزارة أثناء غيابه في أوروبة للمفاوضات . وظلّ في

منصبه إلى أن استَوْلى الكماليون على العاصمة ، ففرّ إلى مصر[١] .

من مؤلفاته بالعربية :

ـ « موقف العقل والعلم والعالَم من رَبِّ العالمين وعِبادِهِ المُرْسَلِين » أربعة مجلدات ؛ القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٥٠م وما بعدها ، وصوَّرَتْهُ دار إحياء التراث العربي ببيروت ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م .

ـ « موقف البشر تحت سلطان القدر » القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٣م ، ٣٠٠ صفحة ؛ وَصُوِّرَ في دمشق ، دار الهجرة .

ـ « النكير على مُنْكِرِي ٱلنِّعْمَة في الدين والخلافة والأمَّة » طبع في المطبعة العباسية ؛ بيروت ، ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤ ؛ وأعاد طبعه الأستاذ حسن السماحي سويدان لدى دار القادري ، بيروت ، ١٩٩١م = ١٤١١هـ .

ـ « مسألة ترجمة القرآن » ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥١هـ (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣م) . ١٤٦ صفحة .

---

(١) « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » جـ٢ ص٣٢٠ ـ ٣٢١ .

« القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ١٩٤٢م ، ٢٢٤ صفحة ؛ وطبع طبعة ثانية ، دار السلام ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م .

وله مؤلفات بالتركية كثيرة ، بعضها مطبوع .

قال الدكتور مفرح بن سليمان القوسي عن أشعار الشيخ باللغة العربية :

للشيخ مصطفى صبري أَيْضاً أشعارٌ عديدةٌ باللُّغةِ العربيَّةِ ، وقَدْ عَثَرْتُ منها على أَرْبَع قصائِدَ فقط ، اثنتان نَشرَهُمَا بنفسه ، وواحدة نُشرتْ بعد وفاتِهِ ، وأخرى لم تُنشر بَعْدُ ، وهي جميعاً ما يلي :

الأولى :

قصيدةٌ نونيَّةٌ مكوَّنَةٌ من سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ نظمها سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م رَدًّا على أحمد شَوْقِي (١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م) الذي كانَ قَدْ نَظَمَ قصيدةً نونيَّةً امْتَدَحَ فِيها مُصْطفَى كمال وكَالَ الشتائِمَ فيها للسلطانِ محمد وَحِيد الدين ، ونَشَرَها على هام

جريدة الأهرام[١] .

---

(١) يقول فيها مُوجِّهاً الخطابَ إلى وَالِدَةِ الخديوي عَبَّاس الثاني عِنْدَ عَوْدَتِها من الآسِتَانة [من الرمل] :

جَارَةَ ٱلإِسْلامِ فِي مِحْنَتِهِ
عَلِّمِي ٱلْجَارَاتِ مِمَّا تَعْلَمِينْ

ذَكِّرِيهِنَّ (فُروقَا) وَصِفِي
طَلْعَةَ ٱلْخَيْلِ عَلَيْهَا وَٱلسَّفِينْ

وَوَلِيّاً لِلطَّوَاغِيتِ بِهَا
كَانَ يُدْعَىٰ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينْ

أَلْبَسَ ٱلإِسْلامَ ذُلّاً وَكَسَا
خُلَفَاءَ اللهِ أَثْوَابَ ٱلْقَطِينْ

كَانَ (كَٱلصَّيَّادِ) فِي دَوْلَتِهِ
دَوْلَةِ ٱلوَهْم وَمُلْكِ الحَالِمِينْ

أَمْرُهُ فِي ٱلسِّجْنِ غَادٍ رَائِحٌ
وَهُوَ كَٱلْغَادَة فِي ٱلْقَصْرِ سَجِينْ

حَمَلَ ٱلأَعْبَاءَ عَنْهُ عُصْبَةٌ
مَثَّلُوا فِي ٱلْمَلْعَبِ ٱلْمُسْتَوْزِرِينْ

قَدْ أَبَاحُوا دَمَ آسَادِ ٱلشَّرَىٰ
فَٱزْدَرَاهُمْ وَجَرَى يَحْمِي ٱلْعَرِينْ

سَالَ دُونَ ٱلْمُلْكِ حَتَّى ٱنْتَاشَهُ
مِنْ إِمَامِ ٱلسُّوءِ وَٱلرَّهْطِ ٱلْمُهِينْ=

وقد نَظمَ الشيخُ قَصِيدَتَه بقافيةٍ مشابِهَةٍ للقافيةِ التي نَظَمَ بها شوقي قَصيدَتَهُ ، وهاجَمَه فيها هُجوماً عنيفاً ، وَوَجَّه إليه كلاماً قاسياً ، حَيْثُ قَال [من الرمل] :

قُلْتُمُ فِي رَجلٍ ذَكَّرَنَا
حَسَنَاتِ ٱلظَّالِمِينَ ٱلأَوَّلِينْ
« مَحَقَ ٱلْفَرْدَ وَأَلْغَىٰ حُكْمَهُ
إنَّ حُكْمَ ٱلْفَرْدِ مَرْذُولٌ لَعِينْ
وَيَقُولُ ٱلْعَبْدُ تَعْقِيبًا لَكُمْ
لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ كَاذِبِينْ
أَيْنَ مَحْقُ ٱلْفَرْدِ بَلْ مِنْ عَدَمٍ
أَوْجَدُوهُ وَهْوَ كَٱلْقِرْدِ مَهِينْ

= مَحَقَ ٱلفَرْدَ وَأَلْغَىٰ حُكْمَهُ
إنَّ حُكْمَ ٱلْفَرْدِ مَرْذُولٌ لَعِينْ

وله قصيدةٌ أخرى أطْلَق فيها تغاريد النصر ورَفَعَ أكاليلَ الفخر على هامة مصطفى كمال ، وشَبَّهَهُ بخالد بنِ الوليد ! وَشَبَّهَ حَرْبَهُ ضدَّ اليونان بجهاد صلاح الدين الأيوبي ضدّ المسيحيين في الحروب الصليبية ! وأيضاً شَبَّهَ حرب سقاريا التي انتصر فيها الأتراك على اليونان بمعركة بدر الكبرى ! وكان في ذلك كغيره من الشعب المصري متأثِّراً بذلك التيّار القوي المتحمّس لمصطفى كمال والمنخدع به .

لَيْسَ مَا أَلْغَاهُ حُكْمَ ٱلْفَرْدِ بَلْ
حُكْمَ شَرْعٍ رَبِّ ٱلْعَالَمِينْ
وَضَحَ ٱلصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ يَا
حَاطِبَ ٱللَّيْلِ فَذَا ٱلْخَبْطُ يَشِينْ
وَكَفَى ذَا ٱلْهُزْءِ بِٱلْحَقِّ عَلَى
رَغْمِ أَنْفِ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْغَافِلِينْ

وقد نَشر مصطفى صبري هذه القصيدة في الصفحة الأولى من جريدة المقطم في العدد (١٠٥٣٣) الصادر في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٢هـ الموافق ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٣م ، كما نَشرها في كتابه « النكير على منكري النعمة » في هامش صفحتي : ١٨٥ ـ ١٨٦ .

الثانية :

قصيدةٌ ضادِيَّةٌ طويلَةٌ مُكَوَّنةٌ من ثلاثَةٍ وسَبْعِينَ بَيْتاً نَظَمَها سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م ، وتُعدُّ هذه القَصِيدَةُ التي اشْتكَى فيها من مِصْرَ والمِصْرِيِّين أَطْولَ قصائِدِهِ باللُّغَةِ العربيَّةِ .

ولَقَدْ كَانَتِ المضايقاتُ الكثيرةُ التي تَعرَّضَ لها بِمِصْرَ عندما ٱنْتَقَلَ إِلَيْهَا هو وعائِلَتُهُ سنة ١٣٤٠هـ = ١٩٢٢م ،

والعدَاءُ السافِرُ الذي لَقِيهُ فيها ، وصُنوفُ الأذى[١] التي لحِقَتْ به من قِبَل كَثيرٍ من المُغْتَرِّينَ ـ آنذاك ـ بمصطفى كمال وحكومَتِهِ الجديدَةِ ؛ هي التي حَدَتْ به إلى كِتَابَةِ هذه القَصِيدَةِ التي ضَمَّنها كُلَّ ما فِي نَفْسِهِ مِنْ تَذَمُّرٍ وَسُخْطٍ على مِصْرَ وعلى مَنْ آذَوهُ فِيها ، وقارَنَ فيها بَيْنَ مَوْقِفِ كُلٍّ مِنْ مِصْرَ وتركيّة من الدِّينِ الإسْلامِيِّ .

وقد نَشَرَها في كتابِهِ « النَّكِير على مُنْكِرِي النِّعْمَةِ »[٢] وقَدَّمَ لَها بِمُقَدمَّةٍ صغيرةٍ اعْتَذَر فيها مِنْ أَهْل مِصْرَ على ما جاءَ في قَصِيدَتِهِ من شِدَّةٍ وغِلظَةٍ في القَولِ مُبَيِّناً الأسبابَ التي دَعَتْهُ إلى ذلك[٣] .

---

(١) للاطلاع على تفاصيل ما لحق به من أذى في مصر ، ارجع إلى الصفحات : ١١٣ ـ ١١٨ من كتاب « الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد » .

(٢) وذلك في هامش الصفحات : ١٩٠ ـ ١٩٥ .

(٣) ومما قاله في ذلك ما نصه : « عَذِيري من أهل مصر على ما شَدَّدْتُ فيهمُ الكَلِمَ ، وَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الجَهْرَ بالسُّوءِ من القَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ ، فَإِنِّي عَزَمْتُ على أَنْ لا أَنسَى ما وَصَلَ إليَّ في مُدَّةِ مجاهدتي من الإسَاءَةِ والإحسَانِ لاتصال ذلك الإحسان والإساءة بِمَبْدَئِي ، وتَمَثَّلْتُ بقول ابن ٱلرُّوميِّ : =

وَسَأُورِدُ ـ فيما يَلِي ـ ٱلقَصِيدَةَ بِنَصِّها مَقْرُونةً بِمَا ذَكَرَهُ ٱلشَّيْخُ مَعَها من تَفْسيرٍ لِبَعْضِ كَلِماتِها وَمعانِيها التي قَدْ تَخفَى على ٱلْقَارِئين، وسَأُعَلِّقُ على بعض ما يَحتاجُ مِنْها إلى تَعْلِيقٍ .

= ومـا الحقـدُ إلا تَـوْأَمُ الشُّكـرِ فـي الفَتَـى
وَبَعْـضُ السّجَـايَـا يَنْتَسِبْـنَ إلَـى بَعْـضِ
فَحَيْـثُ نَـرى بُغْضًـا علـى ذِي إسَـاءَةٍ
فَثَـمَّ نَـرى شُكْـراً علـى حَسَـنِ القَـرْضِ

وقولِ لَبِيدٍ رَضِي الله عنه :

إنمـا يَجْـزِي ٱلْفَتَـى لَيْـس الجَمَـلْ

واستغفرُ اللهَ من أَنْ [أُؤاخِذَ] عامَّتَهُم بذنوبِ من تَعدَّى عَلَيْنا مِنْهُم ، وَلَكِنَّا شاهَدْنَا بهم الغَلَبَةَ في شَأْنِنا لأصوات المُتَسافِهِينَ . وكان مِمَّنْ أراد نُصْرَتَنَا مَنْ كَتَب بأنَّهُ ما كان يَنْبَغِي تلك المقابلة السَّيئة التي لقيناها بمِصْرَ ، ولو كُنَّا خَوَنَة الوطن ! فأَضْحَى بنا الحَالُ كقول من قال :

وَبَـلاهُ إنْ نَظَـرَتْ وَإنْ هِـيَ أعْـرَضَـتْ
وَقْـعُ السِّهَـامِ ونَـزْعُهُـنَّ أَلِيـمُ

وَعلى كُلٍّ فَرَأَيْتُ أَهْلَ مِصْرَ قَصَّروا في الإنكار على مُجْرِمِيهِمُ ٱلَّذِين رأوهم يَعْتَدون علينا ويقولون مُنْكَرًا مِنْ القَوْل وَزُورًا وَلَمْ يَتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم خاصَّةً ، سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . « النكير على منكري النعمة » ، هامش ص : ١٨٩ ـ ١٩٠ .

تَقولُ القَصِيدَةُ [من الرجز] :

يَـا مِصْـرُ كَـمْ مَسَسْتِنِـي بِـٱلْمَـضِّ
أروُحُ فَـأَبْقَـى مُعَـرَّضـاً لِلْمَعَـضِّ[١]
(فَيْضُـكِ) أَغْـدَى مَـدْمَعِـي فَلَيْتَـهُ
غَـاضَ وَعَـدْوَاهُ أَتَـتْ مِـنْ غَيْـضِ
يَـا دَارَ عُبَّـادِ ٱلطُّغَـاةِ لا تَبَجَّحِـي
وغُضِّـي ٱلصَّـوْتَ هَـوْنـاً غُضِّـي
وَأَنْتِ يَا عَيْنِي دَعِي (ٱلْفَيْضَ) بِهَا
وَنَهْنِهِي بَعْضَ ٱلْبُكَا بِٱلْغَمْضِ[٢]
لا تَهْلَكِـي أَسَـىً فَمَـا تَـرَيْنَـهُ
رَيْـبَ الـزَّمَـانِ والـزَّمَـانُ يَمْضِـي
فَـرَرْتُ مِـنْ حُكُـومَـةٍ تَحَـوَّلَـتْ
عَنْ دِيْنِها وَأَوْغَلَتْ فِي النَّقْضِ[٣]

---

(١) المض : الهم والحزن ، ويقال مضه الهم ، أي : أحرقه . والمعض : الغضب .

(٢) الغمض : النوم .

(٣) يقال : نَقَضَهُ ، إذا أفسده .

وعَلَّنَتْ حَرْبَاً إلى جَميعِ مَنْ
يَأْبَوْنَ بَيْعَ عِرْضِهِمْ بِٱلْعِرْضِ
حُكُومَةِ المُخَنَّثِينَ السُّفَهَا[1]
مِنْ كُلِّ عِضٍّ لَيْسَ بِالمِرْفَضِّ[2]
وَخِلْتُ مِصْرَ دَارُ إِسْلامٍ بِهَا
لِمِثْلِي المُقَامُ رَحْبٌ يُرْضِي
إِذَا بِهَا قَوْمٌ مَلاقِيهُمْ عَلَى
إِنْ كَانَ إِنْسَاناً حَيَاءٍ يُغْضِي
قَدْ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَسَمْعِهِمْ وَٱلطَّرْفُ كَالمِبْيَضِّ[3]
وَلَنْ تَرَىٰ فِي غَيْرِ مِصْرَ مَنْ تَرَىٰ
بهَا مِنْ العُمْيَانِ مِنْ ذِي عَوْضٍ[4]

---

(١) يقصد الشيخ بهذه الحكومة التي وصفها بتلك الأوصاف في هذا البيت والبيتين اللذين قبله الحكومة الكمالية . (الباحث) .

(٢) العض : الخبيث الشرس . والمرفض : من إذا رآك مظلوماً رَقَّ لك .

(٣) أي : كالأعمى ، قال تعالى في يعقوب عليه السلام : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [١٢ سورة يوسف/ الآية : ٨٤] .

(٤) تأكيد للنفي ، تقول : لا أفعله من ذي عَوْضٍ ، أي : لا أفعله أبداً .

وإِنَّ فِــي عَمَــى العُيُــونِ نِسْبَــةً
إلَى عَمَى القَلْبِ كَقَيْضِ ٱلبَيْضِ[(١)]
لَا خِلَّـــةٌ وَلَا شَفَـــاعَـــةٌ وَلَا
عَـدْلٌ لَهُـم فِيْمَـنْ أَتَـى يَسْتَقْضِـي
قَـوْمٌ هُـمْ وَمَـنْ فَـرَرْنَـا مِنْهُـمْ[(٢)]
كَـٱلْخُلَطَـاءِ بَعْضُهُـمْ مِـنْ بَعْـضِ
لَـوْلَا حِمَـى لِسَـانِهِـمْ لَسَـابَقُـو
هُـم إِلَىٰ ٱلْكُفْـرِ بِكُـلِّ الـوَفْـضِ[(٣)]
إنْ فَـاتَهُـمْ سِنَـانُهُـمْ لِقَتْلِنَـا[(٤)]
فَفِـي سِبَـابِهِـمْ مَـزِيـدُ ٱلْـوَخْـضِ[(٥)]

---

(١) قيض البيض : قشره ، يعني : يُستدلُّ بنضارةِ ظاهره على طَراوةِ باطنه ، وبضده على ضده .

(٢) يقصد الشيخ بالقوم الذين فَرَّ منهم الكماليين الذين طلبوه للقتل . (الباحث) .

(٣) الوَفْضُ : العَدْوُ وَالإِسْرَاع .

(٤) تعبير الشيخ بـ (القتل) هنا إشارة إلى شِدَّةِ أَذِيَّتِهم له إلى حَدٍّ أَنَّهُم أرادُوا قَتْلَهُ . (الباحث) .

(٥) الوَخْضُ : الطعن .

لَا وَزْنَ لِكَـلامِهِـم عِنْـدَ ٱلْهِجَـا
ءِ وَٱلْمَـدِيـحِ غَيْـرَ وَزْن القَـرْضِ[١]
عَـوَوْا وَعَضُّـونَـا وَمَـا أَدْرَاهُـمْ
أَنْ يَـأْمَـنَ ٱلكَلْـبُ قِصَـاصَ ٱلْعَـضِّ
صَارُوا عَلَيْنَا مُدَدَ ٱلْفَاقَةِ وَٱلْعِلَّةِ
وَٱلْغُـرْبَـةِ ذَاتِ الأَضِّ[٢]
مِـنْ لُـؤْمِهِـمْ خِفْـتُ عَلَـى مَحَبَّتِـي
وَحُرْمَتِي لِلْعَرَبِ طَرْأَ ٱلْغُرْضِ[٣]
فَـٱلْحَمْـدُ للهِ عَلَـى أَنَّهُـمْ
أَسْبَـاطُ أَقْبَـاطٍ بِـدُوْنِ ٱلأَمْـضِ[٤]
مَا إِنْ تَرَى فِي ٱلْعَرَبِ مِثْلَهُمْ قِبَا
حَ مَنْظَـرٍ وَمَخْبَـرٍ فِـي خَفْـضِ[٥]
أَيْـنَ هُـدَاهُـمْ وَنَـدَاهُـمْ وَوَفَـا
هُـمْ وَحَيَـاهُـمْ فِـي مُحَيَّـا غَـضِّ

---

(١) القَرْضُ : من قَرْضِ ٱلشِّعْرِ .
(٢) الأضُّ : المَشَقَّةُ .
(٣) الغرض : النقص والهُزال بعد السُّمانة .
(٤) الأمض : الشك .
(٥) الخَفْض : الدعة .

وُجُـوهُهُـمْ كَمَـا مُسِخْـنَ أَوْ كَمَـا
ضَـرَبْـتَ حَـائِطـاً بِهَـا مِـنْ عَـرْضِ
آذَوا ضُيُـوفَـاً مُسْتَجِيْـرِيـنَ بِهِـمْ
وَقَصَّـرُوا فِـي نَفْلِهِـمْ وَٱلْفَـرْضِ
شَـاعِـرُهـم أَثْنَـىٰ لِجَـرِّ مَغْنَـمِ
عَلَـى عَجُـوزٍ مِـنْ بَنَـاتِ ٱلأَرْضِ
فِـي ضِمْنِـهِ شَتْـمُ خَلِيْفَـةٍ لَـهُ
فِي بَيْتِها حَقُّ الوَلاءِ وَالْقَرْضِ[1]
فَقُلْـتُ ذا خَبْـطٌ وَخَلْـطٌ لَيْـسَ فِـي
الآدَاب وَالشِّعْرِ بِشَيْءٍ مَرْضِي[2]
لَـوْ عَقَلَـتْ عَجُـوزُهُـمْ مَـا قَبِلَـتْ
مَـدْحـاً كَـذَا وَقَـابَلَـتْ بِـالـرَّفْـضِ

---

(١) يُشير الشيخ في هذا البيت والذي قبله إلى قصيدة أحمد شوقي النونية التي تَحدَّثنا عنها أكثر من مرة والتي يقول في مطلعها :
جَـــارَةَ الإِسْـــلَامِ فِـــي مِحْنَتِـــه
عَلِّمِي الجَارَات مِمَّا تَعْلَمين . (الباحث) .

(٢) ويُشير أيضاً في هذا البيت إلى قصيدته النونية التي تحدثنا عنها آنفاً ، والتي رَدَّ بها على شوقي . (الباحث) .

لَكِنَّهَا مَا عَقَلَتْ وَإِنَّهُمْ
مَا قَدَّرُوا قَدْرَ ٱلْوَفَاءِ وَالْعِرْضِ

قَالُوا رُوَيْدًا أَنْتَ مِنَ شِعْرِ
أَمِيرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي مَكَانٍ غَمْضٍ[١]

يَا لِتَرَبٍّ وتَعصُّبٍ لَهُمْ
مُسْتَوْقَفِ أَفْكَارِهم فِي الرُّبْضِ[٢]

شَتْمُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذْي
لَوْمِ أَمِيْرِ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْ دَحْضٍ[٣]

كَأَنَّنِي لَمْ أَرَ قَطُّ شَاعِرًا
يَتْبَعُهُ ٱلْغَاوُونَ أَهْلُ ٱلنَّوْضِ

وَعَصْرُنَا يُعِيبُ مَدَّاحِيهِ
قَدْ عَابَهَا نَبِيُّ دِيْنِ ٱلنَّهْضِ

---

(١) الغمض : من المكان المُطْمَئِن . والشيخ يُشير بهذا البيت إلى قيام كثير من الكتاب المُعجَبين بشوقي بالهجوم عليه والنيل منه على صفحات الجرائد والمجلات المصرية . (الباحث) .

(٢) الرَّبْض : البروك .

(٣) الدَحْض : الزلَق .

يُحْثَىٰ ٱلتُّرَابُ فِي فَمِ ٱلْمَدَّاحِ لا
فِي فَمِ نَاقِدٍ عَلَيْهِ مُغْضٍ[١]
لَمْ أَدْرِنِي فِي غُرْبَةٍ وَقَعْتُ أَوْ
غَرَابَةٍ فيهِمْ وَحُمْقٍ مُفْضٍ[٢]
كَمْ عَالِمٍ أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى
عِلْمٍ يُرِيْكَ ٱلْغَيْضَ عِنْدَ ٱلْفَيْضِ
آرَاؤُهُمْ تَقْفُو ٱلْهَوَىٰ وَعِلْمُهُمْ
بِلَا نُهَىٰ وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْخَوْضِ[٣]
لَمْ يُبْقِ مُصْطَفَى كَمَالٍ فِيْهِمْ
عَقْلًا وَلَا دِيْنًا سَلِيمَ ٱلنَّبْضِ
فَضَّ بِإِزْمِيرَ عُرَى عُقُولِهِمْ
كَجَيْشِ يُونَانَ بِهَا مُنْفَضٍّ[٤]

(١) المغضي : الكاره ، وفي البيت تلميح إلى الحديث الشريف « احثوا التراب في أفواه المَدَّاحِين » . [كذا الأصل ، والذي في كتب الحديث « وجوه » بدلًا من « أفواه » ؛ راجع : مسلم ، رقم : ٣٠٠٢ ؛ الترمذي ، رقم : ٣٩٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٤١٧٠ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٧٤٢ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٣١١] .

(٢) المُفْضِي : الواسع .

(٣) الخوض : اللبس من الكلام وما فيه كذبٌ وباطل .

(٤) العروة : ما يُوثق به ويُعوَّل عليه ، يُقال : « الصحابة عرى الإسلام »=

وَمَـا جَـدَى عَقْـلٌ وَدِيْـنٌ عُلِّقَـا
بِبَلْـدَةٍ بَـدِيْـلَ أَصْـلٍ مَحْـضِ
فَحَبَّـذُوه فِـي جَمِيـعِ مَـا قَضَـى
بِـه عَلَـى ٱلـدِّيْـنِ وَمَـا سَيَقْضِـي[1]
ذَلِـكَ غَـازٍ وَغَـزِيَّـةُ لَهُـمْ
يَجْزُونَ مَنْ يَنْحَضُهُ بِٱلنَّحْضِ[2]
فَصَـارَ كُفْـرًا الْتِـزَامُ كُفْـرِهِ
جَرَى لَدَى ٱلأَفْكَارِ مَجْرَى ٱلْحَضِّ
وَكُفْـرُهُـمْ بِـرَبِّهِـمْ كَكُفْـرِهِـمْ
بِسَابِق النِعْمَةِ مِن ذِي الفَرْضِ[3]

= والعُرَى أيضاً : قادة الجيش .

(١) يُشير الشيخ في هذا البيت والثلاثة أبيات التي قَبْله إلى مَبْلَغ اغترارهم بمصطفى كمال وثقتم به . (الباحث) .

(٢) النحض : اللوم . وغَزِيَّةُ : اسم قبيلة ، وفي البيت تلميحٌ إلى قول شاعرهم [دُرَيْد بْنِ ٱلصِّمَّةِ] :
وَمَـا أنَـا إلَّا مِـنْ غَـزِيَّـةَ إنْ غَـوَتْ
غَـوَيْـتُ وإن تَـرْشُـد غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ

(٣) الفرض : الهبة والعطية .

هُنَـــاكَ إِلْحَـــادٌ مُحَبَّـــبٌ وَلَا
يُفَـرَقُ حُبُّـهُ هُنَـا مِـنْ بُغْـضِ
هُنَـــاكَ يَكْفُـــرُونَ بِـــٱللهِ وَهَـــا
هُنَـا يُـرَى حَتْمًـا وَأَمْـرًا مَقْضِـي[1]
يُقَـالُ : « هُـمْ أَبْطَـالُكُـمْ فَلْيَنْهَجُـوا
مَا رَاقَهُمْ مِنْ نَهْجِ عَصْرِ ٱلنَّهْضِ
وَقَـدْ أَبَـادُوا ٱلْفَـرْدَ وَاسْتَبْـدَادَهُ »
كَـأَنَّ تُـرْكِيَّـا غَـدَتْ كَـٱلـرَّوْضِ
وَمَا دَرى ٱلمِصْرِيُّ مَا في ٱلاسْمِ
وَالشَّكْلِ لِرَفْعِ ٱلشَّعْبِ أَوْ لِلْخَفْضِ
وَأَنَّ ذَا ٱلتَبْـدِيْـلَ فِـي ٱلشَّكْـلِ لِأَ
جْلِ ٱلأَكْلِ مِن ظَهْرِ ٱلْوَرَىٰ ٱلْمُنْقَضِّ
هَـلْ هُـوَ إِلَّا رَجُـلٌ[2] مُقَـامِـرٌ
بِمَـالِ غَيْـرِهِ جَـرِيءُ ٱلـرَّكْـضِ

---

(١) يقصد الشيخ بقوله « هناك » في الشطر الأول من هذا البيت والذي قبله بلدهِ تركية ، ويقصد بقوله « هنا » في الشطر الثاني من هذا البيت والذي قبله مصر . (الباحث) .

(٢) يقصد بالرجل هنا مصطفى أتاتورك . (الباحث) .

أَرَادَ سُلْطَـــــةً لِنَفْسِـــــهِ وَأَنْ
يُفَرْنِـجَ ٱلكُـلَّ بِجَهْضِ ٱلْبَعْضِ[١]
فَهَــدَمَ ٱلْبَيْــتَ ٱلْعَتِّيْــقَ ٱلمَلَكِــيَّ
وَٱلْخِــلَافَــةَ الــوَسِيــعَ ٱلْحَــوْضِ
وَسَــرَّتِ ٱلــدَّوْلَاتِ خُطَّــةٌ كَــذِي
فَسَــوَّلُــوا لَــهُ لِهَــذَا ٱلنَّقْــضِ
فَهَــذِهِ مَــاهِيَّــةُ ٱنْقِــلابِنَــا
وَمَا عَدَاهَا ٱسْمَعْ كَإِفْكٍ مَحْضِ
وَسَائِلُ ٱلتُّرْكِ تُجِبْكَ عَنْ جَدِيْـ
ـدِ ٱلْفَرْدِ ذِي ٱلْبَطْشِ ٱلشَّدِيدِ ٱلْقَبْضِ
وَإِنَّهَــا لَــوْ حُــرِّرَتْ لَافْتَقَــدَتْ
قَــدِيمَــهُ فِــي خُلَّــبٍ مِــن وَمْــضِ
وَشَــاعِــرٌ[٢] يَعْبَــثُ هــاتِفًــا بِمَــا
حَــلَّ بِتُــرْكِيَّــا كَــوَخْــزِ ٱلأَرْضِ[٣]

---

(١) الجهض : الغلبة .

(٢) يقصد بالشاعر هنا أحمد شوقي . (الباحث) .

(٣) الأرض : خَبَلٌ من الجن .

يُطْـرِئ نَبَّـاشِـي قُبُـورِهَـا ٱلَّتِـي
عَمَّتْ بِقَتْلَاهُمْ فَسِيْحَ ٱلرُّبْضِ[1]

يَقُـوْلُ مَـا لَـمْ يَفْعَلُـوا جَهَـالَـةً
وَيَنْعَـتُ ٱلْمُسْـوَدَّ كَـالْمِبْيَـضِّ

فَهْـوَ أَمِيْـرُ شِعْـرِهِـمْ وَٱلشُّعَـرَا
ءُ أَمْلِئَـاءُ بِـاَلْكَـلامِ ٱلأَمْـضِ[2]

يُلِـحُّ فـي ضَـلالِـهِ مُحَـاوِلَا
رَغْمِـي لِيَسْلَـمَ فَمُـهُ مِـنْ فَـضِّ

يَضْحَـكُ فِـي مُـزَخْـرَفَـاتِ شِعْـرِهِ
وتُـرْكِيَّـا تَبْكِـي دَمًـا مِـنْ مَـضِّ

بَـلاغَـةٌ يَـزِيْـدُهَـا تُـزِيْـدُهُ
حَمَـاقَـةً وَرَمِيَّـةٌ فِـي ٱلْحَبْـضِ[3]

---

(١) الربض : أساس المدينة وما حولها .

(٢) الأمض : الباطل .

(٣) الحبض : انتزاعُ السهم من القوس انتزاعاً ، [ثم إرسالُهُ فَيَسْقُطُ بين يديك ولا يُصوبُ ، وصَوْبُهُ استقامته ، و] وَقَعَ بين يدي الرامي ولم يَستقم .

يَبْحَثُ[1] عَنْ شَوْرَى وَلَا شُوْرَى إذا
أَعْضَاؤُها [كُوِّنُوا] بِالمُعَضِّي[2]
وَهَـــانَ لَـــوْ مَلَكْـــنَ آراءَ بِهَـــا
فَضَاعَفَ ٱلمُؤْتَضَّ بِٱلمُؤْتَضِّ[3]
ذَلِكَ حُكْمُ ٱلسَّيْفِ إِنْ لَمْ تَرْضَهُ
فَثَغْــرُهُ مُبْتَسِــمٌ كَــٱلمُــرْضِــي
وَقَبْـلَ ذَا مَـا حَكَـمَ ٱلـرَّشَـادُ بَـلْ
أَنْوَرُ كَانَ فِي ٱلْقَضَايَا يُمْضِي[4]

---

(١) فاعل (يبحث) هنا ضمير مستتر جوازاً عائد إلى أمير الشعراء أحمد شوقي ، والمعنى : إن شوقي يَبحث عن تطبيق مبدأ الشورى الإسلامي في (المجلس الوطني) الذي أسَّسَهُ مصطفى كمال بأنقرة ، ولا شورى في مجلس كُوِّن أعضاؤه بالإرهاب والبطش. (الباحث).

(٢) المُعضّي ، أي : المُجَزِّئ عضواً عضواً وهو السيف ، فَكَأَنَّه لتجزئته الشيء أجزاء وأعضاء يُنشئ الأعضاء ، وكأن أعضاء المجلس الوطني مُكَوَّنين بالسيف لكونه الفاعلُ في انتخابهم .

(٣) المؤتض : المضطر .

(٤) بعد أن تَحدَّث الشيخ في الأبيات السابقة عن مصطفى كمال وبيَّن حقيقته وحقيقة حكومته ، عاد في هذا البيت والذي بعده إلى الحديث عن حكم الاتحاديين ، فقال : إنه لم يكن الحكم المتقدم على حكم=

هَـامَـتْ بِـهِ مِصْـرُ كَهَـذَا فَمَحَـا
بِـلادَنَـا فِـي طُـولِهَـا وَٱلْعَـرْضِ
وَمِصْـرُ لا غَـرْوَ إِذَا مَـا أُولِعَـتْ
بِكُـلِّ فِـرْعَـوْنٍ عَـلا فِـي ٱلأَرْضِ

الثالثة :

قَصِيدَةٌ فِي المَدِيحِ مُكَوَّنَةٌ مِنْ تِسْعةِ أَبْياتٍ أَنْشَدَهَا في شَهْرِ رَمَضان سنة ١٣٤٤هـ الموافق آذار/ مارس ١٩٢٦م ، ذلك أَنَّهُ لَمَّا قرأ مقالات صديقه شكيب أرسلان التي كَتَبَها في جريدة كوكب الشرق تحت عنوان : « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتَّحَكُّم » ، والتي رَدَّ فيها على طه حُسَيْن (١٨٨٩م - ١٩٧٣م) فيما ذَهَبَ إِلَيْهِ في مسألة الشِّعْر الجاهِلِي[1] ، أعجب بها غايَةَ الإعجابِ ، فجادَتْ قريحَتُهُ

= مصطفى كمال في تركية حكماً راشداً ، بل كان حكماً طائشاً ، حيث أهلك الاتحاديون بقيادة أنور باشا بلادَنا تركية وأضاعوا ثرواتها وأملاكها . ومع هذا فقد امتدحت مصر أنور باشا في بادئ الأمر وأطْرَته وأعلت من شأنه كما تفعل الآن مع مصطفى كمال . (الباحث) .

(١) وذلك في كتابه - أعني طه حسين - الذي ألفه سنة ١٩٢٦م وسماه « في=

بهذه الأبيات التي امْتَدَحَ فيها شكيب أرسلان وأثنى على مقالاته ، والتي قال فيها [من الكامل] :

= الشعر الجاهلي » وضَمَّنه أخطاء كبيرة تَجرَّأ بها على الدين ونال من القرآن الكريم ، ومن أخطرها : قوله إنه يجب عند البحث في الأدب العربي أن ننسى ديننا وعقائدنا وكل مُشَخِّصاتنا ويجب ألَّا نَتقيَّد بأي شيء من ذلك ، وقوله : إن ورود اسم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في التوراة والقرآن الكريم لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، وزعمه أن قرابة إبراهيم وإسماعيل للعرب ليست إلا أسطورة لقيت رواجاً عند القُرَشيين لأنها تَدعم مركزهم فيما كان بينهم وبين نجران وصنعاء من منافسة دينية ، وإنكاره أيضاً قصة بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة المُشرَّفة وزعمه أنها خرافة ظهرت قُبيل الإسلام ثم استغلها الإسلام لسببٍ ديني ، وقَبِلَتْها مكة لسببٍ ديني وسياسي أيضاً .

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبيرة في الصحف والمجلس النيابي المصري ، وأهاج الرأي العام بمصر وأثار الأزهر ومعاهده المختلفة التي أرسلت برقيات عديدة إلى الحكومة يُطالبون بمحاكمةِ مُؤلفه وطرده من الجامعة المصرية . وللاستزادة في ذلك ارجع إلى كتاب « المعركة بين القديم والجديد » لمصطفى صادق الرافعي ، وكتاب « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » للدكتور محمد محمد حسين في أول الفصل الرابع من الجزء الثاني .

لله ِ مَـا أَمْـلَاهُ كَـاتِـبُ شَـرْقِنَـا
فِي كَوْكَبِ ٱلشَّرْقِ ٱلْمُعَلَّى جَاهَا
أَمْلَـى فَـأَنْـزَلَ مِـنْ خِـلَالِ سُطـورِه
مِـنْ كُـلِّ شَيْطَـانِ حَـدِيـثٍ فَـاهَـا
قَدْ بَرَّأَ ٱلشِّعْرَ ٱلْقَدِيمَ وَذبَّ عَنْ
أَنْسَابِهِ كَٱلشَّمْسِ حِينَ ضُحَاهَا
بَلْ ذَبَّ عَنْ أَسْمَى ٱللُّغَاتِ وَعِفَّةِ ٱلْـ
إِسْـلامِ مَـنْ إِنْ كَـانَ قَـدْ دَسَّـاهَـا
فَـأَتَـى كَحَـدِّ القَـذْفِ فِـي تَـأْثِيـرِهِ
فِـي نَفْـسِ أَفَّـاكٍ يُسَمَّـى طَـهَ
تِلْكَ ٱلصَّحَائِفُ دَامَ كَاتِبُهَا ٱلَّذِي
أَرْضَـى ٱلْقَـدِيـمَ وَدِينَنَـا وَٱللهَ
تَبْقَـى لَـهُ حَتَّـى تكُـونَ صَحِيْفَـةً
لِمَعَـادِهِ بِيَمِينِـهِ يُـؤْتَـاهَـا
غَشِيَ ٱلْفَراعِنَةَ ٱلْحَدِيثَةَ يَمٌّ[1] مَنْـ
ـطِقِـهِ وأطْبَـقَ مِنْهُـمْ أَفْـوَاهَـا

(١) اليَمُّ هنا بمعنى البحر ، ويَمُّ منطقه ، أي : بحر منطقه .

أَمْلَى فَكَمْ عَيْنًا أَقَرَّ بَيَانُهُ الْـ
أَوْفَى ، وَكَمْ أَفْئِدَةً أَعادَ هُداهَا

وَالْجَدِيرُ بالذِّكْرِ أَنَّ هذه القصيدةَ لَمْ تُنْشَرْ مِنْ قَبْلُ ، وقد عَثَرْتُ عَلَيْها بين أوراق الشَّيْخِ وَكُتُبِه لدى حفيداتِهِ بِمِصْرَ[1]

الرابعة :

قصيدةٌ في الوَصْفِ مُكوَّنَةٌ من ثمانية أبيات ، نَظَمها بعد استقراره في مِصْر سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، ذلك أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ من تركية فِراراً بدينِهِ وحياتِهِ ، وترامَتْ به البلاد ، ثم استَقَرَّتْ به النَّوَى في مِصْرَ على فاقَةٍ وإملاقٍ شديدَيْنِ ، مع التَّجَمُّلِ في الظَّاهِرِ والتَّجَلُّدِ للشَّدائِدِ . نَشَرَتِ الصُّحُفُ العالميةُ خَبَرَ صيامِ الزَّعيم الهندي غاندي الهندوسي (١٨٦٩م ـ ١٩٤٨م) احتجاجاً على سياسَةِ الإنكليز في بلاده ، فارتَّجتْ بهذا النَّبَأ أَرجاءُ العالَم واستُعظم كلَّ الاستعظام ، عِنْدَئِذٍ تَأَجَّجَتْ عواطِفُ مصطفى صَبْرِي ، فَعَبَّر عَمَّا في نفسه من أحاسيس بهذه القصيدة التي قَارنَ فيها بين جُوعِهِ الدائِمِ الصامِتِ وجوعِ

---

(١) راجع : الملحق رقم (٧) ص٧٢٦ [من كتاب « الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد »] .

غانْدي العابِرِ الصاخِبِ ، حَيْث قال [من الخفيف] :

صَامَ شَيْخُ ٱلْهِنْدِ ٱلْحَدِيثَةِ غَنْدِي
صَــوْمَــهُ المُسْتَمِيــتَ والمُتَحَــدِّي
وَأُرَانِـي عَلـى شَفَـا المَـوْتِ أُدْعَـى
شَيْـخَ الإِسْـلَامِ بَلْـهَ هِنْـدٍ وَسِنْـدِ
غَيْـرَ أَنَّ الصَــوْمَيْــنِ بَيْنَهُمَــا فَــرْ
قٌ عَجِيْــبٌ أُبْــدِيــهِ مِــنْ غَيْــرِ رَدِّ
صَــامَ مَــع وَجْــدِهِ وَصُمْـتُ لِعُـدْمٍ
دَامَ مُذْ ضِفْتُ مِصْرَ كَالضَّيْفِ عِنْدِي
وَغَدَا صَوْمُهُ حَدِيْثَ جَمِيعِ النَّـ
ـاسِ ، أَمَّا صَوْمِي فَأَدْرِيهِ وَحْدِي
فِـي سَبِيـلِ الإِسْـلَامِ مَـا أَنَـا لَاقٍ
وَلَئِـن مِــتُّ فَلْيَعِــشْ هُــوَ بَعْــدِي
فَلْيَعِشْ رَغْمَ مُسْلِمِي ٱلْعَصْرِ دِينٌ
ضَيَّعُــوهُ وَلَــمْ يَفُــوْهُ بِعَهْــدِ
كَانَ مِثْلِي يَمُوتُ جُوْعًا وَلَا يُعْـ
ـرَفُ لَوْ كَانَ شَيْخُهُم شَيْخَ هِنْدِ

وقَـدْ نَشَـرَ هـذه القَصِيـدَةَ الشَّيْـخُ عَبْدُ الفَتَّـاح أبـو غُـدَّةَ رحمه الله في كتابه « صَفحات من صَبْرِ العُلَماءِ على شَدَائِدِ

العِلْمِ والتَّحْصِيلِ » وذلك في الصفحة الحادية والستين[١] .

مصادر ترجمته :

« الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد » للدكتور مفرح بن سليمان القوسي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض .

مقدمة « موقف العقل والعلم والعالَم » .

مجلة « الهداية الإسلامية » ٤/ ٣٣٣ .

« الأعلام » للزركلي ٧/ ٢٣٦ .

الصحف المصرية ١٣/ ٣/ ١٩٥٣م .

* * *

ترجمة
قاسم أمين
(١٢٧٩ - ١٣٢٦هـ = ١٨٦٣ - ١٩٠٨م)

هو قاسم بن محمد أمين المصري .

---

(١) من الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية .

قال عنه أحدُ الباحثين المعاصرين ، وهو محمد أحمد المقدم في كتابه : « عودة الحجاب » : فِتْنَةُ الأجيال ، وداعيةُ السُّفورِ في عهد الاحتلال .

كان والده محمد بك أمين ذو الأصول التركية والياً عثمانياً في كردستان ، وعلى أثر تمرد كردستان وقيامها بالثورة على الدولة العثمانية بقي في العاصمة إستانبول ، ومنح إقطاعاً قرب مدينة دمنهور بمصر ، وكان ذلك في بداية اعتلاء إسماعيل الخديوية . وبسبب كون والده والياً على كردستان وإقامته هناك ، توهَّمَ بعضُ الباحثين أنَّهُ من أصولٍ كرديَّةٍ .

في مصر ، تزوَّج محمد بن أمين بابنة أحمد بك خطَّاب شقيق إبراهيم باشا ، وهو إحدى الشخصيات المصرية المرموقة آنذاك .

التحق محمد بك أمين في الجيش المِصْرِي ، وبسبب ما أبداه من شجاعة وإقدام وكفاءة في تحمّل المسؤولية رُقِّيَ إلى درجة أميرلاي ، كما أنه شَغَلَ بَعْدُ منصبَ قائِدِ سلاح المرابطين .

ولد قاسم أمين في أوائل ديسمبر/كانون الأول من عام ١٨٦٣م ، وبعض الباحثين يقول : إنه ولد عام ١٨٦٥م ، ببلدة طرة بمصر .

التحق في الخامسة من عمره بمدرسة رأس التين التي كانت تستقطب أبناء الطبقة الميْسورة من الأتراك والشراكسة والقبط والمصريين .

بعد نيلِه الشهادة الابتدائية ، انتقل مع أبيهِ الضابط أميرلاي محمد بك أمين إلى الإسكندرية ، فنشأ وتعلَّم بها في إحدى المدارس التجهيزية التي تقع تحت إشراف الخديوية ، وفي القسم الفرنسي منها ، ثم انتقل إلى القاهرة للدراسة في معهد الحقوق والتجارة حيث تخرج بدرجة ليسانس في الحقوق للعام ١٨٨١م .

التحق قاسم أمين بمكتب المحامي المشهور في ذلك الوقت مصطفى فهمي ، والذي أصبح رئيساً للوزراء في عهد الاحتلال الإنكليزي في مصر ؛ وعمل في هذا المكتب ستة أشهر .

وهنا تجدرُ الإشارةُ إلى أن مصطفى فهمي معروفٌ بعمالَتِهِ للإنكليز وبإيغاله في الخيانَةِ ، وقد حازَ واستَقْطَبَ لعنات مصر كُلَّها . راجع « سيرة حياتي » للدكتور عبد الرحمن

بدوي ، الجزء الأول ، صفحة : ٤٨[1] .

ثم سافَرَ في أواخر ١٨٨١م إلى فرنسة ملتحقًا ببعثة حكومية رسمية دراسية لطلاب الحقوق ، حيث أكملَ دراسة الحقوق في مونبيلية بفرنسة .

وهناك في فرنسة تعرف على واقع الحياة الفرنسية ، وخصوصاً على نظرة المجتمع الفرنسي نحو المرأة ، ويُعْرفُ عنه أَنَّهُ كانت له على مقاعدة الدراسة بفرنسة علاقة حب رومانسية مع فتاة فرنسية جميلة تدعى سلافا ، وكان لهذه العلاقة أثرٌ كبيرٌ على نفس قاسم أمين . لكنه لم يتزوَّجْها . بالمقابل فإنَّ سلافا لم تنقطع عن مراسلته حتى بعد زواجه وولادة أبنائه .

وفي هذه الفترة في فرنسة ، وبعد فشل الثورة العرابية التي قام بها أحمد عرابي في أواخر عام ١٨٨١م بمآزرة عدد من الفعاليات الوطنية ، منها : الحزب الوطني الحر الذي أسَّسه كلٌّ من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، فكان من نتائج هذا الفشل أن نفي محمد عبده ، فتوجَّه محمد عبده إلى

(١) وراجع ما سيأتي في الصفحة : ٥٢ وما بعدها .

باريس حيث التقى بأستاذه القادم من الهند بعد أن فرضت عليه السلطات الإنكليزية هناك الإقامة الجبرية خوفاً من أن يؤدِّي اختلاطه بالمسلمين الهنود إلى ما لا تحمد عقباه ! أصدر كلٌّ من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في فرنسة مجلة « العروة الوثقى » .

وفي فرنسة تعرف قاسم أمين على جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ولازم جمال الدين الأفغاني في حلِّه وتَرْحاله على مدى سنتين كاملتين (١٨٨٣ ـ ١٨٨٥) ، وكان بالنسبة لمحمد عبده بمثابة مترْجِمٍ خاصٍّ ، وقد استعان به محمد عبده في نقل بعض المقالات من الفرنسية إلى العربية لنَشْرِها في « العروة الوثقى » .

وعاد قاسمُ أمين يحمل شهادَتَهُ بالحقوق إلى مصر سنة ١٨٨٥م ، فكانَ وكيلاً للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة ، فقاضٍ في قسم قضايا الحكومة ، فرئيساً لنيابة بني سويف ، فرئيساً لنيابة طنطا ، فمستشاراً بمحكمة الاستئناف .

في عام ١٨٩٤م تزوَّجَ من زينب أمين توفيق .

ساهم في إنشاءِ الجامعة المصرية ، حيثُ كان أميناً للسر للَّجنة الدائمة لمتابعة قضية إنشاء الجامعة المصرية ، ثم أصبح رئيساً لهذه اللجنة بعد تخلِّي سعد زغلول عنها بِسَبَبِ تعيِنِهِ وزيراً للمعارف .

وتوفي بالقاهرة في الثالث والعشرين من أبريل/ نيسان ١٩٠٨م .

أَلَّف :

١ ـ « المصريون Les Egyptiens » وهي كنايةٌ عن رَدٍّ على كتاب الفرنسي دوق داركور « مصر والمصريون L'Egypte et les Egyptiens » المنشور في باريس عام ١٨٩٣م . نشر عام ١٨٩٤م .

٢ ـ « أسباب ونتائج ، أخلاق ومواعظ » مجموعة مقالات نشرت في جريدة « المؤيد » المصرية . نشر عام ١٨٩٨م .

٣ ـ « تحرير المرأة » سنة ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ؛ تألَّفَ من خمسة أبحاث كانت قد نشرت عام ١٨٩٨م في جريدة « المؤيد » .

يَذْهَبُ كثيرٌ من الباحثين أنَّ الشيخَ محمد عبده هو الذي أَلَّفَ كتاب « تحرير المرأة » ، أو على الأقل شارَك في تأليفِهِ بكتابة بعض فصوله .

والشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية ، كان على علاقَةٍ جَيِّدَةٍ مع المستعمر الإنكليزي ، يقول عَنْهُ الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه « سيرة حياتي » الجزء الأول ، صفحة : ٥١ :

الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية ، و(المصلح الديني) المزعوم ! فقد انعقدتْ بينه وبين لورد كرومر علاقةٌ حميمةٌ ـ إِنْ صَحَّ أَنْ توصَفَ بالحَمِيمَةِ علاقَةُ التابع بِالمتبوعِ ، والذَّليلِ بالجبَّارِ ، والمُطيعِ الخاضِعِ بالآمر المستكبر ـ بَلْ كان محمد عبده هو نفسه يتفاخَرُ ويتباهى بهذه العلاقة الوثيقَةِ بَيْنَهُمَا ، وبينه وبين سلطة الاحتلال ، كما وَرَدَ في رسالةٍ منه إلى رشيد رضا لَمَّا أَنْ خافَ هذا الأخير من أن يعتقله الإنكليز (راجع رسائل محمد عبده إلى رشيد رضا في « تاريخ الإمام محمد عبده » للشيخ رشيد رضا) . وقد اسْتَغَلَّ كرومر علاقَتَهُ هذه بمحمد عبده ، فجَعَلَهُ يكتبُ مقالاتٍ ضد محمد علي ، رأسِ الأسرة العلوية ، بمناسبة مرور مئة عام على تولِّيه حُكْمَ

مِصْرَ ، وذلك في سنة ١٩٠٥م ، وكان ذلك قبل وفاة محمد عبده بقليل (راجعها في الكتاب المذكور) .

ومع ذلك كانَ ـ وظَلَّ حتى اليوم ـ لمحمد عبده أنصارٌ مُعْجَبُون ومُمَجِّدُونَ مُغالون !!! وإذا سأَلْتَهُم : ماذا يُعْجِبُكُم فيه ؟ أهذا التواطؤ على طاغية الاستعمار البريطاني في مصر ؟ لم يجدوا جوابًا ، لأنَّ الوقائعَ تَدْفعُهُم ، بل لاذوا بدعوى « الإصلاح الديني » ، وَزَعَمُوا أنَّهُ كان « مصلحاً دينياً » . فنَسْأَلُهُم : أيُّ إصلاحٍ دينيٍّ قامَ به ؟ لم يستطيعوا أنْ يَذْكُروا إلّا تفاهاتٍ شَكْلِيَّةً ، مثل تحليل لُبْسِ القبعة [1]، وكأن هذا أَمْرٌ خَطِيرٌ جِدًّا بِهِ يكون المرء « مصلحاً دينيًا » كبيراً!

وهكذا الأمر في كثيرٍ من أمْرِ الشُّهرَةِ فِي مصر والبلاد العربية والإسلامية ! لَقَبٌ يُطلِقُهُ مَخْدُوعٌ أو خَادِعٌ ، فيترَدَّدُ بين الناسِ في عَصْرِهِ ، وَيَنْتَقِلُ من جيلٍ إلى جيلٍ ، ولا أَحدٌ يَتَحَقَّقُ من صوابِ إطلاقِ هذا اللقب وخَلعِ هذه الشهرة !!

ولو كانَ لمحمد عبده من الإنتاج الفِكْرِيِّ ما يَشْفَعُ له في نيل هذا اللَّقَبِ ، لاتَّسَعَ وَجْهُ العُذْرِ . ولكنَّهُ كانَ ضَئِيلَ الإنتاجِ جِدًّا ، إذْ لَيْسَ له إلا كتابٌ صغيرٌ هو « رسالة التوحيد » ،

(١) راجع الصفحة : ٢٣٠ وما بعدها ، لتتبيَّنَ خطورة هذا التحليل.

وهي دروس ألقاها في بيروت بعد خروجه من مِصْرَ ، وهي مَتْنٌ في علم التوحيد واضِحُ العبارة ، حَسَنُ الأُسْلُوبِ ، لكنَّهُ مِنْ حَيْثُ المادَّةُ خَجِلٌ بَسِيطٌ لا يفيدُ إلا المُبْتَدِئينَ في هذا العِلْمِ . وما عدا هذه « الرسالة » ، لَيْسَ له إلا تعليقاتٌ لغويةٌ بسيطةٌ على مقاماتِ البديع الهمذاني و« البصائر النَصِيرِيّة » للساوي و« نهج البلاغة » المنسوبِ إلى الإمام علي ابن أبي طالب . انتهى النقلُ عن الدكتور عبد الرحمن بدوي .

ويقول مصطفى صبري في كتابه « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين » ١/ ٥٧ :

عَفَا الله عن الشيخ محمد عبده ، لما أرادَ النهوضَ بالأَزْهَرِ حاربَ علماءَهُ القدماءَ وفَضَّ المسلمين وخِصِّيصاً الشبابَ المتعلِّمين من حولهم . . . حارَبَهُمْ حَتّى أماتَهُم أَوْ على الأَقَلِّ أَنْسَاهُمْ نِسْيانَ المَوْتَى ، فأصْبَحَ بِفَضْلِ النَّهْضَةِ التي نادىٰ بها الشيخ محمد عبده يقولُ رَجُلٌ مثل الدكتور زكي مبارك « الرسالة » عدد ٥٧٢ : نَزَعْنا رايَةَ الإِسْلامِ من أيْدِي الجهلة (يريد بهم علماء الدين) وصارَ إلى أقلامنا المرْجِعُ في شرح أصول الدين . انتهى .

ويقول في الصفحة ١٣٣ من الجزء نفسه : أما النهضةُ

الإصلاحيةُ المَنْسُوبَةُ إلى الشيخ محمد عبده فخلاصَتُهُ أنَّهُ زَعْزَعَ الأزْهَرَ عن جُمُودِهِ على الدين ، فقرَّبَ كثيراً من الأزْهَرِيِّين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يُقَرِّب اللادينيين إلى الدين خطوةً . وهو الذي أَدْخَلَ الماسونية في الأزْهَرِ بواسطة شَيْخِهِ جمال الدين الأفغاني ، كما أنَّهُ على ما يقالُ وسيأتي بيانُه في هذا الكتاب شَجَّعَ قاسم أمين على ترويج السُّفُورِ في مصر . انتهى .

وإني أنقل هنا كلاماً للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رحمه الله تعالى ، قالَهُ في خاتمة كتابه «أربعون حديثاً في مدح السنة وذم البدعة»[(١)] ؛ فقد قال :

قال جامعه الفقير يوسُف النَّبْهانِي عفا اللهُ عنه : اعلَمْ أَنَّ اتِّباعَ هذه المذاهِب الأربعة التي أجْمَعَتْ عَلَى قَبولها والإقبال عليها الأمة المحمَّدِية من عَهْدِ أصحابها إلى الآن وإلى ما شاء الله ، هو في حكم الاتِّباع للكتاب والسُّنَّة ، لأنَّها شُرُوحٌ لهما ، وإذا أُطْلِق لَفْظُ «أهل السنة والجماعة» من أكثر من

(١) وهو من مطبوعات الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ، قبرص .

ألف سنةٍ إلىٰ الآن يُفْهَمُ منه أهل هذه المذاهب الأربعة ، فَمَنْ خَرَجَ عن دائِرَتِها لا يَعُدُّونَه من أَهْلِ السُّنَّة والجماعة ، وما خَرَجَ عن دائرتها إلا أَهْل الأهواء والبِدَعِ في سائر الأعصار والأدْوار إلى زمانِنا هذا .

واعْلَمُ أَنَّهُ لم يأْتِ فِرْقَةٌ أهلُ بدْعةٍ وضلالَةٍ في الزمن السابق من سائر المبتدعين أضرّ على الإسلام والمسلمين من فرقة محمد عبده المِصْرِي وجمال الدين الأفغاني التي ظهرت في هذه الأيام ، واشْتَدَّتْ في بلاد مِصْر والشام أتباع هذين الرجلين ، فقد كانَا أعظم أعوان الشيطان في هذا الزمان عَلَى إضلال بعض جَهَلَةِ المسلمين وتَفْرِقَةِ كَلِمَةِ أهل الإيمان ، فلا جزاهم اللهُ خَيراً عن المسلمين والإسلام ، وقد صار لهما حزبُ ضَلالةٍ رَفَضُوا المذاهب الأربعة تَبَعاً لهما ، وٱعْتَقَدَ كلُّ واحدٍ منهم بنفسه أنَّه يأخذ الأحكام من الكتاب والسُّنة ، لا فرق بَيْنَهُ وبين الأئمةِ المجتهدين ، وما ذَاكَ إلا مِنْ نَقصِ العقل والدين ، ولَو صَحّ عَقلُهُ وإسلامُه لاتَّبَعَ سَبِيلَ المؤْمِنين . وقَدْ سَمُّوا أَنفسهم المصْلِحِين[1] لِدينِ الإسلام ،

---

(١) إشارة إلى المصلحين (البروتستانت Protestant) فهذا لَمزٌ للتشبّه =

. . . .

= بالنصارى باسمهم ؛ وواقع الأمر أن جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده هم من زعماء الإصلاح والنهضة في العصر الحديث ، وقد اتخذ تجاههم معظم علماء المسلمين موقف النفور والحذر منهم ، خاصة أنَّهُما كانا ، إضافة لما ذكره النبهاني رحمه الله هنا من دعوى الاجتهاد ؛ يشتغلان بالفلسفة ، وكتبهما مليئة بالفلسفة ، ثم إن تَوجُّههما نحو الغرب وإقامتهما فيه ، وتعاونهما مع المستشرقين والماسون ؛ جعل المسلمين يقفون منهما موقف الحذر ؛ إضافة إلى أن المعروف والمشاع عنهما أنهما كانا يعتقدان دين الإسلام كاعتقاد مذهب فلسفي عقلي ، حيث انتقدهما النبهاني وغيره ، بأنهما لا يلتزمان بأداء الشعائر الإسلامية ، وإن كانا يدافعان عن الإسلام .

وللمؤلف النبهانيِّ عدة مقولات هاجم فيها الأفغاني ومحمد عبده ، بل هاجم أيضاً محمد رشيد رضا ! وله قصيدة تجاوزت الـ ٤٠٠ بيت ، تدعى « الرائية الصغرى في ذَمّ البدعة ومدح السنة الغرا » ذمّ فيها الثلاثة السابقين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ؛ يشبِّههم باقتصارهم على الكتاب والسنة ودعوى الاجتهاد بالبروتستانت Protestant الذين يدّعون إصلاح النصرانية بتركهم العمل بأقوال أئمَّتهم السابقين والاقتصار على ما في التوارة والإنجيل ، ثم يقارن بين دعوى الإصلاح وتسْمية البروتستانت بالمصلحين ، بل يفسّر بهم الآية القرآنية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [٢ سورة =

. . . .

= البقرة/ الآيتان : ١١ و١٢] ويقول : ومن العجيب أنه لم تأت فرقة ضالة من فرق المسلمين سمُّوا أنفسَهم المصلحين غير هؤلاء ، فانطبقت عليهم هذه الآية تمام الانطباق . اهـ .

كما أنّه يفسر الحديث النبوي : « لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعتُمُوهُمْ » قيلَ : يَا رَسُولَ الله ! اليَهُودَ والنّصَارى ؟ قال : « فَمَنْ » ؟ رواه البخاري ، رقم : ٣٤٥٦ ؛ ومسلم ، رقم : ٢٦٦٩ ؛ بهم .

وموقف النبهاني منهم هو موقف أغلب علماء المسلمين في ذلك العصر .

ولا شك أن ترك القيام بالشعائر ، وإن كان انعكاس القيام بها يكون على صاحبها ، كالصلاة مثلاً ، فالذي لا يصلي يكون ظلم نفسه بحرمانها من هذا الخير ، وإن دعا للالتزام بالإسلام ؛ يكون كالعِير التي تحمل الماء وتسقي الآخرين وهي تموت عطشاً ! فترك الشعائر يوصل للكفر والعياذ بالله ، على تفصيل واختلاف بين العلماء . فلا يستغرب موقف النبهاني ولا علماء عصره من زعماء الإصلاح والنهضة . وما زالت حياة الأفغاني موضع دراسة وخلاف .

ولا يفوتني قبل ختام هذه الحاشية الطويلة أن أذكر أن الشيخ محمد رشيد رضا لم يتهم بترك القيام بالشعائر ، وإنما بمتابعته لفكر سابقيه والدعوة إليه .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أنه ما زال كلُّ دَعيٍّ لبدعة أو خروج عن

وهُمْ من أضَلِّ العَوام وأضرِّ الهوام ؛ وَهُمْ إما مِنَ المغفَّلين الذين صاروا في حكم المجانين ، وَإِما من الزنادقة المارِقين ، الَّذين لا يعمَلون بطاعَةٍ ولا يدينُون بدين ؛ وَإِمَّا من الجهلَةِ الفاسِقِين ، المتهوِّرين المُتَهَتِّكِين ؛ يتمشْدَقُون بهذه الدعاوىٰ الكاذبة ، ويتصرَّفون في الأحكام الدينية بحسب أغراضهم الفاسدة ؛ وأقاموا أنفسهم الخبيثة مقام أئمة الدين ، وهَؤلاء بعضُهم من الطلبة القاصِرِين ، وبعضهم لم يشم رائحة العلم والدين ؛ وصاروا يَحْمِلون النّاس عَلىٰ دَعوىٰ الاجتهاد المُطْلَقِ وترك المذاهب الأربعة ، حتى إذا

= الجماعة ، يسلك نفسه تحت اسم المصلحين ، وتحت زمرة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومثالاً على ذلك راجع أقوال الدكتور المهندس محمد شحرور وقارنها بأقوال محمد عبده ، بل قارنها بأقوال قاسم أمين الذي يقول مترجموه أنه يمثل أفكار محمد عبده ! لتجد صحة ما نقول . وعلى سبيل المثال راجع مقالة « قضية المرأة في تفسير المنار » للأستاذ منجي الشملي في حوليات الجامعة التونسية العدد ٣/ سنة ١٩٦٦ لاستجلاء آراء محمد عبده عن المرأة والحجاب ؛ وقارن أيضاً آراء محمد عبده في تعدد الزوجات والطلاق وآراء الدكتور المهندس محمد شحرور .

وراجع مقدمة كتاب « دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع » للدكتور المهندس محمد شحرور .

كان أحدُهم معلِّماً في مدرسة يبث ذلك في أذهان التلاميذ المساكين ، بحيث صار كثيرٌ من الأولاد الخارجين من مدارسهم خوارج عن الأئمة الأَربعة ومذاهبهم ومن تبعهم من أهل الإسلام ، وهم في الحقيقة غير متقيِّدين بالشريعة مطْلقاً ، لأنَّهم تاركون للصلاة والزكاة والحج والصيام ؛ وما تفرَّع عن ذلك من أحكام دين الإسلام ؛ فنسأل الله العافية وحسن الختام . ٱنْتَهَىٰ .

٤ ـ « المرأة الجديدة » سنة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ، وأهداه قاسم أمين إلى سعد زغلول .

وكان سعدُ زغلول من الذين ناصروا قاسِمَ أمين ، وهو سعد باشا بن إبراهيم زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هـ = ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧م) زعيمٌ سياسيٌّ مِصْرِيٌّ ، ومن أكبر خُطبائها في عَصْرِهِ . ودَرَجَ كثيرون نِسْبَةَ أمثْالِهِ إِلى الوطنية ، فيقالُ عَنْه : زعيمٌ وَطنِيٌّ ، فأفسدوا معنى الوطنية حيث أصبحت رَدِيفاً لمعنى العمالة والخُضوعِ والتَّبعية لِلأجنبي ، ومعادَاةِ الأصالة وكل ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ للوَطَنِ والتراثِ والدينِ ؛ فسَعْدُ زغلول هو أوَّلُ من نَزَعَ الحجاب بِيَدِهِ عن النساء في حَضْرَةِ بُعولتهن بِمِصْرَ ، وهو مُؤَسِّسُ حزبِ الوَفْدِ المصري ،

ولمعرفة بعض الشيء عن تاريخِهِ أَنْقُلُ بعْضَ ما ذَكَرَهُ عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه « سيرة حياتي » الجزء الأول ، صفحة : ٤٨ : إن تاريخ مُؤَسِّس الوفد ـ سعد زغلول ـ كان (قبل سنة ١٩١٩م على الأقل) تاريخاً شائناً ، يَنْضَحُ بالخيانَةِ والوُصوليَّةِ وممالأة الإنكليز المحتلين :

١ ـ أَلَمْ يَكُنْ وزيراً في وزارة فهمي ، عميل الإنكليز الموغِلِ في الخيانة[1] ؟

٢ ـ أَلَمْ يتزوَّج [صفية] بنت مصطفى فهمي هذا في الوقت الذي كانَتْ فيه مِصْرُ كلُّها تَلْعَنُ هذا الرجل ؟

٣ ـ أَلَمْ يكن واحداً من المِصْريِّين الستة الوحيدين الذين أقامُوا حَفْلَةَ توديع للورد كرومر حينما اضْطَرَّت إنكلترة تحتَ تأثيرِ حملة مصطفى كامل عقب مأساة دنشواي إلى نَقْلِهِ من مصر مشيَّعاً بكل اللعنات من جانب كلِّ مِصْرِيٍّ وطنيٍ مخْلِصٍ ؟

وحسبي هذا القدر ، فليس المقامُ هنا مقام محاسبةِ هذا

---

(١) المقصود مصطفى فهمي الذي مرّ ذكره آنِفاً في الصفحة: ٤٠ ، المحامي المشهور ، الذي التحق قاسم أمين بمكتبه .

الرجل ، الذي أضاعَ السودانَ في سنة ١٩٢٤م ؟ انتهى النقل عن الدكتور عبد الرحمن بدوي .

وعلى ذكر حادثة دانشواي ، يُذْكَرُ أَنَّ القاضي فتحي زغلول ، شقيق سعد زغلول ، كانَ أَحَدَ القُضاةِ الذين باءوا بإثم المحاكمةِ الظالِمة التي قَضَتْ بشَنْقِ بَعْضِ أهالي دانشواي !

وكذلك مِمَّنْ ناصَرَ قاسم أمين أحمد لطفي السيد والأميرة نازلي فاضل حفيدة إبراهيم باشا التي كانت تربطها باللورد كرومر علاقة حميمة .

٥ ـ نُشِرَ له كتاب آخر سمي : « كلمات قاسم بك أمين » وهو مجموعة خواطر ومشاعر كان يُسَجِّلها في دفتر يومياته ، نشره أحمد لطفي السيد بعد وفاته .

ذَكَرتْ مجلة الاعتصام المِصْرِيّة في عددها الصادر في شهر رمضان سنة ١٣٩٩هـ أن رفيقَ العظم ، أحد أصدقاء قاسم المقرَّبين ، قام في يَوْمٍ من الأيَّامِ بِزيارَتِهِ ، وأَخْبَرَهُ أنَّهُ جاء هذه المرة من أجْلِ مقابَلَةِ زَوْجَتِهِ والتحدُّثِ معها في بعض المسائل الاجتماعية ، فانْدَهَشَ منه قاسم أمين ، فقال له رفيق العظم : أَلَسْتَ تَدْعُو إلى ذلك ؟ إذن لماذا لا تَقْبَلُ التجربةَ مع

نَفْسِكَ ؟ فأطرق قاسمُ صامتاً .

مصادر ترجمته :

ـ « الأعلام » للزركلي ، ٥/ ١٨٤ .

ـ « ذكرى قاسم بك أمين » أحمد لطفي السيد ، مجلة « المقتطف » المجلد ٥١ ، الصفحات ٤٥ ـ ٥٠ ؛ وهو نص محاضرة ألقيت في العشرين من نيسان ١٩١٧م على طلاب الجامعة المصرية .

ـ « قاسم أمين » لأحمد خاكي .

ـ « قاسم أمين » الأعمال الكاملة ، تقديم وتحقيق محمد عمارة ، دار الشروق ، بيروت الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م .

ـ « قاسم أمين : إصلاح قوامة المرأة » حكمت صباغ الخطيب ، بيت الحكمة ، بيروت ، ١٩٧٠م .

« قاسم أمين ، جدلية العلاقة بين المرأة والنهضة » سمير أبو حمدان ، الشركة العامة للكتاب ، دار الكتاب العالمي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣م .

* * *

ولمصطفى صبري رحمَهُ اللهُ رَأيٌ في قاسم أمين ، ذكره في كتابه « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين » فأَنْقُلُهُ ، وأَنْقُلُ قَبْلَهُ بعضَ ما ذكره في الكتاب ذاته عن السفور وتعدد الزوجات ، جاء في الصفحة ١/ ٤٤٤ :

وَأَمَّا مسألةُ ٱلْمَرْأَةِ فظاهِرَةٌ وغَنِيَّةٌ عن الكَشْفِ ، وحَسْبُكَ فيها الحَفلاتُ الساهِرَةُ التي تَشْتَرِكُ فيها الأُسَرُ الإسْلامِيَّةُ ونشراتُ الجرائِدِ والمجلات عن صور العَقِيلات والفَتَياتِ الكاسِياتِ العارِيات . وَقَدْ قالَ لي أحَدُ رِجال مِصْرَ الوَاقِفِينَ على دَخَائِلِها (المرحوم أبو بكر يحيى باشا) إنَّ الأَحْداثَ الَّتِي تَحْدُثُ في تُركية الحَدِيثَة تَحْتَ إكْراهِ حُكُومَتِها ، تحصلُ بِمِصْرَ في هدوءٍ وطَواعية[1] .

---

(١) على أن مسألة المرأة كتبت عنها مراتٍ في اللغتين التركيّةِ والعربيّةِ ، وأنَّ ناحِيةَ الحَقِّ والصوابِ فيها جليَّةٌ لا تَخْفى على أَحَدٍ ، وإنَّما يضلُّ مَنْ يضلُّ فيها عن الصراطِ السَّويِّ بدافِعٍ من شَهوات نفسِهِ يَقْضِيها ـ قليلًا أو كثيراً ـ من نساءِ النَّاس في إباحَةِ اختلاطِ الجنْسَيْنِ ، بعد ما أمكنه التغاضي عَمَّا يجرُّ عليه هذا الكَسْبُ على حِسابِ النَّاسِ مِنْ تَعْوِيضِهِمْ بِنِسائِهِ . . فهذه المسألَةُ فيها خَسَارةٌ وفيها مَنْفَعَةٌ لِمَنْ =

وَمِما يجدرُ بالذِّكْرِ أَنْ سَجَّلَتْ جَرِيدَةُ « الأهرامِ » في عَدَدِها الصادِر ٢٣ أبريل/ نيسان سنة ١٩٣٨م ، الذكرى الثلاثين لقاسم أمِين مؤلِّفِ كتاب « تحرير المرأة » مع صُورَتِهِ الفوتوغرافية وَكلمةً لابنِه قاسِم أمين عن هذه الذِّكْرى اسْتَهلَّها بالحديث الشريف : « إِذَا مَاتَ ٱبْنُ آدَمَ ٱنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلّا مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » . [رواه مسلم ، رقم : ١٦٣١ ؛ والترمذي ، رقم : ٣٧٧٦ ؛ والنسائي ، رقم : ٣٦٥١ ؛ وأبو داود ، رقم : ٢٨٨٠ ؛ والإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ٨٦٢٧ ؛ والدارمي ، رقم : ٥٥٩] .

ثُمَّ قَالَ : « أما الصدقة الجارية ، فقد ماتَ قاسِمٌ عن غَيْرِ تَرِكَةٍ ، وأمَّا الوَلَدُ الصَّالِحُ الذي يَدْعُو لَهُ بِخَيْرٍ فإني لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَّعي لِنَفْسِي ذلك الصَّلاحَ ، لا عَنْ تواضُعٍ بَلْ عَنْ تَقْصِيرٍ ، ثُمَّ أَسْتَمِيحُ سَادَاتِي العُلماء العَفْوَ في أَنْ أَذْهَبَ إِلى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ أيضاً ، فَأَقُولَ : إِنِّي أَرْجُو لِقاسِمٍ عِنْدَ ٱللهِ أَجْراً عَظِيماً بِقَدَرِ خِدْمَتِهِ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ جَاءَ في

= لا يَخْشَى العارَ . أمَّا الإلحادُ فَلَيسَ لَهُ ما يُعَوِّضُهُ غيرُ نارِ جَهنَّمَ ، ولَيْسَ له دافعٌ من النَّفسِ غَيْرُ الحُمْقِ وَاشْتِراءِ أَعْظَمِ جَهْلٍ باسْمِ العِلْمِ .

الحديثِ ؛ « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ ثَوَابُهَا وَثَوَابُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ » »[1] .

« وَأَيُّ خِدْمَةٍ أَجَلُّ مِنْ هَذِهِ الخِدْمَةِ الَّتِي كان يراها أَبْناءُ جِيلِ نَقْمَةٍ لِما كان عالِقاً بالأذْهان إذْ ذاكَ مِنْ أَنَّ الدِّينَ يَفْرِضُ الحجابَ ويُحَتِّمُهُ ويَمْقُتُ السُّفورَ وَيُحرِّمُهُ ! فما زالَ يَقْرَعُ الحُجَّةَ بالحُجَّةِ ، والدَّليلَ بالدَّليلِ ما بَيْنَ مَعْقولٍ ومَنْقُولٍ حتى هَدَى اللهُ قومَهُ سواءَ السَّبيلِ وبَدَّدَ الظُّلماتِ المُخيِّمَةَ على العُقولِ» .

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ؛ ولكن جاء في « صحيح مسلم » ، رقم : ١٠١٧ ، عن جَرير بن عبد البجلي رضي الله عَنْهُ ، عن رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ من غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي ٱلإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شيءٌ » ورواه أيضاً الترمذيُّ ، رقم : ٢٦٧٥ ؛ والنَّسَائيُّ ، رقم : ٢٥٥٤ ؛ وابنُ ماجَه ، رقم : ٢٠٣ ؛ والإمامُ أحمد في « مسنده » ، رقم : ١٨٦٧٥ و١٨٦٩٣ و١٨٧٠١ و١٨٧٢٤ ؛ والدّارِميُّ ، رقم : ٥١٢ و٥١٤ . ويبدو أن هذا الولد الذي لا يَدَّعي الصلاح لتقصيره ، فاتَهُ القسمُ الثاني من الحديث ، فقد ٱجْتَزَءَ منه كما يَجْتَزِءُ الذي يستدلُّ بالآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٤٣] دون أن يُكْمِلَها ؛ فالمناسب لأمثال والده القسم الثاني لا القسم الأول . [بسام] .

أَقُولُ[١] : فكَأَنَّ حُجَجَ قاسِمِ القارِعَةَ نَسَخَتْ نُصوصَ الحِجابِ الواردةَ في كتاب اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَبَرَعَتْها وَأَبْطَلَتْ عَمَلَ المُسْلِمينَ إلى عَهْدِ قاسمٍ ، وَأَقْنَعَتْ مِصْرَ بِذَلِكَ . . ولم يتأَخَّرْ وَلَدُهُ عن أَبِيهِ في الإِتْيَانِ بالعَجَبِ العُجابِ ! حَيْثُ اسْتَخْرَجَ من ذَنْبِ أَبِيهِ عَملًا لَهُ ثوابُهُ وثوابُ مَنْ عَمِلَ بِهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ . فهو بَعْدَ أَنْ تَواضَعَ فَنَفَى عن نَفْسِهِ الصَّلاحَ والتواضُعَ في نَفْيِهِ ونَفَىٰ بهذا كُلِّهِ ٱنْطِباقَ الحَدِيث النَّبَوِيِّ الناطِقِ بِٱنْقِطاع عَمَلِ ٱبْنِ آدمَ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلّا من ثلاثٍ ، على قاسمٍ في ثالِثَةِ الثلاثِ ـ أَثْبَتَ انْطِباقَ الحدَيثِ عَلَيْهِ في ثانِيَتِها ، وَهِيَ : عِلْمٌ يَنْتَفَعُ بِهِ . فهذا الوَلَدُ ذَهَبَ كما قالَ هو نَفْسُهُ إلى أبْعَدَ من مَوْقِفِ الوَلَدِ الداعي لِأَبِيهْ وَٱخْتارَ لِنَفْسِهِ مَوْقِفَ المُحامِي عَنْهُ ، ولعلَّهُ عِنْدَما اعْتَبَرَ إِبَاحَةَ السُّفُورِ عِلْماً يُنْتَفَعُ بِهِ نَظَرَ إِلى أَنَّها ـ وَقَدْ كان مُسْلِمُو مِصْرَ يَجْهَلُونَها إِلَى أَنْ جاءَ أَبُوهُ فَعَلَّمَهُمْ وَأَمَاطَ أَحْوطَ حاجِزٍ بَيْنَ ٱلْجِنْسَيْنِ ـ كَمِ ٱنْتَفَعَ بها زِيرَةُ النِّساءِ من الرِّجالِ في قضاء مَآرِبِهِمْ مِنْهُنَّ ، وَزِيرَةُ الرِّجَالِ من النِّسَاءِ

---

(١) وَإِنِّي كَتَبْتُ ما كَتَبْتُهُ هنا عن قاسم أمين قَبْلَ مطالَعَةِ كتابِهِ ، وأما ما كَتَبْتُهُ بَعْدَهَا فَيَجِدُهُ القارِىءُ في نهاية الجزء الأول من هذا الكتابِ .
[وسَيَرِدُ بَعْدَ إتمام هذا النقل] .

في قَضَاءِ مَآرِبِهِنَّ مِنْهُمْ .

وَحَدِيثُ تَأْمِيلِ الثَّوابِ مِنَ ٱللهِ لقاسم أمين من سُفورِ النِّساء المُسْلِماتِ بِمِصْرَ لكونِهِ رائدَ نَهْضَتِهَا نحوَه ، كُرِّرَ في قصيدةِ الأُستاذ عَليّ الجارِم بك بالرَّاديو من محَطَّةِ الحكومة ليْلَةَ الاحْتِفَالِ بِذِكْرَى قاسمٍ والمنشورة في « الأهرام » في اليوم الثاني من نَشْرِ كَلِمَةِ ٱبْنِهِ .

فَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّاعِرُ ٱلكَبيرُ يَقُولُ في مُخْتَتَمِ قَصِيدَتِهِ :

كُنْتَ فِي ٱلْحَقِّ لِلإِمَامِ نَصِيرَا
وَٱلْوَفِيَّ ٱلصَّفِيَّ مِنْ أَصْحَابِهْ[1]
ثُمَّ هَنِيئاً فَمِصْرَ نَالَتْ ذُرَىٰ ٱلْمَجْدِ
وَفَازَتْ بِمَحْضِهِ وَلُبَابِهْ
مِنْكَ عَزْمُ ٱلدَّاعِي وَفَضْلُ ٱلْمُجَلِّي
وَمِنَ الله مَا تَرَىٰ مِنْ ثَوَابِهْ

---

(١) مراد الشاعر من « الإمام » الشيخ محمد عبده ! فيُفْهَمُ منه وَمِمَّا كتَبَتْهُ السَّيِّدَةُ هُدىٰ شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي في « الأهرام » بمناسبة ذكرى قاسم أمين هذه ، أعْنِي الثَّلاثين ، أنَّ للشَّيْخِ أيْضاً إصْبعاً في اليَدِ البيضاءِ العامِلَةِ على نَهْضَةِ مِصْرَ السافِرَةِ ، بل المفهومُ أنَ اليَدَ للإمام والإصْبَعَ لِقاسم .

وَبِهَذَا يتأيَّدُ أَنَّ مهْزَلَةَ رجاء الثواب من مَعْصِيَةِ السُّفورِ لِمُرَوِّجيها شَوَّطَتْ في مِصْرَ أَشْواطاً بعيدةً كادَتْ تكُونُ جِدًّا . . وبِهذا يَسْتَحِقُّ تَبَرُّجُها أَنْ يفوقَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولىٰ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عَرَبُ الجاهليَّةِ القَدِيمَةِ جاهلَةً لِحَدٍّ أَنْ تُؤَمِّلَ عَلى تبرُّجِ نِسائِها ثواباً مِنَ ٱللهِ .

وَقَدْ كانَتْ مجلَّة « المُصوِّر » عدد (٧٠٠) نَشَرَتْ قَبْلَ أيَّامٍ من الاحتفال بذِكْرىٰ قاسم أمين الثَّلاثِين هَذِهِ ، صُورةً فطوغرافية لِحَفْلَةٍ سَاهِرَةٍ كلُّ رَجُلٍ بِهَا خاصَرَ ٱمْرأةً نِصْفَ عَارِيَةٍ . وتقول المجلة ما نَصُّهُ :

« الاحتفالُ برَأْسِ السَّنَةِ الهِجْرِيَّةِ »

« تُمَثِّلُ هذه الصورةُ لَفِيفاً من المَدْعُوِّين والمَدْعُوَّات في حَفْلَةِ جَمْعيَّةِ إحياءِ الأَعْيادِ العَربِيَّةِ التي أُقِيمَتْ لَيْلَةَ رَأْسِ السَّنَةِ الهِجْرِيَّةِ ، وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ تحْتَفِلُ بها على هَذِهِ الصُّورَةِ بالعامِ الهِجْرِيِّ . وكانَتْ حفلةً باهرةً خُصوصاً وقد خَلَتْ من الشَّرابِ احْتِراماً لِلْمُنَاسَبَةِ الهِجْرِيَّة » .

وَأَنَا أَقُولُ : خَلَتْ مِنَ الشَّراب المحرم وما خلت طبعاً من مخاصرة المدعوين للمدعوات كَمَا يُشاهَدُ في الصُّورةِ

وهي من لَوازِمِ السُّفُورِ المِصْرِيِّ[١] المثاب عليه بِفَتْوىٰ قاسِم أَمين ! وَالَّذي لِقاسم أمين ، بَلْ ولِلإمامِ ، قِسْطٌ جَزِيلٌ من ثواب العامِلِينَ والعامِلاتِ بهِ ، وَمِنْهُ ثوابُ لوازِمِه إلى يَوْمِ القِيَامَةِ !!

وَمِنَ العَجائِبِ السَّارَّةِ من ناحِيةٍ ، والمُحْزِنَةِ من ناحِيَةٍ أُخْرَىٰ ، أَنَّ الشبَّانَ والشابَّات الطالبين والطالبات في المدارس العالية لا يروقهم الاسْتِهتَارُ الاجتماعي ضد آدابِ الإسْلامِ وقوانينِه ، وما نَسِينا مراجعةَ فِئَةٍ من طلبةِ الجامعة ومن مُخْتَلف كُليَّاتها رئاسةَ الجامِعَةِ بكُلِّ حَرارَةٍ وحماسةٍ شريفةٍ لِتَغْيير أصُولِ التَّدْرِيسِ المُخْتَلَطِ من الجِنْسَيْن ، ثمَّ ما نَسِينا أَيْضًا عَدَمَ إِصْغاء أولياء الأُمور إلى تِلْكَ الطَّلَباتِ الَّتي كان الأَحْرَى أن تَنْبَعِثَ من جانِبهم وَهُمْ شُيوخٌ أَوْ كُهول . لَكِنَّ أَمَلِي عَظِيمٌ في إِسْلامِ الشُّبَّان والشَّاباتِ الذين ٱبْتَعَدَ عَهْدُهم عن المناقَشَةِ الجارية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » ، وكانت كلمات الأخير أثرت

(١) السُّفورُ اليَوْمَ لَيْسَ عَلَىٰ مَعْناه في أَصْل اللُّغَةِ وهو كَشْفُ الوَجْهِ ، بل مَعْنَاهُ تقليدُ المرأةِ الغَرْبِيَّةِ في سُفُورِها الذي قد يَجْعَلُها أكثر من نِصْفِ عارية .

في نفوس الجيل الذي أدرك زمن المناقشة أو وَعِيَهُ[١] ؛ وَأَمَلِي عَظيمٌ أيضاً في تأثيرِ كِتابي هَذَا في عقولِ أُولئك الشَّباب الطرية غير الجامدة على الضَّلالِ الحَدِيث . انتهى النقل .

* * *

وقال الشيخ مصطفى صبري رحمه الله في « موقف العقل والعلم والعالَم في رب العالمين وعباده المرسلين » ١/ ٢٨٢ :

إنَّ وَباءَ السُّفُورِ الَّذِي أَتَىٰ الشَّرْقَ الإسلاميَّ مِنَ الغَرْبِ بِواسِطَةِ سَماسِرَةٍ[٢] ، مِثْل قاسم أمين ، وَجَعَلَ نِساءَ

---

(١) وَذَلِكَ الزَّمن يتَّفِقُ مع العَهْدِ المَشؤُوم الذي كانَتْ وَطْأةُ النُّفوذِ الإنكليزي فيه على وَزارَة المَعَارِف بمصر على أشُدِّها ، ولا خَيارَ للإسْلام في رِجالِ البلادِ النَّاشِئِينَ في ذلك العَهْدِ إلَّا مَنْ نَدَرَ مِنْهُم وَظَلّوا في عِصْمَةِ اللهِ .

(٢) لمعرفة مدى الإصرار على دعوة السفور يكفي أن تعرف أنه اثناء دخولِ الدولةِ العثمانية الحربَ العالمية الأولى ، وفي الليلة التي أَغْرقَ فيها الأعداء عِدَّة سُفُنٍ حربية عثمانية ، أَصرَّ دعاة السفور على تنظيم حفلة على أحد المسارح ، أرادوا أن يعلنوا فيها إلغاءَ الحجاب ، وكان من المقرَّر أن تقومَ النساءُ بتمزيق الحجاب على خشبة المسرح ، لكن الحكومة في ذلك الوقت منعت هذه الحفلة ، وعلى الرغم من عدم=

المُسْلِمين كاسياتٍ عارياتٍ كالغَرْبِيّاتِ ، لا شكَّ في أَنَّهُ حَرامٌ بِنصِّ الْكِتابِ والسُّنَّةِ وَإِجْماعِ الأُمَّةِ ، وَهذه الحُرْمَةُ دامَتْ إلى هَذا العَصْرِ الّذِي هُوَ عَصْرُ فَسادِ ٱلأُمَّةِ المُشارِ إِلَيْهِ بِٱلْحَدِيثِ النبويِّ : « مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِئَةِ شَهِيدٍ » [رواه البيهقي في « الزهد »] . وَفِي إِعْظامِ الأَجْرِ الموعودِ للتمسُّكِ إلى هذا الحدِّ عِنْدَ تطبيق الحديثِ إِلَىٰ فِتْنَةِ السُّفُورِ ، دلالةٌ على شِدَّةِ صُعوبَةِ هذا التمسُّكِ ، بحَيْثُ يَعجزُ رُؤَسَاءُ الأُسَرِ عن وِقايَتِها شَرَّ هذه الفِتْنَةِ ، كما دَلَّتْ هذه الصعوبةُ على قِلَّةِ المُتَمَسِّكات بالحجابِ في زَمانِنا إلى حَدِّ النُّدْرَةِ ، ولا شَكَّ في كَوْنِ التمسُّكِ بالاحْتِجاب أَصْعب من خَرْطِ القَتَادِ فِي عَصْرِ انْتِشَارِ السُّفور وانتشارِ الشِّكاية من الحجابِ ، على الرَّغْم مِنْ عَدَمِ وُقوع الشِّكاية مِنْهُ طول عُصُورِ الإِسلام ، عُصورِ كرامَةِ أحكامِهِ . . .

= تقديم العرض إلا أنّ هذه الأفكار كانت مقدّمة طبيعية لقيام الثورة التي قادها كمال أتاتورك ضد الإسلام وضد الحجاب وتتريك البلاد . راجع « العثمانيون في التاريخ والحضارة » محمد حرب ، صفحة : ٨٢ ؛ « يهود الدونمه » لأحمد نوري النعيمي ، صفحة : ٥١ ؛ و« العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية » لهدى درويش ١/ ١٢٣ . بسام .

كما لا شَكَّ في كَوْنِ هذا السُّفورِ المقلِّدِ للسُّفورِ الغَرْبيِّ فِسْقاً ، وكَوْنِ إباحَتِهِ واسْتِحسانِهِ كُفْراً ، وَالحَثُّ عليه أَشَدَّ الكُفْرِ[١] ؛ وَالنَّجاةُ من خَطَرِ الفِتْنَةِ العظيمِ الّذِي هو الْكُفْرُ المُؤَدِّي إِلَى عَذابِ الأَبَدِ في نارِ جَهَنَّمَ إِنَّمَا تُتاحُ في عَصْرِ ابْتِلاءِ المُسْلِماتِ بِالسُّفُورِ ، بِفَضْلِ الالْتِجاءِ إلى الاحْتِفاظِ بِصِحَّةِ العَقِيدَةِ ، رَغْمَ فَسادِ العَمَلِ الَّذي مَهْما عَظُمَ خَطَرُهُ فهو دونَ خَطرِ الكُفْرِ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٤٨] ، وَقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) وَإِنّي أَجِدُ في كَثْرَةِ السّافِرَاتِ من نِسَاءِ هذا العَصْرِ وما يَتْلُوهُ من الأعْصارِ ، ما يَكْفِي في مِلْءِ العَدَدِ اللازِمِ لِتَغْلِيبِ النِّساءِ منْ أهْلِ جَهَنَّمَ على الرِّجالِ حتى على فَرْضِ أنْ لا يكونَ لَهُنَّ ذُنوبٌ أُخرَى . . تِلْكَ الغَلَبَة التي ذَكَرها النبي ﷺ في حديث : « ٱطَّلَعْتُ عَلَىٰ ٱلْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلْفُقَرَاءَ ، وَٱطَّلَعْتُ عَلَىٰ ٱلنَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلنِّسَاءَ » [البخاري ، رقم : ٣٢٤١ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٣٨] وَنِساءُ المُسْلِمينَ السّافِراتُ المُتَمِّماتُ لِلْكَثْرَةِ التي رَآها رَسولُ اللهِ في بَنَاتِ جِنْسِهِنَّ لَمَّا اطَّلَعَ على النَّارِ ، إنْ لَمْ يَكُنْ يلازِمُهُنَّ أذىً قَلْبِيٌّ نَاشِيءٌ مِنَ الاعْتِرافِ بِإِثْمِ السُّفورِ ، فَخالِدَاتٌ في النَّارِ ؛ وإن لازَمَهُنَّ الأَذَىٰ فَمَاكِثَاتٌ بِها إلى أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُنَّ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [٩٨ سورة البينة/ الآية : ٦] .

فَإِذا سَفَرتِ السَّافراتُ من نساءِ المسلمين العاجزاتُ بمقْتَضى ضَعْفِهنّ الغَريزيِّ عن مُقاومَةِ هذه الفتنة التي عَمَّتْ عَدْواها وعَزَّ دَواؤُها ، وكُنَّ مع ذَلِكَ لا يَزَلْنَ مُعْتَرِفاتٍ بذَنْبِهنَّ الَّذي يَقْتَرِفْنَهُ لاعَناتٍ للزَّمانِ الذي يَضْطَرُّهُن إلى اقترافِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هذا الاضْطِرارُ مَعْدُودًا من ٱلضَّرُوراتِ الحقِيقِيَّةِ الَّتِي تُبيحُ المحْظُوراتِ - وَقَيْنَ أَنْفُسَهُنَّ بِفَضْلِ هذا الاعْتِرافِ ٱلْمُنبِىءِ عَنْ عَدَمِ سِرايَةِ الفَسادِ إلى عَقِيدَتِهِنَّ الإسْلاميَّةِ القائِلَةِ بأَنَّ السُّفُورَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، وكانَ خَيْراً لَهُنَّ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ أَنْ لا يَتَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى وَالثَّانِيَةِ . . وَقَيْنَ أَنْفُسَهُنَّ شَرَّ ٱلْوقوعِ في الْكُفْرِ بِفَضْلِ هذا الاعْتِرافِ الرَّاسِخِ في نُفُوسِهِنَّ ، وَإِنْ كانَتْ هذه الوِقايَةُ المبْنِيَّةُ على ذَلِكَ الرُّسُوخِ أَيْضاً في غَايَةِ النُّدْرَةِ المُتَناسِبَةِ مع نُدْرَةِ العقيدةِ عنْدَ شُيوعِ الفَسادِ في العَمَلِ ، سَليمةً عَنِ الفَسادِ .

وَهؤلاء النَّوَادِرُ العاقِلَةُ المحْتَفِظَةُ على الأَقَلِّ بِعَقِيدَتِهِنَّ الإسلامية ضِدَّ السُّفُورِ ، كما يَقِينَ أَنْفُسَهُنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَخْطَارِهِ الأُخْرَوِيَّةِ ، يَقِينَهَا في الدُّنْيا من الإِفْرَاطِ والاسْتِهْتَارِ في تقليدِ الكاسِياتِ العارِياتِ .

وهذه الطَّرِيقَةُ التي عَرَضْنَاهَا على المَرْأَةِ العَصْرِيَّةِ المُسْلِمة وأَوْصَيْنا بِهَا إِلَيْها ، طَرِيقةُ الاهْتِمامِ والاحْتفاظِ بالعَقِيدَةِ على خلافِ التَّقْصِيرِ في العَمَلِ على وفْقِ الحكم الشرعيّ . . أَنْفَعُ في حَقِّ ٱلْمُوصَىٰ إِلَيْهَا وَٱلْمُوصِي جَمِيعاً ، وَأَقْوَمُ مِنَ البَحْثِ عن طريقِ إِباحَةِ السُّفُورِ المحرَّم فِي طريقة العُلَماءِ الدَّائِرِينَ مَعَ الزَّمانِ .

كانَ في العَهْدِ القَدِيم عِنْدَ المُسْلِمين يُخافُ على عُلماءِ الدِّين أَنْ لا يَتَّفِق أَعْمالُهُمْ مع عُلُومِهِمْ ، وَلا يَخْطُرُ بالْبَالِ أنْ لا يَنْطِقُوا بالحَقِّ أَوْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِم الحقُّ وَالباطِلُ لاسِيَّما فِيما كانَ مَعْدُوداً مِن الضَّرُورِيَّاتِ الدِّينيَّةِ الَّتي لم تكُنْ تَلْتَبِسُ على المُسْلِمين ، إِنِ ٱلْتَبَسَتْ على العُلماءِ من طَرِيق فَرْضِ ٱلْمُحَالِ .

وَالآنَ أَصْبَحَ الإسلامُ في حَاجَةٍ إِلى ٱلْعُلَمَاءِ الَّذِين يَقُولونَ ٱلْحَقَّ مهْما كاَن فِيه مُصادَمَةٌ لِأَهْواءِ الزَّمانِ . . يَقُولونَ الحقَّ وَيَهْتَدُونَ إلى مَعْرِفَتِه بَيْنَ دِعايَةِ المُضِلِّينَ ، كما أَصْبحَ الإِسلامُ في حاجَةٍ إلى المُسْلِمِينَ الَّذِين لا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمُ العالِمُ مِنَ الجاهِلِ ، وَالمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ ؛ وقد وَرَدَ في الحَدِيثِ النبويِّ الشَّرِيفِ : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمُ

ٱللِّسَانِ » . [« مسند أحمد » ، رقم : ١٤٤] .

لا نتكلَّمُ في سُفورِ النِّساءِ بِمَعْنَى الكَشْفِ عَنْ وُجوهِهِنَّ بِحُجَّةِ أَنَّ المَرْأَةَ هِيَ الأُخْرَى إِنْسانٌ كَالرَّجُلِ ، يُضَايِقُها ما يضايِقُهُ من الاحْتِجابِ والاسْتِتارِ . . بل بِمَعْنى كَوْنِهِنَّ كاسياتٍ عارياتٍ لا يُقْنِعُهُنَّ ما يُقْنِعُ الرَّجُلَ من أعْضائِهِمُ المَكْشُوفة فَيَزِدْنَ بِكَثِيرٍ على مَبْلَغِهِمْ ، فيها . . وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ في اختصارٍ يَتَّفِقُ مع تعبير القرآن : سُفورُهُن بِمَعْنَى إِبْدَاءِ زِينَتِهِنَّ لِغَيْرِ الأَقْرَبِينَ مِنَ الرِّجَالِ المَعْدُودِين في آيَةِ الحِجابِ الَّتِي يُنْكِرُ أَنْصَارُ السُّفُورِ وُجودَها في كتابِ اللهِ . . . إبداءِ زِينَتِهِنَّ مُسْتَهْتِراتٍ في إِبْدَائِها المَمْنُوعِ عَنْهُ في تلك الآيةِ ، يَتَكَوَّنُ وَيَتَفَنَّنُ على حَسْبِ العاداتِ المُسْتَحْدَثَةِ في الغَرْبِيَّاتِ غَيْرِ المُسْلِماتِ[١] .

---

(١) وَإِنْ شِئْتَ فَزِدْ عَلَيْهِ كَوْنَ هذه ٱلْمُتَزَيِّنَةِ الكاسِيَةِ العارِيَةِ مُسْتَعِدَّةً لِتَلْبِيَةِ مَنْ يَرْغَبُ في مُخَاصَرَتِها من الرِّجَالِ الأَكِفَّاءِ ومُراقَصَتِها بين ظَهْرانِي النَّاسِ في المجامِعِ والمحافِلِ . هذا هو المَعنى المَقْصُودُ مِنَ ٱلسُّفُورِ الحاضِرِ المُخْتَلَفِ فيهِ بَيْنَ أَنْصارِهِ المُجَدِّدِينَ وأعدائِهِ المحافِظِينَ ، ولا تَسْمَعْ إِلى أَقْوالِ بَعْضِ المُنَافِقِين أَوْ الغَافِلِينَ : إِنَّ السُّفُورَ الحاضِرَ الخَلِيعَ لَيْسَ مَا كانَ يُرِيدُهُ قاسم أمين داعِيَتُهُ الأَوَّلُ . ولو كانَ الأَمْرُ كَما يَدَّعُونَ=

هَذَا السُّفورُ ، وهذا الإبداءُ لِلزِّينَةِ الذي جَعَلَ الأنْدِيةَ وَالمحافِلَ والشَّوَارِعَ مَعَارِضَ وأَسْواقاً لِلنِّساءِ تُنادِي بِتَنازُلِهِنَّ عن مَنَصَّةِ الاسْتِغْناءِ والاحْتِشامِ إلى ميادين الابْتِذالِ ، لِدَلالَتِها على احْتِياجِهِنَّ إِلى هَذَا التَّصَنُّعِ والتَّكَلُّفِ لاسْتِجلاب أَنْظَارِ الرِّجالِ ، أوْ لِتلافي ما فِيهِنَّ من نُقْصانِ الجمالِ والْكَمالِ . . إنْ لَمْ تَكُنْ هذه الدَّلالةُ وَتِلْكَ المناداةُ بِلِسانِ المقالِ فَبلسانِ الحالِ ٱلَّذِي هُوَ أَنْطَقُ[1] .

فَهَؤلاء الْمُبْدِياتُ الزِّيْنَةِ مِنْ أَجْسَامِهِنَّ كَأَنَّهُنَّ في سِباقٍ دَائمٍ تَكْسِبُ السَّابِقَةُ مِنْهُنَّ وَتَخْسِرُ المَسْبُوقَةُ وَتكُونُ أُولَى

= مِنْ أَنَّ قاسِماً أرادَ شيئاً وحصل غَيْرُ ما أرَادَهُ ، لكانَتْ ذِكْرياتُهُ المُتَكَرِّرَةُ المُظَفَّرَةُ في سَنِيِّها الطويلَةِ الحاضِرةِ التي يَزْدادُ فِيها السُّفُورُ خلاعَةً وَاسْتِهْتاراً ، مَليئةً لَعْناً وَثُبُورًا ، لا كَما نراها مليئَةً هُتافاً وَشُكُورًا .

(١) ولَا يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَثْرَةُ مِنْ غَرِيراتِ الفَتَياتِ وَالنِّساءِ خَالياتِ القُلوبِ عَنْ أغراضِ الفَسادِ ، بأَنْ يَمْشينَ على التَّقْليد المَحْضِ لأترابِهِنَّ العَصْرياتِ . . . لا يَمْنَعُ هَذَا كَوْنُ أَلْوَانِ الزِّينَةِ الَّتي يُبْدِينِها مُريبةً بِالشَّكْلِ وَالمَظْهَرِ ، وَفِيهِ ما لا يُسْتَهَانُ بِهِ من الفَسادِ . . . على أَنَّ سِلْسِلةَ التَّقْلِيدِ الَّذي تَتْبَعُهُ هؤلاءِ الغَرِيرات لا بُدَّ أن تَنْتَهِي من مُقَلِّدَة بَعْدَ مُقَلِّدَةٍ إلى أَصْحابِ الأَغْراضِ الفاسِدَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَالنِّساءِ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا تِلْكَ الأَلْوانِ المُغْرِيةِ .

الخَاسِراتِ أَزْواجُ الرِّجَالِ الَّذِين يَصْطادُهم السَّابقاتُ لِيَكُنَّ خَلِيلاتٍ لَهُمْ أَوْ أَزْواجاً ثانيةً . فَيَعُودُ ضَرَرُ هذا السِّباقِ السَّافِرِ إِلى أَخَواتِ الكاسِياتِ مِنْ بَنَاتِ جِنْسِهِنَّ ، في حِيْنِ أَنّ السُّفُورَ عِنْدَ الغافِلِينَ والغافلاتِ يُعَدُّ مِنْ مَنَافِعِ المَرْأَةِ . . يَعُودُ ضَرَرُ هَذا السُّفورِ وَالسِّباقِ في السُّفُورِ إلى أخواتِ السَّابِقاتِ مِنْ بَناتِ جِنْسِهِنَّ ، ثُمَّ تَنْتَقِمُ مِنْ تَلْكَ السابقاتِ سَابِقاتٌ أُخرَى في سباقٍ آخَرَ جَدِيدٍ .

فِتْنَةُ السُّفُورِ هذه أَدَّتْ إلى ضلالاتٍ ، واعتَمَدَتْ على سَخافاتٍ لَمْ يَتَعَمَّقْ في مِثْلها من الضَّلالاتِ والسَّخافاتِ أنْصارُ الضَّلالات والسَّخافاتِ الأُخْرَى . . فَنَرى قاسِمَ أمين يُنْكِرُ وُجودَ اْحْتِجَابِ المَرْأةِ في الإِسْلام بِالْمَرَّةِ ، فَيَدَّعِي أَنَّهُ دَخِيلٌ طَرَأَ على المُسْلِمين مِنْ مُخَالَطَةِ بَعْضِ الأُمَمِ فَاسْتَحْسَنُوهُ وَأَخَذُوا بِهِ وَبالَغُوا فِيهِ وَأَلْبَسُوْهُ لِباسَ الدِّينِ كَسَائِرِ العَاداتِ الضَّارَّةِ الَّتِي تمَكَّنَتْ في النَّاسِ باسْمِ الدِّين وَالدِّينُ بَراءٌ مِنْهَا ![1] . .

---

(١) [وقاسم أمين في دعواه ، يطلب إدخالَ السُّفُور تقليداً لأُمَمٍ أُخرى خَالَطَها وآسْتَحْسَنَ هُوَ سُفُورَها ! ؟ فمعرَّةُ الدخول والطروء ثابتةٌ عَلَيْهِ ؛ ولم يُبَيِّنْ مِنْ أيِّ أُمَمٍ أتى الحجابُ إلى المُسْلِمين ! ؟ كما سيأتي بعد قليل . بسام] .

وَناقَضَ الرجلُ هذا الادِّعاءَ في دعواه الأُخْرَىٰ الضَّالَةِ أَيْضاً ، فقالَ : إِنَّ الاحتجابَ أُمِرَتْ به أزْواجُ النَّبيِّ ﷺ خاصَّةً . . دونَ نِسَاءِ المُسْلِمِينَ ، فكَأَنَّ هذه العادَةَ الضَّارَّةَ الَّتِي هِي دَخِيلةٌ في الإسْلامِ ولا مُناسَبَةَ لها بِالدِّينِ ، مُنِيَتْ بِهَا مِنْ غَيْرِ مُبَرِّرٍ أَزْواجُ النَّبِيِّ اللاتي هُنَّ أَقْرَبُ النَّاسِ إلى الدِّين وَخَاصَّةُ الإسْلامِ وَنَبِيِّ الإسلام .

أقولُ : وفي سورة الأَحْزابِ التي فيها قَوْلُ اللهِ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/الآية : ٣٢] الذي تَمَسَّكَ به قاسمٌ في دعواه الباطِلَةِ الثانِيَةِ مُتَغاضِياً عَمَّا يَحُفُّهُ من القَرَائِنِ المانِعَةِ عَنْ دَعْوَى الاخْتِصَاصِ كما فَصَّلْناهُ في مكانٍ آخَرَ من هذا الكتاب ؛ آيَةٌ أُخْرَى تُبْطِلُ هذه الدَّعْوَى بِكُلِّ صَراحةٍ ، وَهِي قَوْلُهُ تَعالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/الآية : ٥٩] فَكَيْفَ يُنْكِرُ الرَّجُلُ من غَيْرِ مخافَةٍ ولا استحياءٍ مِنَ اللهِ وُجودَ الحِجابِ لِلنِّساءِ في الإسلامِ، إنْ كانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ ، أَوْ كَيْفَ يَدَّعِي اخْتِصاصَهُ بأزْوَاجِ النَّبِيِّ ؟ ومِثْلُهُ في نَبْذِ الخَوْفِ وَالحياءِ المُحْتَفِلُونَ كُلَّ عَامٍ بِذِكْرَاهُ في مِصْرَ مِنْ مُدَّعِي الإسلام والإيمان .

وَلَمْ يَكْفِ قَاسماً أَنْ يَسْتَخِفَّ بضلالِ السُّفُورِ وبإثْمِهِ ، فَجاءَ وَلَدُهُ وَٱدَّعَى اسْتِحْقاقَ أَبِيهِ لِأجْرِ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً ، وَجَرَى على رَأْيِ الوَلَدِ البارِّ أَصْحابُ ٱلذِّكْرَى المُحْتَفِلِينَ بِقاسِمٍ في كُلِّ سَنَةٍ مِنْ وَفاتِهِ بَالِغَةً اليومَ الذِّكْرَى الأرْبَعِين ، وَهَذا ٱعْتِرافٌ مِنْهُمْ لاسْمِهِ بِٱلْخُلُودِ في ٱلأَلْسِنَةِ رَغْمَ كَوْنِ مُسَمَّاهُ مِنَ المُسْتَحلِّين ما حَرَّمَهُ الله والحاكِمِينَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ .

ثُمَّ يَعُودُ قَاسِمٌ ٱلمُخَلَّدُ في أَلْسِنَةِ المُحْتَفِلين بذِكْراهُ مُدَّعِياً لِكَوْنِ الاحْتِجابِ أَجْنَبِيًّا عَنِ الإِسْلام ، فَيُصرِّحُ بأَنَّ السُّفورَ تمسَّكَ به الغَرْبُ ، وَهُوَ قُدْوَتُنا اليومَ وَنِعْمَ القُدْوَةِ ، فَأَيَّ شَيْءٍ يَتَمسَّكُ به الغَرْبِيُّون الذين هم أَعْقَلُ مِنَّا وَلا يَكُونُ خَيْراً مَحْضاً ؟

فَقَدْ تَبَيَّنَ من هذا أَنَّ السُّفورَ الحاضرَ يأتينا من الغَرْبِ ، وَقَدْ كانَ الرَّجُلُ يَدَّعِي أَنَّ الاحْتِجابَ أَجْنبيٌّ عن الإِسْلامِ ، أَخَذَهُ المُسْلِمُونَ مِنْ مخالَطَةِ الأُمَمِ . فَهَلِ السُّفُورُ الَّذي نَأْخُذُهُ من الغَرْبِ باعْتِرافٍ من قَاسِم أمين لا يكونُ أَجْنَبِيًّا عَنَّا ، في حِين أنَّ الاحْتِجابَ الَّذِي لا يُعْرَفُ مِنْ أَيِّ قَوْمٍ أَخَذْنَاهُ ، وَإِنَّما يُعْرَفُ عَلى الأَقَلِّ أَنَّ أزواجَ النبيِّ كُنَّ مَأْموراتٍ بِهِ . . كانَ أَجْنَبِيًّا عَنَّا في زَعْمِهِ ؟

ضلالاتُ السُّفُورِ وسَخافاتُ الدِّفَاعِ عَنْهُ لم تَنْحَصِرْ في قاسِم أمين : بل أَصْبَحَتْ طَرِيقًا مُعَبَّدَةً يَرْكُضُ فيها من حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ الأَمَّارَةُ بِالحياةِ الْمُخْتَلِطَةِ مِنْ زِيرَةِ ٱلنِّسَاءِ المُتَعَلِّمينَ في مَدْرَسَةِ الْمُغَفَّلِّينَ كَما سَمَّاه الأُسْتَاذُ توفيق الحَكِيم وَٱتَّخَذَهُ عُنْوانًا لِإِحْدى مقالاتِهِ في « أخْبارِ ٱلْيَوْمِ » وَلَعَلَّ الوَجْهَ لِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ عن الحياةِ ٱلْمُخْتَلِطَةِ وَمَا يُسَمُّونَها الحَفلاتِ السَّاهِرَة . أَنَّ تِلْكَ الحياةِ الَّتي كَثِيرًا ما يُخالِطُهَا القِمَارُ أَيْضًا مَقَامَرَةٌ بِذَاتِها من غَيْرِ قِمارٍ ، وَرَأْسَ المالِ المَوْضُوعَ على المائِدَةِ عَقِيلاتُ المُقامِرِينَ أَو قَرِيباتُهُمُ الأُخْرَىٰ التي يَحْضُرْنَ مَعَهُمْ محافِلَ الاخْتِلاطِ .

وقد رأيتُ في مجلَّةِ « الرسالة » عدد ٧٧٣ ، ٧٧٤ مقالَتَيْنِ بتَوْقِيعِ الشيخ محمد رجب البَيومي وعنوانِ « المرأة في شعر الرُّصافِيِّ » يَحْكُمُ من قَرَأَهُما بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ يُكْفَرُ بِهِ في صُحُفِ مِصْرَ والعِراقِ جِهارًا ، وَيُغْدَقُ على الكافِرين المَدْحُ وَالثَّنَاءُ . أَمَّا المحافِظونَ على إِيمانِهِمْ بِهذا الدِّين وكِتابِهِ ، فَهُمْ مُنْهَزِمُونَ وَمَقْهُورُونَ لا يُقامُ لِوُجودِهم وَزْنٌ ، وَلا يُصْغَى إلى أَقْوالِهِمْ بِأُذُنٍ ، فَكَأَنَّ البلادَ ولا سِيَّما العراقُ ، أَصْبحَ فيها المُنْكَرُ مَعْروفًا ، وَالمَعْرُوفُ مُنْكَرًا بَيْنَ عَشِيَّةٍ

الحُكْمِ العثماني وَضُحَىٰ الخُرُوج عَلَيْهِ مِنَ العَرَبِ الجُدَدِ قَبْل التُـرْكِ الجُـدُدِ . . ولـولا هـذا التَّقَـدُّمُ ٱلْمَشْـؤُومُ فـي البـلادِ الإِسلاميَّةِ المجاوِرَةِ لَمَا فَازَ إعلانُ الجمهوريَّةِ اللادِيْنِية فِي تركيَّةِ الجديدةِ .

يَقُولُ الشَّيْخُ رَجَب : « حَيَّا ٱللهُ ٱلشِّعرَ العربيَّ ، فَلَقَدْ آزَرَ النَّهْضَةَ الشرقِيَّةَ أَتَمَّ مؤازَرةٍ ، فَأَيْقَظَ عُيونًا نَائِمَةً ، وَأَسْمَعَ آذانًا مُوصَدَةً ، وَطاحَ بِجبابِرَةٍ قُسَاةٍ وَأَدُوا الْكَرَامَةَ الإِنسانيَّةَ ، وأَزْهَقُوا العِزَّة القَوْمِيَّة ! . . » .

« وَلَقَدْ كانَ الرُّصافي رَحِمَهُ ٱللهُ في طَلِيعَةِ هؤلاء العَباقِرَةِ المُجاهِدِينَ ، فَقَدِ ٱتَّخَذَ مِنْ يَرَاعِهِ القَوِيِّ صَارِمًا بَتَّارًا ، تَنَقَّلَ به من مَعْرَكَةٍ إِلى مَعْرَكَةٍ ، فَهُوَ في ميدان السِّياسَةِ يَشُنُّ الغَارَةَ على السَّرَطانِ الاسْتِعْماريِّ ، وَيَقِفُ في وَجْهِ الطَّاغوتِ التُّرْكيِّ !. . » .

« وَسَأُحَاول ٱليومَ أَنْ أَكْشِفَ عَنْ أَثَرِ الرُّصَافيِّ في النَّهضة النَّسويَّةِ كما أُبَيِّنُ شُعُورَهُ نَحْوَ ٱلْمَرْأَةِ كإِنْسَانٍ نَاضِجٍ !. . » .

ثُمَّ قَالَ ٱلشَّيْخُ رَجب : « لَمْ تَكُنْ حالُ المرأةِ في العراق خَيْرًا منها في مِصْرَ ، بَلْ كانَ ٱلْحِجَابُ وَٱلْجَهْلُ مِنْ لَوازِمِهِ

الأكِيدَةِ في كلا القِطْرَيْن ، فارْتَفَعَتِ الدَّعْوَةُ بِتَحْرِيرها[1] في رُبوعِ النِّيلِ ، وَٱحْتَدَمَ الجِدالُ بين الأنصارِ وَالخُصومِ ، فكانَتْ

(١) أَنصَارُ السفور الضَّالُّونَ يَعدُّونَهُ حُرِّيَّةَ المَرْأةِ ، مَعَ أَنَّ الأَمْرَ بِالعَكْسِ ؛ أَعْنِي : إِذَا سَفَرَتِ المرأةُ تَأَمَّتْ [أي : أصبحت أَمَةً ، أي : عبدة] ، وبذلك تَتضاعَفُ غَفلةُ قاسم أمين وجهالَتُهُ في ادِّعاء أَنَّ احْتِجابَ المَرْأَةِ دخيلٌ في الإسلام مِنْ مخالَطَةِ بَعْضِ الأُمَمِ . انظر ما ذَكَرَهُ صَدِيقي الأستاذُ الكَبيرُ مُحبُّ الدِّين الخَطِيب في مجلة « الفتح » الغراء عدد ٨٦٢ :

« وفي « لسان العرب » مادة : حرر ، عند تَفْسِيرِهِ مَعْنى الحُرَّةِ وَأَنَّها نَقِيضُ الأَمَةِ ، وَأَنَّ جَمْعَ الحُرَّةِ حَرَائِرُ ، قال : وَمِنْهُ حَدِيثُ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ، قَالَ لِلنِّساءِ اللاتِي كُنَّ يَخْرُجْنَ إِلى المَسْجِدِ : « لأَرُدُّكُنَّ حَرَائِرَ » أي : لأُلْزِمُكُنَّ ٱلْبُيُوتَ فَلا تَخْرُجْنَ إِلَى المَسْجِدِ . لِأَنَّ الحِجَابَ إِنَّمَا ضُرِبَ عَلَىٰ ٱلْحَرَائِرِ دُونَ ٱلإِمَاءِ . وَتَعَرُّضُ الإِمَاءِ لِلنَّاسِ فِي ٱلأَسْوَاقِ مَعْدُودٌ فِي أَخْلاقِ وَسُنَّةِ الإِسْلامِ أُمُوَّةَ وَٱمْتِهَانًا تَتَرَفَّعُ ٱلْحَرَائِرُ عَنْ مِثْلِهَا » .

أَقُولُ : وَلَقَدْ ذَهَبَتْ حِشْمَةُ ٱلْمَرْأَةِ وَرَوْعَةُ جَمالِها بِذَهابِ ٱلْحِجَابِ ، وَقَامَتْ مُقامَهُ الأَصْبَاغُ وَالمَعَاجِينُ المُلَوَّنَةُ السَّاتِرَةُ لِمَا تَحْتَهَا مِنَ الحَقِيقَةِ ، مَعَ فَرْقِ مَا فِي الحِجابِ مِنْ إِثَارَةِ حُسْنِ ٱلظَّنِّ بِتِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمَجْهُولَةِ وَمَا فِي ٱلأَسْتَارِ ٱلْجَدِيدَةِ مِنْ إِثَارَةِ سُوءِ ٱلظَّنِّ بِهَا . وَمِنْ حَمَاقَةِ النِّسْوَةِ المِصْرِيَاتِ مُسَابَقَةُ حِسَانِهِنَّ بِقَبَاحِجِنَّ فِي ٱلاصْطِبَاغِ .

مَعْرَكَةً طاحِنَةً تَرَدَّدَ صَداها في رُبُوعِ العِراقِ ، فَنَهَضَ الرُّصَافي وَالزَّهاوِيُّ لِلْمُطالَبَةِ بِحَقِّ الفتاةِ ، وَتَصَدَّيَا لِلْهُجُوم العَنِيفِ بِما يَمْلِكان مِنْ بَيانٍ ، فكانَتِ المَقالاتُ الضَّافِيَةُ وَالقَصائِدُ الرَّنَّانَةُ ، تُعَبِّرُ عن آرائِهِما الجدِيدَةِ في جُرْأَةٍ وَعُنْفٍ ، وَأَوْصَلَ الرُّصَافِيُّ جُهودَهُ ، فَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الجمهورُ وَتَنَبَّهَ ٱلحاكِمُ التُّرْكِيّ في غُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ ، وَهُو لا يَفْتَأُ يناضِلُ عن حَقٍّ اعْتَقَدَهُ ، وَيُقَوِّضُ أَرْكَانَ عَقِيدَةٍ يَراها غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْبَقَاءِ » .

« كان قاسمُ أَمين في مِصْرَ صَاحِبَ ٱلرَّأْيِ الأَوَّلِ في حَرَكَتِهِ ٱلتَّحْرِيرِيَّةِ، وَكانَ ٱلشُّعَرَاءُ وَٱلْمُثَقَّفُونَ يَسِيرونَ وَراءَهُ في كَثيرٍ من التَّحفُّظِ والاحْتِياطِ، أَمَّا في ٱلْعِرَاقِ فقَدْ كانَ مَعْروف وَجَمِيل يَقُومان بِعِبْءِ قاسِم في حَمَاسَةٍ يَصِلُ بِها إِلى ٱلثَّوْرَةِ وَالانْدِفاع، وَمِنْ هُنَا كانَتْ مَكَانَتُهُمَا الاجْتِماعِيَّةُ في بَغْدادَ أَقْوَى مِنْ مَكَانَةِ شَوْقِي وَحافِظ وَمُطْران في مِصْرَ ، وَالْفَرْقُ بِيْنَ هَذَيْنِ وَهَؤُلاءِ فَرْقُ ما بَيْنَ الخطيبِ والمُصَفِّقِين مع التَّسَامُحِ اليَسِيرِ » .

أَقُولُ : مَنْشَأُ هذا الفَرْقِ بَيْنَ مَنْ ذَكَرَهُمْ من شُعراءِ مِصْرَ وَبَيْنَ مَعْرُوف الرُّصافي وجَمِيل الزَّهاوِي أَنَّ الأَوَّلِيْن لَمْ يَكُونوا في ضَعْفِ الدِّينِ بِدَرَجَةِ الرُّصافِي وَالزَّهاوِي المُشْتَهرين بالإلْحادِ ، ومن سُوءِ حَظِّ الشيخ رَجَب والقَضِيَّةِ المُمْقُوتَةِ الَّتي

ٱلْتَزَمَ إِثْبَاتَها في مَقَالَتِهِ وَفَضَّل مؤيدَيْها العراقِيَّيْنِ على الْمُؤَيِّدِين المِصْرِيِّين ، كَوْن الْمُفَضَّلَيْنِ مِنَ الملاحِدَةِ ، وَالشَّيْخُ لا يَكْتُمُ في مقالَتِهِ الثانِيَةِ كَوْنَ مَعْروف الرُّصافِي إِباحيًا مُتَحَلِّلًا يَبْحَثُ عن شَهواتِ الْجَسَدِ مِنْ أَيِّ طَرِيقٍ ، وَإِلْحادُ جَمِيل مَعْرُوفٌ أَكْثر من مَعْرُوف ، فَنِعْمَ ٱلشُّهودِ إِذَنْ شُهودِ قَضِيَّةِ الشَّيْخِ ! وَقَدْ قَالَ الرُّصَافِيُّ في إِحْدَى قَصَائِدِهِ ٱلَّتِي أَوْرَدَها الشَّيْخُ مُعْجَبًا بِها :

لَمْ أَرَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ذَا مَظْلَمَةٍ
أَحَقَّ بِٱلرَّحْمَةِ مِنْ مُسْلِمَهْ
مَنْقُوصَةٍ حَتَّىٰ بِمِيرَاثِهَا
مَحْجُوبَةٍ حَتَّىٰ مِنَ ٱلْمَكْرُمَهْ

وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي اعْتِراضٌ عَلَىٰ ٱللهِ في تَقْسِيم المِيراثِ بَيْن الذُّكُورِ والإِناث . وَفي البَيْتِ الأَوَّلِ الَّذِي يَرىٰ الشَّاعِرُ فِيه المَرْأَةَ المُسْلِمَةَ ذَاتَ مَظْلَمة وظَالِمُها الَّذِي هُوَ ٱللهُ لَمْ يَرْحَمْهَا فِي تَقْسِيمِ المِيراثِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الأَحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَفْتَرِقُ فِيها المَرْأَةُ عَنِ ٱلرَّجُلِ في دِينِ الإِسْلامِ[1] . يُرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ

(١) وَهُوَ يَغْفَلُ أَوْ يَتَجَاهَلُ أَنَّ صَاحِباتِ الحَظِّ المُسَاوِي في المِيراثِ لِحُظُوظِ الرِّجالِ مِنْ نِساءِ الغَرْبِ اللاتي سَفَرَتِ المرأةُ في بلاد الإسلام=

يَكُونَ لِلْمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ أَرْحَمَ مِنَ ٱللهِ الَّذِي يَتَمَدَّحُ في ٱلْقُرْآنِ بِأَنَّه أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ !! وَفِي كُلِّ هذا يَكْفُرُ الرُّصافيّ والشَّيْخُ صاحب المقالة ، بَلْ وصاحِبُ « الرِّسالَةِ » لِنَشْرِ مقالَتِه في مَجلَّتِهِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ . وَإِنِّي أَرَى حماقَةَ ٱلْمُعْتَرِضِينَ على أَحْكامِ الإِسْلامِ الخاصَّةِ بِٱلمَرْأة ، في وُقوفِهِمْ مَعَ المُسْلِمِينَ في صَفٍّ واحِدٍ رَغْمَ خُرُوجِهِم على حُكْمِ دِينِهِم ٱلظَّالِمِ !!

أَمَّا ما سَبَقَ مِنْ قَوْلِ الشَّيْخِ صاحِبِ المَقَالَةِ : « لَمْ تَكُنْ حالُ ٱلْمَرْأَةِ في العِراقِ خَيْرًا مِنْها في مِصْرَ ، بَلْ كَانَ ٱلحِجابُ وَالجَهْلُ مِنْ لَوازِمِها الأَكِيدَةِ في كِلا القِطْرَين » فَٱلْجَوابُ : إِنَّ القُرونَ الإِسْلامِيَّةَ قَبْلَ عُصورِ السُّفورِ الأَخِير ، لا سِيَّما القرون الذَّهبيَّةِ ، مَضَتْ فِي الحِجَابِ وَلَمْ يَمْنعِ الحجابُ وجودَ المُتَعلِّماتِ وَمشاهِيرِ الفُضْلياتِ في تلك القُرُونِ ، كما لَمْ تُسْمَعْ فيها أَيَّةُ شِكَايةٍ عَنْ حِجابِ المرأةِ ، فَهَلْ أَهْلُ تلك

= تَقْلِيدًا لَهُنَّ ، يَحْتَجْنَ إلى بَذْلِ المالِ في سبيلِ الحُصُولِ على الأَزْواجِ تَلافِيًا لِلنُّقْصانِ الطارِئ عَلَيْهِنَّ مِنِ ابْتِذَالِ السُّفُورِ ، في حِينَ أَنَّ المرأة قِيمَةٌ بذاتِها في الإسْلامِ غانِيَةٌ عَنْ مَصاريفِ الحُصُولِ على الزَّوْجِ بما يُسَمُّونَهُ الدُّوطَة ، بَلِ الرَّجُلُ مُكَلَّفٌ بِالإنْفاقِ عَلَيْهَا عِنْدَ عَقْدِ الزَّواجِ وَبَعْدَهُ إلى ما شاءَ ٱللهُ أَنْ يَعِيشا عِيشَةَ الزَّوْجَيْنِ .

القرونِ الطويلةِ كانوا فِي غَفْلَةٍ عَمِيقَةٍ عن مظْلَمَةِ الحِجابِ والمِيراثِ ظالِمين ومَظْلُوماتٍ ، حَتَّى جَاءَ قاسِمُ أمين في مِصْرَ فَتَنَبَّهَ لِلْعلاقَةِ بينَ الحِجابِ وَالجَهْلِ ؟ وَلَمْ يُبَالِ بالعلاقة بين السُّفورِ وَالفِسْقِ مع كَوْنِ علاقة الفِسْقِ أَبْيَنَ مِنْ عَلاقَةِ الحجابِ بِالجَهْلِ ، فَأَثَارَ ثَوْرَةَ السُّفورِ ، وَٱقْتَفَىٰ شاعِرانِ مُلْحِدانِ في العِراقِ أَثَرَ قاسمٍ وَتَبِعهُمُ الفاسِقون وَٱلْغَاوونَ ، فَفَازَتْ دَعْواهُمْ في عَصْرِ الفِسْقِ وَالفُجورِ ، وَأَصْبَحَتْ حالُ ٱلْمَرْأَةِ في القطرين خَيرًا مِنْ مَاضِيهَا على زَعْمِ الشَّيْخِ صاحِبِ المَقَالَةِ في « الرِّسالةِ » .

وَأَمَّا قَوْلُ الرُّصافي :

شَـرَفُ ٱلمَلِيحَـةِ أَنْ تكُـونَ أَدِيبَـةً
وَحِجَـابُهَـا فِـي ٱلنَّـاسِ أَنْ تَتَهَـذَّبَـا
وَٱلـوَجْـهُ إِنْ كَـانَ ٱلْحَيـاءُ نِقَـابَـهُ
أَغْنَـىٰ فَتَـاةَ ٱلْحَـيِّ أَنْ تَتَنَقَّبَـا

فَمِنْ قَبِيلِ التَّضْلِيلِ وَالتَّسْوِيلِ ، لِأَنَّ الحياءَ في وجْهِ الفَتَاةِ أَوَّلُ ما تَدْعُوها إلى التَّنَقُّب والتمنُّع لا إلى السُّفور والاسْتِغناءِ عن النِّقابِ ، لِأَنَّ ٱلْمُناسَبَةَ بَيْن الحياءِ وَالتَّنَقُّبِ أَشَدُّ مِنَ المناسَبَةِ بين الحياءِ والسُّفُورِ ، وَلِذَا يُكْنَى عَنْ قليلِ الحَياءِ

بِخَلِيعِ العِذَارِ .

وبمناسَبَةِ الكلامِ عن الحياءِ أَنْقُلُ هنا قَوْلَ الشَّيْخِ عن الرُّصافيِّ في آخِرِ مقالَتِهِ الأُولى : « ثُمَّ دَلَفَ إلى آراء المحافِظِينَ ، فَدَحَضَها في هدوءٍ وَبَساطَةٍ وَبَيَّنَ موقفَ الشَّريعةِ الإِسْلاميَّةِ من المرأةِ وَكَيْفَ أَخْطَأَ الجامِدُونَ فَنَسَبُوا إلى الدِّينِ ما لَيْسَ مِنْهُ ، وَاسْتَدَلَّ بعائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنينَ وما كَانَتْ عليه مِنْ فَصاحَةٍ وفِقْهٍ » .

ثُمَّ أَتَىٰ الشَّيْخُ بأبياتٍ مِنْ شِعْرِ مَمْدُوحِهِ ، بل إِمامِهِ العراقِيِّ ، وَفيهِ قَوْلُهُ عن المحافِظِين :

وَقَـالُـوا شِـرْعَـةُ الإِسْـلامِ تَقْضِـي
بِتَفْضِيـلِ ٱلَّـذِيـنَ عَلَـىٰ ٱللَّـوَاتِـي
لَقَـدْ كَـذَبُـوا عَلَـى الإِسْـلامِ كَـذِبًـا
تَــزُولُ ٱلشُّــمُّ عَنْــهُ مُــزَلْــزَلاتِ

أَنْقُلُ هذا عَنْ مَقالَةِ الشَّيْخِ ثُمَّ أَتعقَّبُ قائلًا : لا يكونُ مِنْ حَقِّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وجودَ مَوْقِفٍ خاصٍّ لِلْمَرْأَةِ في الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ مُوَافِقٍ لآراءِ المُسْلمينَ بِأَنْ تكونَ ممنوعةً عَنْ إِبْداءِ زِينَتِها لِلرِّجالِ غَيْرِ المحارِمِ الَّذي هُوَ سُفُورها الحاضِرُ وَأَقَلُّ

مِنْ سُفورِها الحاضِرِ ، وَأَنْ تكُونَ مَرْتَبَتُها دُونَ مَرْتَبَةِ الرَّجلِ في كثيرٍ مِنَ الأَحْكامِ الشَّرعيَّةِ ، كَالْمِيراثِ وَالشَّهادَةِ وَوِلايَةِ الطَّلاقِ . . لا يَكُونُ مِنْ حَقِّ هؤلاءِ المُنْكِرينَ وُجودُ مَوْقِفٍ خَاصٍّ لِلْمَرْأَةِ مَعَ وُجُودِ قَوْلِ اللهِ تعالىٰ في كتابِه : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣١] الخ . وَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . . . ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٨] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٨٢] وَقَوْلِه : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١١] .

لا يَكُونُ بَعْدَ هذه الآيات مِنْ حَقِّ هؤلاءِ ٱلْمُنْكِرينَ وُجودَ مَوْقِفٍ خاصٍّ لِلمَرْأَةِ في الشريعةِ الإِسلاميَّةِ ، الّذينَ خَلَقَهُمُ اللهُ عارِي الوجوهَ مِنْ حِلْيَةِ الحياءِ ، أَنْ يَتَكَلَّمُوا في الموازَنَةِ بَيْنَ حياءِ الفتاةِ الْمُحْتَجِبَةِ والفتاة الكاسِيَةِ العارِيَةِ .

الحاصِلُ أَنَّ الخُصومَةَ في مَظْلَمَةِ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ إِنْ كَانَتْ هُناكَ مَظْلَمَةٌ فَهِيَ تَتَوَجَّهُ إِلىٰ دِينِ الإِسْلامِ ، ثُمَّ إِلى

ٱلمحافِظِينَ . فَعَلَى أَنْصارِ السُّفورِ الحاضِرِ وَأَنْصَارِ مُساواةِ المَرأَةِ مَعَ الرَّجُلِ أَنْ يُحَارِبُوا الإِسْلامَ قَبْلَ مُحَارَبَةِ ٱلمحافِظِينَ على قانُونِ الإِسلامِ . إِلَّا أَنْ يُلْتَزَمَ التَّغَاضي وَالتَّعامي عَلى طُولِ خَطِّ المحارَبَةِ والمناقَشَةِ عَنْ نُصوصِ الكِتابِ وَٱلسُّنَةِ في ٱلْمَرأَةِ ، أَوْ تُقابَلَ تلك النُّصوصِ بِوُجوهٍ مُغَلَّفَةٍ بِغُلُفٍ غَلِيظَةٍ مِنَ ٱلمُكَابَرَةِ في فَهْمِ مَعَانِيها ، كَأَنَّ أصحابَ هذه الوجوه يَمْتَثِلُونَ بِأَمْرِ أَسْلافِهِمْ القائِلِينَ : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [٤١ سورة فصلت/الآية : ٢٦] وَما دَامَتْ تِلْكَ النُّصوصُ في القُرْآنِ ، فَضلًا عَنْ نُصوصِ السُّنَّةِ في كُتُبِ الأَحادِيثِ ، فَلا خلاصَ لِحَمَلَةِ الأَقْلامِ المُتَّخِذِينَ من المُؤْمناتِ الغافِلاتِ أدوات اللَّهْوِ وَالخلاعَةِ وَالمُجُونِ ، وَمِنْ محاسِنِهِنَّ نُصُبًا وَأَهْدافًا لِخَائِنَةِ العُيونِ . . لا خلاصَ لَهُمْ مِنَ الإِلزامِ . . فَعَلَيْهِمْ إِنْ أرادوا الخلاصَ أَنْ يَخْتَرِعُوا كِتابًا للإِسْلامِ يَخْتَلِفُ عَمَّا أُنْزِلَ على محمدٍ ، كما ٱخْتَرَعَ القَساوسةُ بَعْدَ المَسِيحِ ، وَكما قِيل لِنَبِيِّنا من قبل : ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [١٠ سورة يونس/ الآية : ١٥] .

واستدلالُ أنصارِالمرأةِ الجديدةِ بِسَيِّدَتِنَا عائشة وَفَصاحَتِها وفِقْهِهَا من فقدان الحياءِ أَيْضًا ، كأَنَّهُمْ يَسْتَدِلُّونَ بِفِقْهِها على

سُفُورِها ، مَعَ أَنَّ زَعِيمَ السُّفورِيِّين قاسمَ أمين يَقْصُرُ الحِجَابَ في شَرِيعَةِ الإسْلامِ على أَزْوَاجِ النبيِّ ﷺ . فَهَلْ عائِشَةُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ الَّتِي إنْ كانَ في الإسلامِ حِجَابٌ فَهِيَ مَأْمُورَةٌ بِهِ حَتَّى في اعْتِرافِ أوّلِ قائِمٍ بِفِتْنَةِ السُّفُورِ . . هل سَيِّدَتُنَا عائِشَةُ هَذِهِ كانَتْ في ظَنِّ الرُّصَافِيِّ والشيخ محمد رجب البَيُّومي مِثالًا رائِعًا للمَرْأَةِ الجديدَةِ الناهِضَةِ عارِيَةَ الساقَيْن ، عَارِيَةَ العَضُدَيْنِ ، عَارِيَة السَّحْرِ والنَّحْرِ إِلى مُفْتَرَقِ الثَّدْيَيْنِ ، على أن تَكُونَ الغَايَةُ داخِلَةً في ٱلمُغَيَّا ؟ . . وَلَنَا كَلامٌ آخَرُ مَعَ قَاسِمِ أمين فِي غَيْرِ هَذَا ٱلمَكَانِ من الكتابِ .

* * *

نَعُودُ إلى أَساسِ المَوضُوعِ : وَلَدَيْنَا مثالٌ آخَرُ يُسْفِرُ عن أهميَّةِ العَقِيدَةِ ، وَهُوَ مَعْلومٌ أَنَّ المُثَقَّفِينَ العَصْرِيِّين مُغْرَمُونَ بِمُحاربة الحكْمِ الشَّرْعِيِّ القائِلِ بِجَوازِ تَعدُّدِ الزَّوْجاتِ ؛ وَأَخِيرًا قَامَ أَحَدُ الباشَوات الكِبارِ يَسْعَى لاسْتِخْرَاجِ تَحْرِيمِهِ من آيةِ التَّحْلِيلِ نَفْسِها ، أَعْنِي قَوْلَهُ تَعالَى في أوائِل سُورَةِ النِّساءِ : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] وَهُوَ ضَلالٌ جَدِيدٌ بِناهُ على غَايَةٍ مِنَ ٱلغَرَابَةِ فِي تَفْسِيرِ تلك الآيَةِ ، وكانَ أَصْحابُ الضَّلالِ القَدِيمِ يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ قَوْلِهِ

تَعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ١٢٩] في مَكانٍ آخَرَ مِنْ سُورَةِ النِّساءِ أَيْضًا ، جَمْعًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ عَقِبَ القَوْلِ الأَوَّلِ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] وَلَمْ يَمْنَعِ الباشا مِنْ سَعْيِهِ الغريبِ المَكَابِرِ وَلا الضَّالِّين الأَوَّلِينَ ما جَرَى طُولَ تارِيخِ الإسْلامِ مِنَ العَمَلِ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ .

وَٱدَّعَىٰ الأستاذُ عَبْدُ المُتَعَالِ الصَّعِيدي مِنْ عُلماءِ الأَزْهَرِ في مجلة « الرِّسالة » أَنَّ أُولي الأَمْرِ[١] يَمْلِكُونَ تَحْرِيمَ التَّعَدُّدِ لا مِنَ الطَّرِيقِ الذي سَلَكَهُ الباشا مِنْ طريقِ المحافَظَةِ على العَدَالةِ وَرِعَايَةِ المَصْلَحَةِ . وَخَالَفَهُمَا ، أَي : الباشا والأستاذ الدكتور زكي الدين بدوي ، نافيًا عَنْ أيِّ جِهَةٍ أَنْ تَمْلِكَ تحريمَ ما أَحَلَّهُ ٱللهُ .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّ ما يَذْكُرُونَهُ مِنَ المَصْلَحَةِ في تحريمِ تَعدُّدِ الزَّوْجاتِ أَنَّ الزَّوْجَةَ الأُولَى يَشقُّ عَلَيْها أَنْ تُشارِكَها في زَوْجِها

---

(١) يقصد بأولي الأمر الحكام ؛ والملاحظ اليوم أن الكثير من نواب الشعب ، والذين يمثلون في بلدانهم السلطة التشريعية هم من معددي الزوجات ، فيكون الأمر مستبعد في إصدار تشريع يحرّم التعدد . بسام .

امرْأةٌ واحِدَةٌ عَلى أَنَّها زَوْجَةٌ ثانِيَةٌ ، أَكْثَرَ مِنْ مشارَكَةِ أَلْفِ ٱمْرأَةٍ على أَنَّهُنَّ خَليلاتٌ ، كما سَمِعْتُ هذا القَولَ فِعْلًا مِنْ كاتِبٍ مَصْرِيٍّ معروفٍ سَبَقَ أَنْ نَاقَشْتُهُ في الجرائِدِ دِفاعًا عَنْ مَبْدأِ التَّعدُّدِ الإسلامي ، وَكَتَبْتُهُ في « قَوْلي عن المرأةِ »[1] ، والمفهومُ مِنْهُ أَنَّ هَذَا ٱلمَبْدَأَ يَشقُّ على أعدائِهِ من كُتَّابِ المسلمين العَصْرِيِّين قَبْلَ ٱلزَّوْجَاتِ الأُولى ، وَأَنَّ السَّبَبَ الحَقِيقيَّ لِمُعادَاتِهِمْ عَدَمُ اتِّفاقِ هذا المَبْدأِ مع عَقْلِيَّات الغربِيِّين الَّتِي يَهْتَمُّ بها كُتَّابُنا مُنْذُ زَمانٍ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمامِهِم بِعَقْلِيَّاتِ المُسْلِمين .

أَمَّا ظُلْمُ الرَّجُلِ على زَوْجَتِهِ الأُولى بَعْدَ تَزَوُّجِ الثَّانِيَةِ ، فَلأُولي الأَمْرِ أَنْ يَمْنَعوهُ بِما يَمْلِكونَهُ مِنَ الطُّرُقِ المَشْرُوعَةِ ، لا مِنْ طَرِيقِ تحريمِ الحلالِ الذي لا يَمْلِكُونَهُ وَيعدُّونَهُ مصلحةً يُصادِمُونَ بها النُّصوصَ فَيَصْدِمُونَها[2] . . مَعَ أَنَّ تحريمَ التَّعدُّدِ يَسُوقُ الرجالَ الَّذِين لا يَكْتَفونَ بِالزَّوْجَةِ الوَاحِدَةِ إلى اتِّخاذِ

---

(١) راجع صفحة: ١٣٦ التالية .

(٢) وما يحاوله بعضهم بوضع غراماتٍ ومعوِّقاتٍ على تعدّد الزَّوْجاتِ والطلاق وإنجاب الأوْلاد ما هو إلا حلولٌ أقترحَها أعورٌ ينظر بعينٍ واحدةٍ لا يدرك عِلَّةِ الأحكام، قاصِرٌ عن فَهْمِ حقيقةِ المُجْتَمعات، مُقلِّدٌ ومستوردٌ لحلولٍ ليست حَلًّا لمجتمع إسْلامي ولا حَلًّا لمشكلاتِهِ. بسام.

خَلِيلَةٍ لَهُ بَدَلَ الزَّوْجَةِ الثَّانِيَةِ بَلْ خليلاتٍ[1] ، وَتُساعِدُهُ إِباحَةُ السُّفورِ لِلنِّساءِ مَعَ تَحْريمِ التعدُّدِ على الرِّجالِ . ولا شَكَّ في أَنْتِشَارِ الزِّنَا في بلادٍ تُسْفِرُ نِساؤُها وَيُمْنَعُ رِجالُها مِنْ تَعدُّدِ الزَّوْجاتِ ، فَيَتَضَمَّنُ هذا المَنْعُ مَفْسَدَةً أَكْبَرَ مِنَ المَصْلَحَةِ التي يَبْنُونَهُ عَلَيْها ، وَهِيَ انْتِشارُ الزِّنَا في بلادِ الإسْلامِ ، فَهَلْ يَمْلِكُ أُولو أَمْرِها إِباحَةَ الزِّنَا ، كما يَمْلِكُونَ تحريمَ تَعدُّدِ الزَّوْجاتِ على رَأْيِ الأستاذ عبد المتعال الصَّعِيدي ؟ وَهَلْ يَقولُ الأستاذُ كما قالَ الكاتِبُ الذي نَاقَشْتُهُ مِنْ قَبْلُ : إِنَّ ٱلْمَرأَةَ يَهُونُ عَلَيْها أَنْ تَكُونَ لِزَوْجِها أَلْفُ خَلِيلَةٍ وَيَشقُّ عَلَيْهَا أَنْ تكونَ له زَوْجَةٌ وَاحِدَةٌ أُخْرَى ؟ أَوْ هَلْ يُصَدِّقُ الأُسْتَاذُ وُجودَ كَرَامَةٍ في مِثْلِ هذه المَرْأَةِ لا يَكُونُ مِنْ حَقِّ الزَّوْجِ أَنْ يَدُوسَها كما يَدَّعِي أعْداءُ مَبْدَأ التَّعدُّدِ ، بَلْ يَكونُ لِأُولِي الأَمْرِ في سبيلِ المحافظةِ على هذه الكرامةِ المزعومة أن يُحرِّم حَلالًا كمبْدأ التَّعدُّدِ وَيُحَلِّلُ حَرامًا كانْتِشارِ الزِّنا في البلادِ أَوْ عَلَى الأَقَلِّ كَالتَّغَاضِي عَنِ انْتِشارِهِ ؟

---

(١) كما هو جارٍ في بعض البلدان العربية ، حيث لا يعيرُ قانونُها للخليلات أيّ اهتمام من حيث المنع ، لكنَّهُ يَضْبطُ الأزواج متلبِّسين ! مع زَوْجَتِهم الثانية ! كما تذكر الصحف في أخبارها . بسام .

وَالشَّاهِدُ المُسْتَفادُ مِنْ هذا البَحْثِ لِمَوْضُوعِنا ـ وَهِيَ أَهميَّةُ العَقِيدَةِ بالنِّسْبَةِ إلى العَمَلِ ـ أَنَّ تَحْرِيمَ الحلالِ كُفْرٌ كَتَحْلِيلِ الحرامِ ، لأَنَّهُمَا معارَضَةٌ لقانونِ الإسْلامِ وَرَفْضٌ لِحُكْمِ اللهِ ، وَالتَّوَرُّطُ في الحَرَامِ فِعْلًا مَعْصِيَةٌ دُونَ الْكُفْرِ . فَإِذَا اسْتَهْتَرَ أُولو الأَمْرِ فَأَحَلُّوا حَرامًا وحَرَّموا حَلالًا تَقْلِيدًا لِسُنَنِ الغَرْبِ وَقامَ النَّاسُ بالعَمَلِ على مُقْتَضَى التَّيَّارِ الجارِفِ كانَ التَّحليلُ والتَّحْريمُ اللَّذان هما حِصَّةُ أُولِي الأمْرِ مِنْ هذا التحوُّلِ المُعارِضِ لِحُكْمِ اللهِ كُفْرًا ، وَالعَمَلُ بِموجِبها مِنْ غَيْرِ ٱعْتِرافٍ بِصِحَّتِهِما وَكَوْنِهِما حَقًّا وَصَوابًا وَإِنَّما استِصْعابًا لِمخالَفَةِ الجُمْهُورِ كما ذَكَرْنَاهُ في فِتْنَةِ السُّفُورِ أَو اتِّبَاعًا لِشَهواتِ النَّفْسِ ـ مَعْصيةٌ دُونَ الْكُفْرِ لا يَيْأَسُ مُرْتَكِبُهَا مِنْ عَفْوِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ .

فَنَحْنُ المُهْتَمِّيْنَ بِصِحَّةِ العقيدَةِ الَّتِي يَمْتازُ بِهَا الإسلامُ على اللادِينِيَّة أَوَّلًا ، وَالأَدْيَانِ الضَّالَّةِ ثانيًا ، كما عُنِينَا في هَذَا الْكِتابِ بِإِزَالَةِ شُكُوكِ الملاحِدةِ في وُجودِ اللهِ وَشُكُوكِ أَشْبَاهِهِم المنْكِرينَ بِنُبُوَّةِ الأنبياءِ في إنْكارِهِمُ المُعْجزاتِ ، فَأَسَّسْنَا عقيدةَ الأُلوهِيَّة وَالنُّبُوَّةِ على أَساسٍ عِلْمِيٍّ يَفُوقُ عِلْمَ الملاحِدَةِ الحديثِ الذين يَقَعُونَ بِهِ في تِلْكَ الشُّكُوكِ ـ فَكَذَلِكَ نَسْتَخْرِجُ مِنَ الأَعْمالِ الَّتي تقابِلُ العِلْمَ والعقيدةَ ، ناحيةً اعتقاديَّةً فَنَلْفتُ

إلىٰ الاهْتِمامِ بالمحافَظَةِ علىٰ صِحَّةِ هذه الناحية عند صِحَّةِ النَاحِيَة العمليَّةِ وعِنْدَ فسادِها ، أَمَّا عِنْدَ صِحَّة العَمَلِ فَلِكَوْنِ صِحَّتِه مَبْنِيَّةٌ وَمُتَوَقِّفَةٌ على صِحَّةِ العَقِيدَةِ . وأَمَّا عِنْدَ فَسادِ النَّاحِيَةِ العَمَلِيَّة فَلأَنَّ صِحَّةَ النَّاحِيَةِ الاعْتِقادِيَّةِ تلافى إلى حَدٍّ لا يُسْتَهانُ بِهِ ما في العَمَلِ مِنَ الفَسادِ . . . فَنَحْنُ باسْتِجلابِ الاهْتِمامِ إلى صِحَّةِ العَقِيدَةِ حَتَّى في العَمَلِ ، نَخْدمُ طلَّابَ الحقِّ وَالصَّلاحِ من المسلمِينَ المُبْتَلَيْنِ في الزَّمانِ الفاسِدِ بِفَسادِ الأَعْمَالِ ، وَنَقِيهِمْ مِنَ ٱلهَلاكِ التَّامِّ ، ولا نَخْدُمُهُمْ بِالبَحْثِ عن طريقِ التَّجْويزِ والتَّصْحِيحِ لأَعْمالِهِمُ الفاسِدَةِ .

ثُمَّ نقولُ لِمُفَضِّلي المَصْلَحَةِ على النُّصوصِ عِنْدَ تَعارُضِهما ، الواجِدِين في تَفْضِيلِهم هَذا طَرِيقًا إلى جَعْلِ الإِسْلام دِينًا خَالِدًا يَأْتَلِفُ بِكُلِّ تَجْديدٍ في كُلِّ عَصْرٍ . . كَسعادَةِ عبد الرحمن عَزّام باشا مُؤَلِّفِ كتابِ « رسالَةُ سُنَّةِ اللهِ الخالِدَةِ » وفضيلة مُفْتِي حَضْرَمَوْت كاتب المقالَيْنِ فِي مجلَّةِ « الرسالة » ـ تَأْيِيدًا لِسَعادَتِهِ فِيما دَارَ بَيْنَهُ وبين الأستاذ بهجت ٱلأَثَري ـ ثُمَّ الأستاذ عبد المتعال الصَّعِيدي ٱلمُعْطِي لِأُولي الأَمْرِ حَقَّ تحْرِيم ما أَحَلَّ اللهُ في تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ، وَقَبْلَهُم الأستاذُ فريد وَجْدِي بك صاحِب كتاب « الإِسْلام دين عَامٌّ

خالدٌ » والقائل : « لا يوجَدُ تَجْدِيدٌ إلا وَيَسَعُهُ صَدْر الإِسْلامِ الرَّحبُ » حَتَّى إِنَّهُ هَتَفَ لِحكومَةِ أَنْقَرة الْكَمالِيَّة عِنْدَ إِعْلانِها قَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ ، جمهورية لا دِينيَّة تُلْغي الخلافَةَ الإسلاميَّةَ وَالمحاكم الشَّرْعِيَّة والمَدارِس الدِّينِيَّة . . وَعِنْدَما عادَتْ أَخِيرًا تَتَظاهَرُ بِبَعْضِ آثارِ الرُّجُوعِ إِلى الدِّينِ ، وَإِنْ كانَ لا يُؤْمِنُ لِجِدِّيَّتِها إلا الغافِلُونَ ، وَالأُسْتاذُ يَهْتِفُ بِتِلْكَ الحُكومَةِ في حَالَتَيْها ، أي : على خُرُوجِهَا مِنَ الدِّين جُمْلَةً ، ثُمَّ عَوْدِها إِلَيْهِ بِنِسْبَةِ واحدٍ في المِئَةِ ، وَيَعُدُّ كِلَيْهما مِنَ الإِسْلامِ . . وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الأَزْهَرَ الجديدَ الَّذِي أَسَّسَهُ أستاذُهُ الأَكْبَرُ المَراغِيُّ اتَّخَذَ مَسْأَلَةَ التعارُضِ بَيْنَ النَّصِّ والمَصْلَحَةِ مادَّةً امْتِحانِيَّةً لِطُلَّابِ تَخَصُّصِ القَضاءِ في آخِرِ هَذهِ السَّنَةِ الدِّراسِيَّة (١٩٤٨) ! . .

وَنَحْنُ نَقولُ لِهؤلاءِ العُلماءِ العَصْرِيِّين : أيُّ مَصْلَحةٍ يراها أَيُّ فَرِيقٍ مِنْ أُولِي ٱلأَمْرِ وَتُفَضِّلُونَها أَنْتُم على النُّصوصِ ؟ . . فَهَذِهِ تُرْكِيَةُ الجديدةُ قَدْ سَنَّ أُولُو أَمْرِها قانونًا يُبِيحُ زَواجَ غَيْرِ المُسْلِمين بِالمُسْلِماتِ ، وَلَهُمْ في ذَلِكَ طَبْعًا ما يُسَمُّونَهُ المَصْلَحَة . . وَفِي مِصْرَ وَغَيْرِها مِنَ البلادِ الإِسْلامِيَّةِ مَنْ لا يَزالونَ يَعُدُّون تركية دَوْلَةً إسلاميَّةً . . ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلَ

الإسْلامِيَّةَ الحاضِرةَ غَيْرُ تُرْكِيَّة الجديدة تَنْتَابُها ما نَابَتْ تركية مِنْ داءِ التَّقْلِيدِ لِلْغَرْبِ ، حَتَّى قَضَى على دِينِها ، وَأَوَّلُ دَلِيلٍ على هَذَا أَنَّ تِلْكَ الدُّول لَمْ تَقُمْ بواجِبِ النَّصِيحَةِ نحو تُرْكية قاطِعةً صِلَتَها السِّياسيَّةَ عَنْها عِنْدَ إِعْلانِها عَنْ نَفْسِهَا جمهوريةً لا دِينِيَّةً ، وَالدَّلِيلُ الثَّاني أَنَّ تِلْكَ ٱلدُّوَلَ أَيْضًا قَدْ دَخَلَتْ مُنْذُ زمانٍ في طريقِ فَصْلِ الدِّيْنِ عَنِ السِّياسَةِ ، وَقَطَعَتْ فِيها مَرَاحِلَ . . .

فلنفرضْ أنَّ واحدةً من تلكَ الدُّولِ سَنَّ أُولو أَمْرِهَا ـ لا قَدَّرَ اللهُ ـ ما سَنَّتْ تركية في زواجِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ بالمُسْلِماتِ ، وَهُمْ لا يَعْدَمُونَ مَصْلَحةً في ذَلِكَ على زَعْمِهِمْ كما لا تَعْدَمُ تركية الجديدةُ . فَمَاذَا يَكُونُ فِيها قَوْلُ مُفَضِّلي المَصْلَحَةِ على النَّصِّ عِنْدَ تَعَارُضِهِما في هذه المَسْأَلَةِ المَفْرُوضَةِ ؟ وماذا يَكُونُ فِيها قَوْلُ الأسْتاذ الأَزْهَرِيِّ عَبْدِ المُتعال الصَّعِيديِّ المُخَوِّلِ لِأُولي الأَمْرِ قَلْبَ الحرامِ حلالًا وَالحلالِ حَرامًا لمصلحة يَتَصَوَّرُونها في القَلْبِ ؟ وَالمسألةُ جامعةٌ لِشُروط الأُسْتَاذِ في التَّخْويل وَالتَّفْضِيلِ : أُولو الأَمْرِ وَٱلْمَصْلَحَةُ ! بَلْ مَاذَا يَكُونُ قَوْلُهُم وَقَوْلُهُ عِنْدَما فَرَضْنا أَنَّ أَيَّ دَوْلَةٍ من تلك الدُّوَلِ أرادَ أُولُو أَمْرِها حَذْفَ المادَّةِ مَنْ

دُسْتُورِهَا القائِلَةِ بِأَنَّ دِينَ الدَّوْلَةِ الإسلامُ ، وإضافَةَ مادَّةٍ إِلى قانونِها المَدَنِيِّ ـ بَدلًا مِنَ المَادَّةِ المَحْذُوفَةِ عَنِ الدُّسْتُورِ تَجْعَلُ كُلَّ مَنْ بَلَغَ سُنَّ الرُّشْدِ مِنْ أفرادِ الأمَّةِ ، حُرًّا في اخْتِيارِ أَيِّ دِينٍ شَاءَ ؟ كما فَعَلَتْهُ تُرْكية الجديدةُ أَيْضًا . وَلا تَسَلْ عَنِ الْمَصْلَحَةِ في هَذا الْحَذْفِ وَالإِضافَةِ ، فَكُلُّ تَجْدِيدٍ في عَصْرِنا يَتَضَمَّنُ مصلحَةً يَرْغَبُ فيها العَصْرِيُّونَ وَلَوْ كانوا مِنْ عُلَماءِ الدِّين ، لا سِيّما التَّجْدِيدُ الذي يَهْدِفُ إلى تَقْلِيدِ الغَرْبِ القَوِيِّ من الشرق الضَّعِيفِ ، كما سَبَقَ في مَسْأَلَتَي السُّفورِ وتَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ .

فَهَذَا ما يُؤَدِّي إِلَيْهِ تَرْجِيحُ المَصْلَحَةِ على النَّصِّ ، فَيَجْعَلُ الإسلامَ لا مبادىءَ لَهُ ثابتةً ، بَلْ تابِعةً لِتَصَرُّفاتِ الحاكِمِينَ في كُلِّ عَصْرٍ . . يَسْتَخْدِمُهُ مَنْ شَاءَ إِلغاءَ أَيِّ حُكْمٍ مِنَ الأحكامِ الَّتِي شَرَّعَها اللهُ في الإِسْلامِ إِلى أَنْ يُلْغِي الإسلامَ نَفْسَهُ . . وَهَذِهِ سَبِيلي فِي الفَصْلِ بَيْنَ المُسْلِمِين المُحَافِظِينَ وَٱلمُجَدِّدين الَّذِين يَرْمُونَهُمْ بِٱلجُمُودِ ، أُناضِلُ الرَّامِينَ بِطَرِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَكْشِفُ عَمَّا يَسْتِرُهُ مَشْرُوعُهُمْ مِنْ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِمَّا يُظْهِرُونَهُ مِنَ المصْلَحَةِ .

يَقُولُ الأُستاذُ عَبْدُ الْمُتَعَالِ ما مَعْنَاهُ : قَدْ فَسَدَ الزَّمانُ

وَفَسدتْ أَخْلاقُ الرِّجَالِ ، فَاتَّخَذُوا ما حَلَّ لَهُمْ مِنَ الجَمْعِ بَيْنَ عِدَّةِ زَوْجاتٍ أَداةً لِظُلْمِ الزَّوْجَاتِ الأُولَى . . فَفِي مِثْلِ هذا الزَّمانِ يَكُونُ مِنْ حَقِّ أُولِي الأَمْرِ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَيْهِمْ ذلك الحلالَ القَدِيمَ . . . كما كانَ مِنْ حَقِّهِمْ في عَصْرِنَا هذا قَبْلَ سَنَواتٍ ، إِلْغَاءُ الطَّلَقَاتِ الثَّلاثِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ وَاعْتِبَارِها وَاحدَةً ، بَعْدَ أَنْ جَرَتِ الأَحْكامُ عَلى وُقُوعِها مَجْموعةً مُنْذُ سَيِّدِنَا عُمَرَ الَّذِي كانَ هُوَ الآخَرُ قَدْ غَيَّرَ الحُكْمَ الجارِي في عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وخِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَصَدْرِ خِلافَةِ عُمَرَ نَفْسِهِ ، عَلى وُقُوعِها واحِدَةً . . وَلَكِنَّ النَّاسَ خالَفُوا ذَلِكَ فَأَوْقَعُوها ثَلاثًا ، فَأَمْضَاهَا عُمَرُ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ وَأَخَذَ الأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ بِحُكْمِ عُمَرَ . . ثُمَّ أَصْبَحَ حُكْمُ أُولِي ٱلأَمْرِ في زَمانِنَا باعْتِبَارِ الثَّلاثِ وَاحِدةً ، رُجُوعًا إلى ما كانَ في عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ وَمَوْافِقًا لِمَصْلَحَةِ مَنْعِ النَّاسِ عَنِ الإِسْرَافِ فِي الطَّلاقِ . . هَكَذَا قَالَ ٱلأُسْتَاذُ عَبْدُ المُتَعالِ .

وَأَنَا أَقُولُ : يُحَاسِبُ الأُسْتاذُ فَسادَ أَخْلاقِ الرِّجالِ بِفَسَادِ الزَّمَانِ ، فَيَعْتَبِرُ حُكْمَ أُولِي ٱلأَمْرِ بِتَحْرِيمِ ما كانَ لَهُمْ مِنْ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ ـ إِذَا حَكَمُوا ـ حَقًّا مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ وَلا يُحَاسِبُ

الفَسَادَ في أُولِي أَمْرِ الزَّمَانِ الْفَاسِدِ وَلا مَا أَصْبَحَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ المَفَاسِدِ مَصْلَحةً ! . . وَقَدْ أَوْرَدْنَا نَماذِجَ مِنْهَا .

وَلا نَقْبَلُ عَنْهُ ما عُزِيَ إلى سَيِّدِنَا عُمَرَ مِنْ تَحْرِيمِ مَا حَلَّ أَوْ تَحْلِيلِ ما حَرُمَ في عَهْدِ النَّبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ ، لِأَنَّ الشَّارِعَ في الإِسْلامِ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ الَّذِي لا يُتَصَوَّرُ لَهُ الخَطأُ فيما بَلَّغَهُ بِواسِطَةِ نَبِيِّه ، وَقَدْ يُخْطِىءُ النَّبِيُّ في اجْتِهَادِهِ ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يُصَحَّحَ خَطَأُهُ مِنْ عند اللهِ في عَهْدِهِ بَلْهَ أَنْ يَلْبَثَ التَّصْحِيْحُ إلى عَهْدِ عُمَرَ أَوْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ عُمَرَ ! . .

وَلا نَقْبَلَ أَيْضًا ما عُزِيَّ إلى عُمَرَ مِنْ إمْضاءِ الطَّلَقَاتِ الثلاث ثلاثًا ، مخالِفًا لاعْتِبَارِها في عَهْدِ النبيِّ وأبي بَكْرٍ واحِدَةً . . وَنَبْنِي عَدَمَ قُبُولِنا على أساسِ عَقْلِيَّتِنا الدِّينِيَّةِ غَيْرِ القابِلَةِ لِكَوْنِ عُمَرَ يَنْقُضُ ما بَنَاهُ النبيُّ . . لا على تَرْجِيحِ ما رَواهُ المُحافِظُونَ مِنَ أَنَّ الطَّلَقاتِ الثلاثَ الوارِدَةَ بِلَفْظٍ واحِدٍ كانَتْ تُعْتَبَرُ في عَهْدِ النبيِّ وَخَلِيفَتِهِ الأَوَّلِ أَيْضًا ثلاثًا كما أَمْضَاهَا عُمَرُ ، وَلَوْ بَنَيْنَاهُ على تَرْجِيحِ هذه الرِّوَايَةِ كان حَقًّا ، وَلَكِنَّهُ لا يَكْفِي في إسْكاتِ غَيْرِ المُنْصِفِينَ مِنْ أَنْصارِ المَصْلَحَةِ إِذَا أَصَرُّوا على تَرْجِيحِ الرِّواية المَرْجُوحَةِ وكانَ ما فَعَلْتُهُ عِبارةً عَنْ مقابَلَة رِوايَةٍ بِروايَةٍ أُخْرَى ، مَهْما كانَ إِحْدَى الرِّوايَتَيْنِ

أَقْوَىٰ وَلَمْ تَكُنْ مُقابلةً حاسِمةً .

وقد رأَيْنَا الأستاذَ عَبْدَ المُتَعال يَذْكُر مثالًا وَيَسْتَشْهِدُ به على ما ادَّعاهُ في قولِهِ : « نَعَم ، نَمْلِكُ تحريمَ تَعَدُّدِ الزَّوْجات » رَدًّا على الدكتور زَكِيّ الدين المُسْتَنْكِرِ لِهَذِهِ المالِكِيَّةِ وَهُوَ أَنَّ الطَّلَقاتِ الثلاثَ بِلَفْظٍ واحِدٍ قَدْ أُلْغِيَتْ قَبْلَ سِنِينَ بِقرارٍ مِنْ أُولي الأَمْرِ وَٱعْتُبِرَتْ تطليقةً واحدةً ، بَعْدَ أَنِ اتَّفَقَتْ مذاهبُ الأئمَّةِ الأَرْبَعَةِ في وقوعِها مجموعةً ، وَجَرَى العَمَلُ عَلَيْهِ في البلاد الإسلاميَّةِ التابِعَةِ لِتِلْكَ الأئمَّةِ الأَرْبَعَةِ على طُولِ التاريخِ ، إلى أَنْ جاءَ هَذا العَصْرُ ، فَرَأَىٰ أُولُو الأَمْرِ إلغاءَ الثَّلاثِ . فَكَأَنَّ الأستاذَ يقولُ : وَهَكَذا يَفْعَلُ أُولو الأَمْرِ ، فَتُلْغَى إباحَةُ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ كما أُلْغِيَتِ الطَّلقاتُ الثلاثُ بِلَفْظٍ واحِدٍ ، وَيَنْتَهِي الكلامُ في المسْأَلَتَيْنِ كما سَكَتَ الدكتور زكي الدين في الشَّوْطِ الأخِيرِ من النِّقاشِ . وَأَنا أَقولُ : فَإِنْ كانَ المحافِظُونَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِمَصْلَحَةِ الإِلْغاءِ في الطَّلقاتِ الثلاثِ كما انْتَقَدَهُ فَضِيلَةُ صَدِيقنا الشيخ زاهِد الكَوْثري وَقَضَى عَلَيْهِ عِلْمِيًّا بِتَأْلِيفٍ مُسْتَقِلٍّ سَمَّاهُ « الإشْفاقُ على أحْكام الطَّلاقِ » فالأستاذُ عَبْدُ المُتَعال يَرَىٰ جانِبَ أُولي

الأمْرِ أَقْوَى ، وَيَعْتَبِرُ كتابَ فَضِيلةِ الصَّدِيق صَرْخةً في وادٍ ، فَيَتَجاهَلُ عَنْهُ بالمرَّةِ . أَمَّا الحقُّ ، فَهُوَ عِنْدَ الأستاذِ يَدُورُ مَع المَصْلَحَةِ ، والمَصْلَحَةُ في أَيْدِي أُولِي الأَمْرِ يُقَلِّبُونَها كما يَشَاءُونَ ، وَقَدْ سَبَقَ مِنَّا أَمْثِلَةٌ مِنْ تَقلُّباتِهَا يَعْتَبِرُ فيها المُعْتَبِرُونَ . ٱنْتَهى النقلُ .

* * *

ولمصطفى صبري رَحِمَهُ اللهُ رَأيٌ في كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » ، أنقله من كتابه « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين » ١/ ٤٨٥ :

قرأتُ كتابَ قاسم أمين « تحرير المرأة » ، فرأيتُهُ يَشنُّ الحربَ على حجابِ المرأة المسلمة وابتعادها من الرجال ، مع الاجتهادِ الماكِرِ في توفيق هذه الحرب بقواعد الشرع الشريف . فهو يَظْهَرُ في مَظْهَرِ المُدافعِ عن السُّفور ، بمعنى كشف الوجه ونبذ النقاب الذي لم يوجبه فقهاؤنا إلا لِخَوفِ الفِتْنَةِ ، وهذا مع عِلْمِهِ بأن السُّفُورَ في عُرْفِ عصْرِنا خلاصته أو نتيجته التَّزيِّ بزَيِّ الغربيَّاتِ إلى أن تُصْبحَ نِساؤنا مِثْلَهُنَّ ، كاسِيَاتٍ عارِياتٍ ، كما أصبحن كذلك في الحالة الحاضرة

التي تَسَعُ حتى مخاصرةِ الرجال النساء في الحفلات الساهرة[١] .

وقد يُسْمَعُ مِنْ بَعْضِ الأفواه أنَّ قاسمًا لم يَرِدْ هذه الحالَةَ . وهي أفواه الغافلين عن أنَّ دَعْوىٰ السُّفُورِ حَدَثَتْ فِينا مُتَرْجَمةً عن اقتراحٍ جديدٍ يُدارُ تحت خطَّةٍ منتظمةٍ وَضَعَها طائِفَةٌ من الرجال تقليدًا للغرب ، وهم كانوا على معرفةٍ تامَّةٍ بمقدَّمات الاقتراح وما تَصِلُ إليه تلك المقدَّمات من النتائج . . وكان قاسمٌ ومكبِّرُوه من هؤلاء العارِفِين لا الغافِلِين ، ألا يُرَىٰ أن الذين احتفلوا بذكراه الثلاثين لا يَرونَ أيَّ خلافٍ بين ما سَعَىٰ له الرجلُ وبين حالة نِسائِنا الحاضِرَةِ ؟ حتى إن ابن المحتفَل بذكراه يَطْلُبُ ثوابًا من الله

---

(١) مما يَجِبُ التَّنَبُّهُ لَهُ ، أَنَّهُ في عصرنا، عَصْرٍ غَلَبَتِ القراءةُ على مُعْظَمِ النَّاسِ، فأخذوا يعلمون أن في حرمة الخمر، إضافةً لطاعَةِ اللهِ تعالى ، التَّحَرُّزَ من مَضارِّها وخَبَاثِتِها ؛ مِمَّا جعلهم يَجْتَنِبُوا المطاعِمَ التي تُقَدِّمُ الخُمورَ ؛ وبالمقابل فإنَّ أصحابَ بعض المطاعِم الحريصِينَ على عَدَمِ الالْتِزَامِ بالأحكامِ الشرعيَّة ، أَصْبَحوا يُعْلنون بِوَقاحَةٍ عن حفلاتِهم الصَّاخِبَةِ مع التنبيهِ أَنَّهُم لا يُقَدِّمون الخمورَ ، أمّا باقي المفاسد، من رقص ومخاصرة و. . . الخ فمتوفِّرَةٌ موجودَةٌ !؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله . بسام.

لأبيهِ على سَنِّهِ هذه السُّنَّةِ الحسنة وثوابًا جاريًا لا انقطاعَ لَهُ مُشْتَقًّا من ثواب العاملين والعاملات بها إلى يَوْمِ القيامة !

ثم لا يخلو الكتابُ نَفْسُهُ من تَعَمُّدِ القضاءِ على الخواصِّ المُمَيِّزَةِ للمرأةِ المُسْلِمَةِ وإفساد حالَتِها تَحْتَ سِتارِ السَّعْي لِمَصْلَحَتِها في حدودِ الشرع الإسلامي ، فيروِّجُ لها المُعاشَرَةَ المختلِطَةَ بالرِّجالِ له . . ورُبَّما يَعُدُّ اختلاطَ الفتيات بالفتيان لِزامًا ، ليحصل التعارفُ بين الفريقَيْن ، فلا يكون الزَّواجُ مجازَفةً عمياءَ ولا مَبنيَّةً على معرفة الوسطاء الأجانب ، وإنْ كان هؤلاء الأجانب من آباءِ الطَّرَفَيْن أو أمهاتهما .

أما الحجابُ المعروفُ في الإسلام فيراه قاسمٌ مخْتَصًا بنساءِ النبي ﷺ ، ويَسْتَدِلُّ على هذا الاختصاص بقوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٢] وقوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٣] بناءً على أنَّ ضميرَ الجمْعِ المؤنَّثِ راجعٌ إلى أزواجِ النبيّ ، فتكون الأوامرُ والنواهي المذكورَةُ الواردَةُ بشأنِ أزواجِهِ ﷺ لا تجاوزُ بطبيعَةِ الحالِ غَيْرَهُنَّ .

هذا ما يحاول أنْ يقولَهُ مؤلِّفُ « تحرير المرأة » . ونَحْنُ

نقولُ : إن المرادَ من قَوْلِهِ تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٢] امتيازُهن المذكورُ قَبْلَهُ في قولِهِ : ﴿ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٠] وقولِه : ﴿ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣١] وإلا فَلَيْسَ المرادُ مِن الأوامرِ والنواهي المذكورة بعد قولِه : ﴿ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٣٢] وهي : ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآيتان : ٣٢ و٣٣] أنَّها خاصَّةٌ بأزواجِ النبيِّ لا تجاوز غيرَهُنَّ من النِّساءِ المسْلِماتِ ، فَيُباحُ لِلْغَيْرِ أن يَخْضَعْن بالقَوْلِ لِيَطْمَع الذي في قلبه مَرَضٌ ، وأن لا يقلن قولًا معروفًا ، وأن لا يَقَرْن في بيوتِهِنَّ ويتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ، ولا يُقِمْنَ الصَّلاة ، ولا يُؤْتِينَ الزَّكاةَ ، ولا يُطِعْنَ اللهَ ورسولَهُ !

وقياسًا على هذا ، ليس المرادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى في آية أخرى من آيات سورة الأحزاب خطابًا للمؤمنين في معامَلةِ

أزواج النبي : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٣] أنّ السؤالَ مِنْ وراءِ الحجابِ خاصٌّ لأصحابِ النبيِّ ﷺ مع أزواجِهِ ، وأنَّ المحافظة على طَهَارَةِ القلوبِ لَيْسَتْ ضروريةً لعامَّةِ المسلمين والمسلمات !

فَظَهَرَ من هذا البيان أنَّ الأحكامَ المذكورةَ في سورة الأحزاب المتعلِّقَةِ بحجاب أزواج النبي لم تَكُنْ خاصَّةً بِهِنَّ بناءً على أن عِلَلَ الأحكام المذكورة في تلك الآيات كُلِّها تجري في غَيْرهنّ أَيْضًا . لكنَّ صاحبَ « تحرير المرأة » يُغالطُ الأفْهَامَ وَالعُقُولَ لِتَرْوِيجِ هواه وَيُحَرِّفُ الكَلِمَ عن مَواضِعِه في تفسيرِ آياتِ اللهِ .

وهُناكَ آيَةٌ أُخْرى في سورة الأحزاب أيضًا تنقضُ ما ادَّعاه قاسم أمين من اختصاص نساءِ النبيِّ بواجِبِ الاحتجابِ ، وتَنُصُّ على أنَّ هذا الواجِبَ عامٌّ لجميع نساء المؤمنينَ ؛ لا فَرْقَ بَيْن نسائِهِ ونسائِهِمْ في ذلك ، وهِيَ قَوْلُهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٩] والجملة الأخيرة من الآية المبيِّنَةِ لِفائِدَةِ الحجابِ تُبَيِّنُ أَيْضًا

عَدَمَ الفَرْق المذكور ، وهي أن يعرف كونهن عفيفات غير مائلات وغير مميلات ، فَيَسْلَمْنَ عن مراودة الفُسَّاقِ ، ويكونَ احتجابهن علامةً لِعَدَمِ رَغبتهن في تلك المراوَدَةِ التي يُعَبِّرُ عنها القرآنُ بالأذى والَّتِي تكونُ أَذَى في حَقّ نِساءِ وبَنَاتِ المُؤْمِنِين كما كانَتْ أَذًى في حَقِّ نِساء النَّبي وبَنَاتِهِ . وفي نَصْبِ حِجاب المرأة في هذه الآية ـ علامةٌ لِعَدَمِ رَغْبتِها في مراوَدَةِ الفُساق مِنَ الرجال ، إشارةٌ بالغةٌ على رغْم قاسِم أمين ـ إلى شِدَّةِ لُزُومِ هذه العلامة للمُحْصَنات من النِّساءِ .

وفي كتاب قاسم كثير من الكلمات الحَقَّةِ التي أُرِيدَ بها الباطلُ : انظر قوله ص٥٦ : « لَوْ أَنَّ في الشريعة الإسْلامِيَّة نُصُوصاً تَقْضِي بالحِجابِ على ما هو معروفٌ الآن عند بَعْضِ المسلمين لَوَجَبَ عَلَيَّ اجْتِنابُ البَحْثِ ولما كَتَبْتُ حَرْفًا يخالف تلك النصوص مهما كانت مصغرة في ظاهر الأمر (!) لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بَحْثٍ ولا مُنَاقَشَةٍ ، لَكِنَّا لا نَجِدُ نَصًّا في الشريعة يوجب الحجابَ على هذه الطريقة المعهودة ، وإِنَّما هي عادَةٌ عَرَضَتْ عَلَيْهِمْ من مخالَطَةِ بَعْضِ الأُمَم (!) ، فاسْتَحْسَنُوها وأَخَذُوا بها ، وبالَغُوا فِيهَا ، وَأَلْبَسُوهَا لِباسَ الدِّينِ كسائر العاداتِ الضَّارَّةِ

التي تَمَكَّنَتْ في الناس باسْمِ الدِّين وَالدِّينُ براءٌ مِنْها . وَلِذَلِكَ لا نَرَىَ مانِعًا من البحْثِ فِيها ، بل نَرَىٰ من الواجِبِ أنْ نُلِمَّ بِها وَنُبَيِّنَ حُكْمَ الشريعةِ في شأنِها وحاجَةِ الناس إلى تَغْييرِها » .

أَقولُ : كُلُّ باحثِ حادثٍ في الإسلام يعرِفُ أنَّ فِيه حِجابًا للمرأة يُحَبِّذُهُ من يُحَبِّذُهُ من المحافِظِين على تقاليدِ دينه ويَكْرَهُهُ من يَكْرهُهُ من هواة الغَرْبِ السَّافِرِ ، أعْنِي : إنَّ المعروف كون السفور حَدَثًا حَدَثَ في بَعْضِ المسلمين تَقْلِيدًا للأجانبِ عَنْهُم ، ثم أَخَذَ يَنْتَشِرُ ٱنتِشارًا يَعْلَمُ اللهُ مُنْتَهَى مَداهُ ؛ ولم يَقُلْ أَحَدٌ قَبْلَ قاسِمٍ إنَّ الحجابَ حادِثٌ في المُسْلِمين على أيِّ شَكْلٍ مِنْ أشْكالِهِ أخَذُوهُ مِنْ عاداتِ أُمَمٍ أُخْرَىٰ ، وَتعوَّدُوهُ ، وَبالَغُوا فِيهِ ، ثُمَّ نَسَبُوهُ إلى دِينِهِمْ ، وَالإسلامُ بَراءٌ عَنِ ٱلْحِجَابِ ! فهذا قَلْبٌ لِلأَمْرِ وَمُضادَّةٌ للوَاقِعِ . وكانَ لَهُ على الأَقلِّ مِنْ مَنْطِقِ الإنْصافِ أَنْ يَقولَ : أَخَذُوهُ مِنْ نِساءِ نَبِيِّهِم اللاتي اعْتَرَفَ فِيما سَبَقَ بِوُجودِهِ فِيهِنَّ وَوُجُوبِهِ عَلَيْهِنَّ نَصًّا في القرآن ـ وَلَوْ مَعَ دَعْوى اخْتِصاصِهِنَّ به ـ ثم تعوَّدوهُ وبالغوا فيه ونسَبُوه إلى الدِّين ؛ فهل كتابُ الإسلامِ أخَذَهُ وَلَوْ لِنساءِ النبيِّ من الأجانب وَالإسلامُ بَراءٌ مِنَ الحِجابِ ؟!

ثُمَّ قال قاسِم أَمِين : « جاءَ في الكتاب العزيز : ﴿ قُل

لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾

[٢٤ سورة النور/ الآيتان : ٣٠ و٣١] » .

« أَبَاحَتِ الشريعةُ في هذه الآية أن يَظْهَرَ بَعْضُ أعْضاءِ المرأةِ من جسمها أمام الأجنبي عَنْها غَيْرَ أَنَّها لَم تُسمِّ تلك المواضِع » .

أَقولُ : هَذِه آيَةُ الحِجابِ لِلنِّساءِ الَّذِي يَسْعَىٰ مُؤَلِّفُ « تحرير المرأة » أن يُنْكِرَ وجودَهُ في الإسلام ، مَهْما كانت الآيـة مُجْمَلـةً فـي تعييـن مَحـلِّ الكَشْـفِ المُسْتَثْنـى مـن الاحتجاب ، فَالقرآنُ صَريحٌ في فَرْضِ الحجابِ على النِّساءِ عامَّةً والتفريقِ بَيْن الجِنْسَيْن في اللُّبْسِ على أَنْ تكونَ أَعْضاءُ المَرْأةِ أَكْثَرَ تَستُّرًا أمام الأجنبيِّ عنها من أَعْضاءِ الرجل لا أكثر

انكشافًا منها ، كما هو الواقع الآن في الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ، وخاصَّةً في مِصْر بعد النهضة التي أدَّى إلَيْها تَحْريرُ المرأة مُلْهمًا مِنْ كتاب قاسم أمين المسمّى باسْمِهِ نَفْسِهِ .

وفي الآية كلمةٌ ، هي قوله تعالى : ﴿أَوْ نِسَآبِهِنَّ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] الدَّالُّ على مبلغ لزوم الحجاب للمسلمات إلى حَدِّ كونِهِنَّ ممنوعاتٍ من إبداءِ زِينَتِهِنَّ لِنِساء الأجانب عن الإسلام . . كلمةٌ لو كان قاسم أمين أصغى إليها لوجد فيها عِظَةً بالغةً تُعارِضُ كَلمتَهُ وتناهِضُ نَهْضَتَهُ ، كلمةٌ تكْفِي في إثْباتِ أنَّ كِتابَهُ وما يَرْمِي إلَيْه في وادٍ ومَرْمى كتابِ الله في وادٍ بعيدٍ عَنْه كلَّ البُعْدِ ، وهو ، أي : قاسمٌ نَفْسُهُ ، يُثْبتُ في كتابه هذه الكلمةَ من كتابِ الله التي تكْفي وحدها لِلْقَضاءِ على كِتَابِهِ .

ولم يَفُتْ مؤلِّفَ « تحرير المرأة » ما يقعُ فيه كَثِيرٌ من الكتَّابِ العَصْرِيِّين ولا يَسْلَمُ منه عُلماؤهم منْ غَلطِ الفَهمِ لِمَعْنَى القُرْآنِ الكريم في مَسْأَلَةِ تَعدُّدِ الزَّوْجات ، حَيْثُ يُرَتِّبونَ قِياسًا مَنْطِقِيًا مُؤَلَّفًا من مُقَدَّمَتَيْن ، كِلتاهُما مأخوذَةٌ من كتاب الله ، أَعْنِي قولَهُ تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] ، وَقولَهُ : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ

وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٢٩] وَكِلا القَوْلَيْن في سُورةِ النِّساءِ ، فَيُلْغُونَ بِهذا القِياسِ الجوازَ الشَّرْعيَّ المَعْرُوفَ في تلك المسألة المأخوذَ هو الآخر أيْضًا من كتاب الله مُتَّصلًا بالقَوْلِ الأَوَّلِ مِمّا قَبْلَهُ ، أَعْنِي قَوْلَهُ تَعالَى : ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] ومَعْمُولًا به مِنْ صَدْرِ الإسْلام إلى يَوْمِنا هذا . وَنَحْنُ نُحاشِي السَّابِقِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَغْفَلُوا عَمّا تَنَبَّهَ لَهُ كُتَّابُ هذا الزمان من مَعْنَى كتاب الله المُؤَدِّي إلى الهَدمِ بَعْدَ البناءِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ . فَلْيَبْحَثْ هَؤلاء الكُتَّاب عَنْ عَدَمِ الشُّعورِ في أَنْفُسِهِمْ وَلْيَقْرَأُوا ما بَعْدَ الآية الثانية الهادِمَةِ ، أَو بالأَصَحِّ الَّتِي يَزْعِمُونَها الهادمة ، وهو : ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٢٩] .

أما المحاذيرُ الاجْتِماعيَّةُ الَّتِي قَلَّما يَخْلُو عَنْهَا تعدُّدُ الزَّوْجاتِ وَالَّتِي أحْصاها قاسِمٌ في كِتابِهِ ، فَنَحْنُ نَعْرِفُهَا أَيْضًا ، ونَعْرِفُ مَعَ هذا ٱنْتِشَارَ الزِّنَا في البلاد المُعْرِضَةِ عن هذا المَبْدَأ الإِسْلامِيِّ تَفَادِيًا من تلك المَحاذِيرِ . فَمَبْدأُ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ الَّذي أباحَهُ الإسلامُ لا بُدَّ أَنْ يَسُدَّ فَرَاغَهُ الزِّنا ، لأَنَّ مَنْ يَرَى نَفْسَهُ من الرجال في حاجَةٍ إلى امرأةٍ ثانِيَةٍ فهو يَحْصُلُ

عَلَيْها خليلةً إن لَمْ يَحْصُلْ عَليها حَلِيلةً . ومَنْ دَرَسَ مسألَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ لينتهي إلى مَنْعِهِ فَلْيَدْرُسْهَا في المقارَنَةِ بين النّكَاح والسّفاحِ ، ثُمَّ لِيَخْتَرْ أَهْوَنَ الشَّرَّيْنِ .

هذا كلامٌ وَجِيزٌ قاسٍ ، وَلَكِنَّهُ كلامٌ صَادِقٌ ، ولي كلامٌ هنا غَيْرُ هذا الكلام القاسي ، وهو أنَّ حقيقةَ المَسْأَلةِ ، أَعْنِي مَسْأَلَةَ تَعَدُّدِ الزَّوْجاتِ ، تَقْسِيمُ النِّساءِ اللاتي فَضَلْنَ من ذَواتِ الأَزْوَاجِ ، إِمَّا لِكَثْرَةِ المَرْأَةِ بالنسبة إلى الرجُلِ ، أَوْ لِعَدَمِ رغبةِ طائِفَةٍ مِنَ الرِّجالِ في الزَّواجِ . . فَضَلْنَ وَاحْتَجْنَ إلى الاتِّصالِ بالرِّجَالِ بِدافعِ الغَرِيزَةِ الجِنْسِيَّة ، أَوْ لِكَسْبِ النَّفَقَةِ . فحقيقَةُ المَسْأَلَةِ تَقْسِيمُ هؤلاءِ النِّساءِ بَيْنَ الرِّجَالِ المُتَزَوِّجِينَ أَزْوَاجًا ثانيةً للمُحَافَظَةِ على عِفَتِهِنَّ وَعِفَّةِ الرَّاغِبينَ فِيهِنَّ بِغَيْرِ واسِطَةِ الزَّواج . فَبالنَّظَرِ إلى هَذِهِ الحَقِيقَةِ يَعُودُ مَبْدَأُ تعدُّدِ الزَّوْجَاتِ إلىٰ مَصْلَحةِ المَرْأَةِ ، وَيَخْدُمُ المحافظَةَ على كَرامَةِ الجِنْسِ ، وَالَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ تعدُّدَ الزَّوْجَاتِ ضَرْبةً قاسِيَةً على شُعوْرِ المَرْأَةِ وَكَرَامَتِها ، يَقْصِدُونَ بالمرأةِ الزَّوْجَةَ الأُولى الَّتي هِيَ بَعْضُ النِّسَاءِ[1] ، فَيَحْتَكِرُونَ كُلَّ المحافَظَةِ على الشُّعُورِ وَالكَرَامَةِ

---

(١) ويا ليت هؤلاء الذين يقومون بالاستفتاءات والاستطلاعات لرأي =

لِهَذِهِ البَعْضِ على حسابِ البَعْضِ الأُخرى التي هي عُرضَةٌ لِضَياعِ عِفَّتِها قبل المحافَظَةِ على شُعُورِها وكرامتها . . بَلْ إنَّ اجتماعَ الرَّجل بِالمرأةِ الثانيَة من طريق الاسْتِنْكَاحِ أَدْنَى إلى الاحتفاظِ بكَرَامَةِ الزَّوْجَةِ الأُولى أَيْضًا من اجتماعِهِ بالمَرْأةِ الثانِيَة من غَيْرِ ذَلِكَ الطَّريقِ ؛ وقد كُنْتُ أنا عبَّرْتُ في شِعْرٍ نَظَمْتُهُ في قديمِ الزَّمَانِ باللغة التركية في مَوْضُوعِ تعدُّدِ الزَّوْجَاتِ عن المَرْأةِ الَّتي تَحْتَمِل أن تُشارِكَها في زَوْجِها خَلِيلَةٌ ولا تَحْتَمِلُ أنْ تُشارِكَها فيه زَوْجَتُهُ الثَّانِيَةُ . . عَبَّرْتُ عَنْ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةِ بِٱمْرَأَةٍ ذاتِ قَرْنَين !

أمَّا القَوْلُ بالتَّسْوِيَةِ بين الرَّجُلِ والمرأةِ في اخْتِصاصِ كُلٍّ مِنْهُمَا بالآخَرِ بَعْدَ أَنْ كانا زَوْجًا وَزَوْجَةً ، وَالاعتراضُ على مَبْدَإِ تعدُّدِ الزَّوْجَاتِ بِلُزُوم أَنْ يَكونَ مِنْ حَقِّ المرأةِ أَنْ تَجْمَعَ بين زَوْجَيْنِ إذَا كانَ مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ أن يَجْمَعَ بين الزَّوْجَتَيْنِ كما أشارَ إِلَيْه مُؤَلِّفُ « تَحْرِيرِ المرأةِ » فَمَنْشَأُهُ عدمُ إدراكِ الفُروقِ

= النساء أن تكون هذه الاستفتاءات والاستطلاعات لرأي المرأة التي رضيت أن تكون زوجة ثانية وثالثة ورابعة ؛ هكذا يكونون أقرب إلى حقيقة الأمر والواقع ، حيث الغالب أنّه لا تجبر الزوجة الثانية على أن تكون هي الثانية ، بل تقبل ذلك بمطلق الحرية والخيار . بسام .

الكبيرةِ بين فِطْرَةِ الرَّجُلِ وَفِطْرَةِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَقَدْ بَيَّنْتُ تلك الفروق في « قولي في المرأة »[1] المنشور قبل سنين .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فرقٌ ما بَيْنَ الجِنْسَيْنِ ، إِلَّا أَنَّ الإلقاحَ الَّذِي هو أَهَمُّ مقاصِدِ الزَّواجِ يُقَيِّدُ الزَّوْجَةَ على طُولِ مُدَّةِ الحمْلِ والوَضْعِ والإِرْضاعِ ولا يُقَيِّدُ الزَّوْجَ أَصْلًا ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : إِنَّ الرَّجُلَ الوَاحِدَ يَسْتَطِيعُ أن يُنْتِجَ مِنَ الأَوْلادِ ما لا تَسْتَطِيْعُهُ مِئَةُ ٱمرأةٍ ، فَهُوَ يُعادِلُ في القيامِ بِوَظِيفَةِ الإِنْتاجِ أَكْثَرَ من مِئَةِ امرأةٍ . . . لَوْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ هذا لَكَفَىٰ فَارِقًا بين الجِنْسَيْنِ . فإنْ كانَتْ كَثْرَةُ التَّناسُلِ مما يُرْغَبُ فيه لِتَقْوِيَةِ أُمَّةٍ بإكْثار أفرادِها من أَبْناءِ الحلال ـ وَلا بُدَّ أَنْ تكونَ ـ فلا طريقَ لها سِوَى تَعدُّد الزَّوْجات[2] .

---

(١) راجع الصفحة : ١٤١ وما بعدها .

(٢) أمَّا ما قَرَأْتُهُ في مقالةٍ نَشَرَتْهُ مجلة « الاثنين » عدد ٥٤٤ بعنوان « السَّيِّدَاتُ أَوَّلًا » للأستاذ الكبير محمد فريد بك أبو حديد الذي أقرأ مقالاتِهِ في المجلات بِلَذَّةٍ ، وهو قولُهُ : « ومهما يَكُنْ مِنَ الأَمْرِ فإِنِّي أطْلُبُ التَّفْكِيرَ في المَرْأَةِ ، وجَعَلْتُ أتأمَّلُ مَكانَها من الإنْسَانِيَّةِ ، فتبيَّنَ لي في وضوحٍ لا غموضَ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ هِيَ لُبُّ الحياةِ ، وَهِي نواةُ الإِنسانيَّةِ وسِرُّها .

« فلو هَلَكَ نِصْفُ الرِّجالِ في هذا العالَمِ ـ كما يَحْدُثُ في الحروبِ =

كتابُ قاسم أَمِين يَحْتاجُ إلى تَأْليفٍ مُسْتَقِلٍّ لِلرَّدِّ على سَخَافاتِهِ ، وَإِنْ كانَ « قولي في المرأة » الذي ما كُنْتُ مُطَّلِعًا عِنْدَ تَحْرِيرِه على « تحرير » قاسم ؛ يَسُدُّ كَثِيرًا من الحاجةِ ، وَإِنَّما أَشَرْتُ هُنا إلى مواضِعَ خُروجِهِ على الأَحْكامِ المَنْصُوصِ عليها في القُرْآنِ ردًّا لِدَعْوىٰ مُسايَرَتِهِ في كتابه مَعَ كِتابِ اللهِ .

= الطاحِنَةِ التي يُعْرَضُ الرجالُ عليها منذ القِدم ـ لو هَلَكَ هؤلاء لأَمْكَنَ التعويضُ عَنْهُمْ بعد قَلِيلٍ ، ولكن لو هَلَكَ نِصْفُ النِّساءِ ـ لا قَدَّرَ اللهُ ـ لما أَمْكَنَ هذا العالَمُ أَنْ يُعَوِّضَ الإنسانيَّة إلا بعد حِقَبٍ وأَجْيالٍ » .

فلا يَكْفِي في إِثْباتِ ما يَتَضَمَّنُهُ عنوانُ المقالة ولا يدلُّ على نقصانِ أهميَّةِ الرَّجُلِ بالنِّسْبَةِ إلى المَرْأةِ ، وإِنَّما يَدُلُّ على تقابُلِ عَدَدٍ قليلٍ من الرِّجالِ بالكَثِيرِ من النساء ، والتعويضُ الَّذِي ذَكَرَهُ في صُفُوفِ الإنسانِيَّةِ عِند هلاكِ نِصْفِ الرِّجالِ يكونُ طريقُهُ بتفريقِ عِدَّةٍ من النساء سَهْمًا لِكُلِّ واحِدٍ من الرِّجال ، أي : بإحياء المبدأ الإسلامي الذي هو تعدُّدُ الزَّوْجَاتِ .

وبَدَلُ قَوْلِهِ في عَدمِ إِمكان التَّعْوِيضِ عن النساء إذا هلك نِصْفُهُنَّ إلا بعد حِقَبٍ وأجْيالَ على حِكْمَةٍ من حِكَمِ كَوْنِ الرجال مكلفين بالحروب دون النساء ، ومثلها الأعمال الشاقة التي تُضْنِي مُزاوِلَها وتُفْني ، وتكون على الأكثر في خارج البيوت ، وقد خَصَّتْها التقاليدُ الإسلاميةُ بالرِّجال ، مثل الحروب ، خلافًا للعَصْرِيِّين الذين يَدَّعُونَ كَوْنَ المَرْأةِ صالحةً لِكُلِّ ما يَصْلُحُ لَهُ الرَّجُلُ مِنَ الأَعْمالِ والوَظَائِفِ .

وَكَمْ فِيهِ مَعَ الخُرُوجِ الصَّرِيحِ على الأحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ من خروج على بَدائِهِ العُقولِ السَّلِيمَةِ في سَبيلِ اسْتِفْزَازِ السُّذَّجِ . . انْظُرْ ما ادَّعَاهُ مِنْ أَنَّ المَرْأَةَ لَيْسَتْ بِأَوْلَى مِنَ الرَّجُلِ بِتَغْطِيَةِ وَجْهِهِ ! ثُمَّ قَالَ :

« عَجبًا ! لِمَ لَمْ تُؤْمَرِ الرجالُ بالتَّبَرْقُعِ وَسَتْرِ وُجوهِهِمْ عَنْ النِّساءِ إذا خَافوا الفِتْنَةَ عَلَيْهِنَّ ؟ هَلِ ٱعْتُبِرتْ عَزِيمةُ الرَّجُلِ أَضْعَفَ مِنْ عَزِيمَةِ المرْأَةِ ، وَاعْتُبِرَ الرَّجلُ أَعْجَزَ من المرأةِ عَنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ ، وَاعْتُبِرتِ المرأةُ أَقْوى مِنْه في كُلِّ ذَلِكَ حتى أُبِيحَ للرِّجالِ أَنْ يَكْشِفُوا وُجوهَهُمْ لِأَعْيُنِ النِّسَاءِ مَهْما كانَ لَهُمْ من الحُسْنِ والجمالِ وَمُنِعَ النساءُ من كَشْفِ وُجوهِهِنَّ لأَعْيُنِ الرِّجالِ مَنْعًا مُطْلَقًا خَوْفَ أَنْ يَنْفَلِتَ زِمامُ هَوى النَّفْسِ من سُلْطَةِ عَقْلِ الرَّجُلِ ، فَيَسْقُطَ في الفِتْنَةِ بِأَيَّةِ ٱمْرَأَةٍ تَعَرَّضَتْ لَهُ مَهْما بَلَغَتْ مِنْ قُبْحِ الصورة وَبَشَاعَةِ الخَلْقِ ؟ إنْ زَعَم زاعِمٌ صِحَّةَ هذا الاعتبارِ رَأَيْنا هَذا اعْتِرافًا مِنْهُ بأَنَّ المرأةَ أَكْمَلُ اسْتِعْدَادًا مِنَ الرَّجُلِ ـ فلم تُوضَعْ حِينَئِذٍ تَحْتَ رِقِّهِ في كُلِّ حالٍ ؟ فإنْ لَمْ يَكُنْ هَذا الاعْتِبارُ صَحِيحًا ، فَلِمَ هذا التَّحَكُّمُ المَعْرُوفُ ؟ » .

يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الأقوالِ أَنَّ مُؤَلِّفَ « تحرير المرأة » غافِلٌ أَوْ

مُتَغَافِلٌ حتَّى عَنْ أَبْسَطِ ما بَيْنَ الرِّجالِ والنِّساءِ من فروقِ الفِطْرَةِ ، فهو بنىٰ كتابَهُ على أساسِ المساواةِ بين الجنسين ـ فعلى رَأْيِهِ يَلْزَمُ أن يُخافَ على الرِّجالِ أَيْضًا مِنِ ٱعْتِداءِ النِّسَاءِ على عِفَّتِهِمْ إنْ صَحَّ الخوفُ على النساءِ من اعتداءِ الرِّجالِ على عِفَّتِهِنَّ ! وَهذه المُساوَاةُ تَقْتَضِي كَوْنَهُ مُنْكِرًا حَتَّى لِصِحَّةِ ما هو المعروفُ مِن اعتبارِ الرَّجُلِ فاعلًا والمرأةِ قابلَةً في الفِعْلِ الجِنْسيِّ الحاصِلِ باشْتِراكِهِما . فَعِنْدَ وُقوعِ الشَّكْوىٰ من أَيِّ رَجُلٍ بأَنَّهُ اعْتَدَىَ علىٰ ٱمرأةٍ ، يكونُ مِنْ حَقِّ ذَلك الرَّجُلِ على رَأْيِ قاسِم أَمِين أَنْ يَدَّعي كَوْنَ الاعتداءِ عَلَيْهِ مِنْ جانِبِ المَرْأَةِ ، ويَصِحُّ شَكُّ القاضِي في تَعْيينِ المُكْرِهِ وَٱلْمُكْرَه مِنْهُما ، بناءً على أَنَّهُ كما يُخافُ الفتنةُ على النِّساءِ من الرِّجالِ تُخافُ عَلَيْهِمْ منهن[1] ! فَلِماذَا تَحْذَرُ المرأةُ الرَّجُلَ وَتَسْتَخْفي مِنْهُ ، ولا يَحْذَرُ الرَّجُلُ المرأةَ وَيَسْتَخْفي مِنْها ؟ فَالمُؤَلِّفُ لَمْ يَلْتَفِتْ في تَمْشِيَةِ مُغالطاتِهِ في الجُمَلِ المذْكُورَةِ آنِفًا إلى مَوْقِفِ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى في أيِّ نَوْعٍ من الحَيوانِ ، وتَضَمَّنَ ٱعتِراضُهُ على

---

(١) إن أردت أن تكمل الاستغراب ، وتصل به إلى القمة ، فاعلم أن قاسم أمين درس الحقوق ، ومن ثم عمل قاضيًا ! أي : أن هذه الفروق الأساسية يجب أن تكون واضحة وجلية في ذهنه . بسام .

تَخْصِيصِ الحِجابِ بِٱلْمَرْأَةِ دُونَ الرَّجُلِ من غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَ حِسانِها وَقِباحِها ، اعتراضًا على القُرْآنِ في قَوْلِهِ : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣١] . . . الآيةَ الَّتي أَوْرَدَهَا المُؤَلِّفُ أَيْضًا ، وَسَعَى في إِلْغاءِ أَحْكامِها . . ولا أَدْرِي لماذا لَمْ يَعْتَرِضْ على اخْتِصَاصِ المَرأةِ بالزِّينَةِ الَّذِي يُخِلُّ بالمُساواةِ المُدعَاةِ وَالَّذِي تَنْجُ مِنْهُ أُوربّة الوَاصِلَةُ إلى شَوْطٍ يُحَبِّذُهُ المُؤَلِّفُ في التَّسْوِيَةِ بين الرِّجَالِ وَالنِساءِ والَّذِي كان يَنْبَغِي أَنْ يُوقِظَهُ من غَفْلَتِهِ في دعوى المُساواة بين الرَّجُلِ والمَرْأَةِ ، إِنْ لَمْ يُوقِظْهُ ما هو الواقِعُ مِنْ تَحَكُّمِ الرِّجالِ على النِّساءِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ ؟ بَلْ حَسْبُ ٱنْهِماكِ ٱلْمَرْأَةِ في الزِّينَةِ واخْتِصَاصِها بِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ من غير فَرْقٍ بين حِسَانِها وَقِباحِها ، مُبْطلًا لما احْتَشَدَهُ قاسِم أمين في كتابِهِ من المُغالطاتِ لإبطال حِجابِ المَرْأَةِالمُسْلِمَةِ[1] . فَمَعْنَى تَزَيُّنِ النِّساء وتَبَرُّجِها في مَرْأَى

(١) وهناك تساؤلٌ يُظهِرُ عدمَ المساواةِ المُطْلَقَةِ بين الرَّجُلِ والمرأةِ حتى في القُدْراتِ والأَعمالِ ؛ وهو : لماذا في المباريات الرياضية ، بل في=

الرِّجالِ سَواءٌ كانوا بُعولَتُهُن أَوْ غَيْرُهُمْ ، أَنَّ فِيهِنَّ المَيْلَ الطَّبيعِيَّ إلى اسْتِمالَةِ قُلوبِ الرِّجالِ وأَنْظَارِهِم ، وَهَذا المَيْلُ إلى الاسْتِمالةِ هو جُلُّ ما عِندَهُنَّ مِنَ السَّعْيِ إلى الفِتْنَةِ المُتَوَقَّعَةِ الحصولِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ ؛ أَمَّا الحركَةُ الفِعْليَّةُ لِحُصولها فإنَّما يَقُومُ بها الرِّجالُ . فَلِهَذَا وَضَعِتِ الشَّرِيعَةُ الإسْلامِيَّةُ الحجابَ حاجِزًا دُون اسْتِمالَةِ المَرْأةِ التي يَقَعُ مِنْهَا التَّحْرِيكُ ، ثُمَّ تَقَعُ الحَرَكَةُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ، وكانَ مَنْعُ الفِتْنَةِ في أُولَى المَراحِلِ ٱلْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْها أَسْلَمَ وأسْهَلَ من مَنْعِها في المَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ .

وَانْظُرْ قولَهُ ص٨٩ ـ ٩٠ : « لَعلَّ يظنُّ المِصْريُّون أَنَّ رجالَ أُوربة مَعَ أَنَّهُمْ بَلَغُوا مِنْ كَمَالِ العَقْلِ والشُّعورِ مَبْلَغًا مَكَّنَهُمْ مِن ٱكْتِشَافِ قُوَّةِ البُخَارِ والكَهْرباء واسْتِخْدامِها على ما نُشاهِدُه بأَعْيُنِنَا ، وَأَنَّ تلك النُّفوس تخاطِرُ بحياتِهَا في طَلَبِ العِلْمِ والمعالي ، وَتُفَضِلُ الشَّرفَ على هذه الحياة . هل

= جميع الألعاب الأولمبية العالمية ، هناك فروقٌ بين الأَرْقَامِ القياسِيَّة للمرأةِ وللرَّجُلِ ، بل هذه الأرقام القياسية ما هي إلا دَليلٌ على هذا الفَرْقِ ؛ إضافةً إلى أَنَّ التفريقَ بَيْن الرجال والنساء في كافة الألعاب هو تمييزٌ حقيقيٌ دافِعُهُ الغريزة والبداهةُ الإنسانيةُ التي يتجَنَّبُها دعاةُ السُّفور ومَنْ تَبِعَهم . بسام .

يَظُنُّونَ أَنَّ تِلْكَ العقول وتِلْكَ النفوس التي نُعجَبُ بآثارها يُمْكِنُ أنْ يَغيبَ عَنْهَا مَعْرِفَةُ الوَسائِلِ لِصيانَةِ وَحِفْظِ عِفَّتِها ؟ هَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ أولئك القَوْم يتركونَ الحِجَابَ بعد تَمكُّنِهِ عِنْدَهُم لو رأَوْا خَيْرًا فِيهِ ؟ كلّا . وَإِنَّما الإفراطُ في الحجاب من الوَسائِلِ الَّتِي تُبادِرُ عُقولُ السُّذَّجِ وَتركَنُ إِلَيهَا نُفُوسُهُمْ ، وَلَكِنَّها يَمُجُّها كُلُّ عَقْلٍ مُهذَّبٍ وَكُلُّ شُعورٍ رَقِيقٍ » .

وَقَولَهُ ص٩١ : « وَقَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ الكلامَ في هذا البابِ ، أرى مِنَ الواجِبِ عَلَيَّ أَنْ أُنَبِّهَ القَارِئَ إلى أَنِّي لا أَقْصِدُ رَفْعَ الحجابِ الآنَ دَفْعَةً والنساءُ على ما هُنَّ عليه اليَوْمَ : فَإِنَّ هذا الانقلابَ رُبَّما يَنْشَأُ عنه مفاسدُ جَمَّةٌ لا يَتَأَتَّىٰ معها الوُصولُ إلى الغَرَضِ المطْلُوبِ كما هُوَ الشَّأْنُ في كُلِّ انقلابٍ فُجائِيٍّ . وَإِنَّما الَّذِي أَمِيلُ إِلَيْهِ هو إِعْدادُ البَناتِ في زَمَنِ ٱلصِّبَا إلى هَذَا التَّغْيِيرِ ، فَيُعَوَّدْنَ بالتَّدْرِيجِ على الاسْتِقلالِ وَيُودَعُ فِيهِنَّ الاعْتِقادُ بأن العِفَّةَ مَلَكَةٌ في النَّفْسِ لا ثَوْبَ يَخْتَفِي دُونَهُ الجِسْمُ » .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّ المُؤَلِّفَ ، وَإِنْ كانَ يَتظَاهَرُ في كلامِهِ بالنَّظَرِ إلى بَعْضِ القُيودِ الاحْتِرازِيَّة الَّتِي اكْتَمَنَ وراءَها أَنَّهُ يشكو من الإفْراطِ في الحِجابِ لا مِنَ الحجابِ مُطْلَقًا . . ولَكِنَّ

المَفهومَ واضِحًا من مَدْحِ الأورُبِيِّين الَّذِينَ تَرَكُوا الحجابَ ، بِكمالِ العَقْلِ وَالتَّهالُك فِي اقْتِناص الشَّرَفِ ، أنَّ مَقْصودَهُ رَفْعُ الحجابِ بِالْمَرَّةِ كما رَفَعَهُ الأوربيُّون وَبَلَغُوا منْهُ مَبْلَغَ الإفراطِ في الكَشْفِ بَدَلًا من الإفراطِ في الحِجابِ ، وَإِنْ كانَ يُريدُ الوصولَ إلى مَبْلَغِهِم بِالتَّدْرِيج وَالتَّبْكِيرِ في اخْتِلاطِ الجِنْسَيْنِ الذي هو مِنْ جُمْلَةِ ما عُنِيَ بِهِ وَحَثَّ عَلَيْهِ في كِتابِهِ . فَهَذِهِ الأسْطُرُ ٱلْمَنْقُولَةُ من كلامِهِ تَهْدِمُ كُلَّ ما في كِتابِهِ من تَظاهُرِ الاحْتِياطِ في رَفْعِ الحِجابِ والارْتِباطِ بِنُصوصِ الشَّرْعِ الإسْلاميِّ في تَقْدِيرِهِ ، فَهُوَ يَبْتَغِي اتِّخاذَ الأُورُوبِّيِّينَ فيما ٱخْتَارُوا لِنِسائِهِمْ قُدْوةً لِلْمُسْلِمِينَ . وَإِذَا كان القارىءُ يَقْتَدِي بمؤلِّفِ « تحرير المرأة » ٱلْمُقْتَدِي بِالأُوربيِّينَ وَيُصَدِّقُ رَأْيَهُ في هذه المُقَدِّماتِ التَّمْهِيدِيَّةِ ، فلا بُدَّ أَنْ يَقولَ تعقيبًا لِقَوْلِهِ : « هَلْ يَظُنُّ المِصْرِيُّونَ أَنَّ الأُوربيِّين يَتْركونَ الحِجابَ لَوْ رَأَوْا خَيْرًا فِيهِ : وَهَلْ يَكْشِفُونَ أَظْهُرَ نِسائِهِم إلى أرْدَافِهِنَّ علاوةً على مَنَاكِبِهِنَّ ونُحُورِهِنَّ وسُحُورِهِنَّ وَسِيقانِهِن إِلى أَفْخَاذِهِنَّ ، ثُمَّ يُخاصِرُونَهُنَّ ويراقِصونَهُنَّ أَزْواجًا في الحفلاتِ السَّاهِرَةِ لَوْ لَمْ يَرَوْا خَيْرًا في تلك الكُشُوفِ والمُخاصَرَةِ وَالمُراقَصَةِ ؟ . . بَلْ يَقُولَ : لَوْ كانَ في الإسْلامِ خَيْرٌ لَرآه الأوربيُّون المُمتازُون

عَلَيْنا بكمالِ العَقْلِ واكْتِشافِ الحَقائِقِ وَاخْتارُوهُ دِينًا لَهُم .

وَهذا دينُ قاسِم أمين الذي ادَّعىٰ التمسُّكَ به والتَّمشِّي مَعَهُ في تَحْرِير المرأة ؟! وَمَا أَغْلَظَ غِشاوةَ الغَفْلَةِ في أَعْيُنِ الَّذِين قالُوا تَعْنِيفًا لِما وَصَلَتْ إليه حالَةُ نِسائِنا الحاضِرَةِ مِنَ الاسْتِهتارِ وَخَلْعِ العِذارِ مع الإِزَارِ : « لَمْ يَكُنْ هذا ما قَصَدَ إليه قاسِم أمين » إنْ لَمْ يَتَكَذَّبُوا في قَوْلِهِم هذا .

أَمَّا مَا أَوْصَىٰ بِهِ الرَّجُلُ من التَّدْرِيج في رَفعِ الحِجابِ وتَعْوِيدِ ٱلْمَرأَةِ السُّفُورَ بِإعْدادِ البَنَاتِ في زَمَنِ الصِّبَا إلى هذا التَّغَيُّرِ وتَعْوِيدِهنّ على الاسْتِقْلال ، حتى يَتَأَسَّسَ فِيهنَّ الاعتقادُ بأَنَّ العِفَةَ مَلَكَةٌ في النَّفْسِ ، لا ثَوْبٌ يَخْتَفِي دُونَهُ الجِسْمُ . . فَهَذِهِ الوَصايا الواقِيَة إذا جُمِعَتْ مَعَ اتِّخاذِ الأُوربِّيِّين الَّذينَ اعْتَرَفَ لَهُمْ بأَنَّهُمْ أَعْقَلُ مِنَّا وأَرْشَدُ ، قُدْوَتَنا وَأساتِذَتَنا في مُعاشَرَةِ الرِّجالِ والنِّساءِ وَمُجالَسَتِهِمَا ثُمَّ نُظِرَ إلى احْتِواءِ مجالِسِ المُعَاشَرَةِ الأوربيَّة الَّتِي تَكُونُ في النَّتِيجَةِ نماذجَ ٱمْتِثَالٍ لنا بلا مِراءٍ ولا جِدالٍ ، مخاصِرةَ النِّساءِ الأجانِبِ وَمُراقَصَتَهُنَّ نِصْفَ عارياتٍ أَوْ أَكْثَرَ من النِّصْفِ . . . كما بَدَرَتْ بَوادِرُها اليَوْمَ ، فَدَعْوَى العِفَّةِ وَٱلنَّزَاهَةِ في هَذِهِ المُعاشَرَةِ تَذُوبُ وَتَتَبَخَّرُ مع ماءِ الحياءِ في وُجُوهِ الأَزْوَاجِ الرَّاقِصَةِ ووُجوهِ

الحُضَّارِ المُشاهِدِين الذين لا يَنْقُصُهم بُعولَةُ تلك النِّساءِ أو أقارِبُهُنَّ .

فَتِلْكَ المجالسُ والمحافِلُ وضَعَتْها أوروبة المَدنِيَّةُ الفاجِرَةُ على أَنْ تَكُونَ محافلَ تمهيدٍ وتعويدٍ للإباحة الغريزيَّةِ البَشَرِيَّةِ التي بِمُزَيِّناتها ومُغْرِياتها وطَرِيقِها المُعَبَّدَةِ الشيطانيَّة ، تتقدَّمُ الإباحَةَ البَهِيمِيَّةَ ، وتَجْعَلُ ما يتظاهَرُ بِه المتظاهِرُونَ من أحاديثَ المحافَظَةِ على العِفَّةِ وطهارَةِ الأخلاقِ في طَيَّاتِ تِلْكَ المحافِلِ ، أَكْذَبَ من حديثِ خُرافَة .

وَقدِ انْجَلَىٰ من هذا البيانِ المُستَنِدِ إلى تَصْرِيحاَتِ قاسم أمين أمورٌ :

الأَوَّلُ : أنّا مقلدو أوربة في السفور وما كُنَّا مقلدي أمَّةٍ في الحجاب كما ادَّعَى قاسِمٌ .

والثاني : أنَّ ما يظنُّهُ الغافلون من أن قاسمًا لم يَرِدْ هذا السفورَ الخَلِيعَ ، لا أساسَ له من الصِّحَّةِ .

والثالث : أَنَّ قاسِمًا والأوروبيين الذين قَدَّمَهُمْ لنا قُدْوةً ، لَيْسوا بغَافِلِين عَنْ أَنَّ السُّفُورَ وما يلابِسُهُ من الملامِساتِ بين الجنْسَيْنِ لا مناص من تطوُّرِه وتأدِّيهِ إلى هَدْمِ صَرْحِ العِفَّةِ والنَّزاهَةِ . . بَلْ إِنَّهُمْ يَهْدفونَ بتأسيسِ هذه الحياةِ المختلِطَةِ

إلى التخلُّصِ من تلك المبادىءِ القديمةِ التي باعدتْ بين الجنسَيْن لا مناص من تطوُّرِه وتأدِّيهِ إلى هَدْمِ صَرْحِ ٱلعِفَّةِ وَٱلنَّزاهَةِ . . بل إِنَّهُمْ يَهْدِفونَ بتأسيسِ هذه الحياةِ ٱلْمختَلِطَةِ إِلَى التَّخلُّصِ من تلك المبادىءِ القَديمةِ ٱلَّتِي باعَدَتْ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ وحالَتْ دون استفادَةِ كُلٍّ مِنْهُما بالآخَرِ باسْمِ الدِّيَانَةِ ، والدِّينُ بَراءٌ من هذه الحيلولة ، كما نَصَّ قاسِمٌ فيما سَبَقَ على كَوْنِ الدِّينِ براءٌ مِنْ وَضْعِ الحِجابِ وَرَفْضِ السُّفُورِ ، وَقَدْ حَكَيْناهُ فِيمَا سَبَقَ . . وكان مَعْنَى كَوْنِ الدِّينِ براءٌ مِنْ وَضْعِ الحاجِزِ بين الجنسين أَنَّهُ بَراءٌ من التزامِ العِفَّةِ والنزاهةِ لما عَرَفْتُم من وضوحِ الطَّريقِ بين السُّفورِ الخليعِ والحياة المختلِطةِ وبين انْهِيارِ صَرْح العِفَّةِ والنَّزاهة . ومَعْنَى المعاني الَّتي يَعْنِيها أعداءُ الحِجابِ والعِفَّةِ وَالنَّزاهَةِ من براءَةِ الدِّين عن التزامِهَا مَعَ وُضوحِ هَذا الالتزامِ للبصائرِ والأبصارِ ، أنَّ الدِّينَ لا يُقامُ لَهُ ولعقائِدِهِ القديمة وَزْنٌ عند أصحاب العقولِ الجَديدَةِ . فَلِهَذا يراني القَارِىءُ على طُولِ هذا الكتاب الذي ٱنْتَهَيْتُ هُنا من أَوَّل أجزائِهِ بعونِ الله وتوفيقه[1] ، أَبْذُلُ كُلَّ

(١) [المقصود كتابه « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين »] .

جَهْدٍ في تَثْبيتِ عقائِدِ الإسلام وأعدُّه أَهَمَّ أُسُسِ الإصلاحِ وأقْدَمَها ، ولله الأمرُ وَالحَمْدُ ، مِنْ قَبْلُ ومن بَعْدُ . انتهى النقل عن « موقف العقل » .

* * *

هذا الكتاب :

هو نص مقالتين نشرتا في صحيفة « الفتح » السنة التاسعة ، العدد ٤٢٠ ، الصادر في ٣٠ شهر رجب سنة ١٣٥٣هـ = ٨ تشرين الآخر/ نوفمبر ١٩٣٤م ، ثم نشرتا معًا ككتاب سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م في المطبعة السلفية بالقاهرة .

تمثّل هاتان المقالتان وجهة نظر المدافعين عن أحكام تعدّد الزوجات والمنادين بالحجاب ، وهي وجهة نظر جديرة بالبحث ، خاصَّةً أن الطرفَ الآخرَ يعرضُ ما يريد إلى الآن إنْ مِنْ حيث العملُ والفعلُ أَوْ مِنْ حيث القولُ والكلام ؛ إذ ما زالت هاتان المسألتان تشغلان الحياة في العالم العربي والإسلامي .

والكاتب الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى ينطلق

في ما يكتبه من عقيدةٍ إسلاميةٍ ، ورؤيةٍ واضحةٍ ، وعزةٍ وكرامةٍ وشخصيةٍ قويةٍ ، ويقول ما يقول بعد تجربةٍ مريرةٍ عاناها من خلال ما رآه في تركية الكمالية ، فهو يحذِّرُ ويُنَبِّهُ بكل صدقٍ وإخلاصٍ الظاهرَيْن من خلال كلامه . في جميع الأحوال ، فالكتاب وجهة نظر إسلامية حول قضيتي تعدّد الزوجات والسفور ؛ جديرةٌ بالقراءة والاطلاع كي يُعرفَ رأي المسلمين في هاتين القضيتين .

ولمصطفى صبري رحمه الله رأي في كتاب قاسم أمين ، أوردَهُ متفرِّقاً في كتابه : « موقف العقل والعلم والعالَم من رَبِّ العالمين وعباده المرسلين » ، جمعتُهُ في ما سبق من هذه المقدَّمة .

* * *

هذه الطبعة :

هي إعادة لما نُشِرَ عام ١٣٥٤هـ، بزيادة ضبطٍ وتفضيل .

وقدَّمْتُ له هذه المقدَّمةَ ، مُورِداً فيها أَقْوالٍ أُخْرى لمصطفى صبري في المرأةِ أَوْرَدَها في كِتابِهِ « موقف العقل

والعلم والعالَم من رب العالمين وعباده المرسلين » .

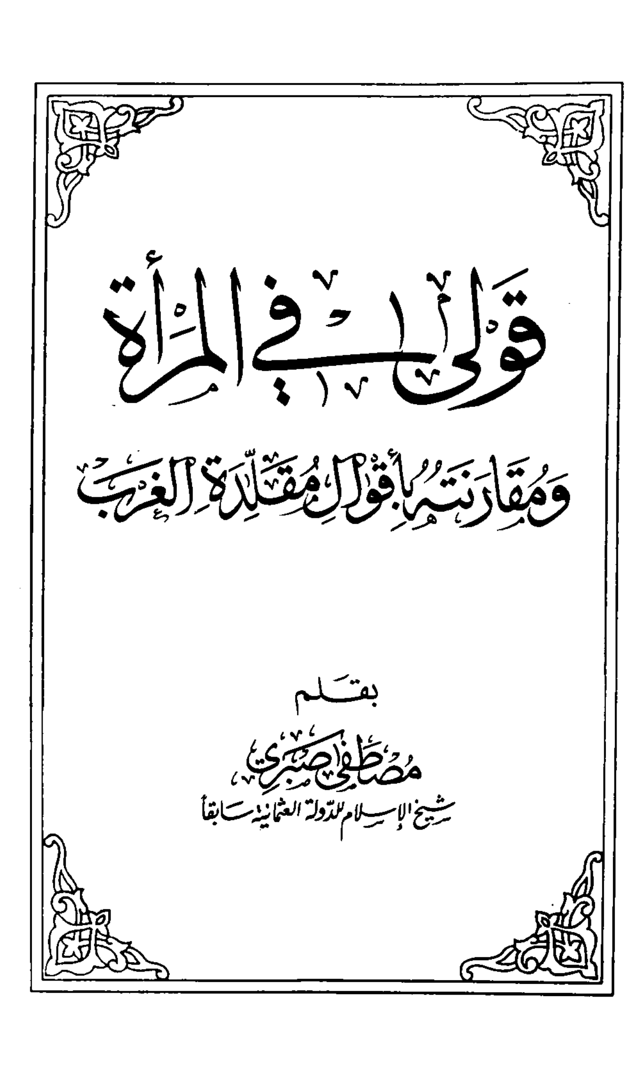
والجامع بين موضوع تعدُّدِ الزَّوْجات والسُّفُور ، أنَّ إباحةَ السُّفورِ للنِّساءِ مع تحريم التعدُّد على الرِّجالِ يُؤَدِّي إلى مفاسِدَ عظيمةٍ ، بعكس فَرْضِ الحجابِ على النِّساءِ وإباحَةِ التعدُّدِ للرِّجالِ يحافِظُ على سلامَةِ المجْتمعِ وصلاحِهِ .

رَحِمَ اللهَ العلاَّمة مصطفى صبري شَيْخ الإسلام في الدَّولَةِ ٱلعُثمانِيَّة ، وجزاه الله كُلَّ خَيْر .

هـذا ، وأُسَجِّلُ شكـري لـلأخ العـزيـز الأستـاذ حسـن السماحي سويدان ، الذي طبع هذا الكتاب سنة ١٩٩٣م ؛ لنصائحه واقتراحاته ، حيث كان لها الأثرُ الكبيرُ في الرُّقِيِّ بهذه الطبعةِ نحو الأَفْضلِ ، فجزاهُ الله خَيْراً .

وأسأَلُه تَعالى التَّوفيقَ وَالإكرامَ ، والنَّفْعَ على الدوام ، وأن يَجْعلَ أعمالَنا مَقْبولَةً ، خالصَةً لله تعالى ، وأن يُيَسِّرَنا للخيْرِ ، ويستعملنا صالحاً ، ويَرْحَمْنا وَيَغْفِرَ لَنَا وَلِوَالِدِينا وَلِذُرِّيَّتِنَا ، وَلِكُلِّ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْناَ ، وَآخِرُ دَعْوَاناَ أَنِ ٱلحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين .

بسّام عبد الوهّاب الجابي



قولي في المرأة

ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب

بقلم

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد ؛ فقد كانت مسألة المرأة قبل زمان غير بعيد أعظمَ فارقٍ بين الشرق والغرب والإسلام وغيره في المجتمع ، حتى إنَّه لم يكنْ يخطرُ بالبال أنْ يجدَ الغربُ في مرأته المكشوفة مُقَلِّدًا من الشرق المسلم المشهور بِغيرَتِه على نسائه مهما قُلِّد في غيرها ، لكنَّ الأسفَ أنَّ غيرتَهُ على نسائه زالت مع غيرَتِه على إسلامه ، وربَّما كان زوال الأُولى جزاءً من الله تعالى في الدنيا على زوال الثانية[١] .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « لِتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعاً بِذِراعٍ ؛ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ : « فَمَنْ ؟! » رواه البخاري ، رقم : ٣٤٥٦ و٧٣٢٠ ؛ ومسلم ، رقم : ٢٦٦٩ ؛ والإمام أحمد في « مسنده » ، =

= رقم: ١١٣٩١ و١١٤٣٣ و١١٤٨٧؛ وفي « مستدرك الحاكم»، رقم: ٨٤٠٤ ، زيادة: «حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جامَعَ ٱمْرَأَتَهُ بِٱلطَّرِيقِ لفعلتموه» .
وفي رواية البَزَّازِ زيادة : « حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم جَامَعَ أُمَّهُ لَفَعَلْتُمْ » .
« مجمع الزوائد » رقم : ١٢١٠٥ .
هكذا وَصَفَ رسولُ الله ﷺ تَبَعِيَّتَنا وتقليدَنا للغرب .
كتب الدكتور محمد حرب أستاذ التاريخ التركي بجامعة عين شمس بالقاهرة والمتخصص في الشؤون التركية في مقالٍ له تُرجم إلى التركية ، وصدر في آب/آغسطس ١٩٩١م تحت عنوان « كيف أفْسَدَ الغربُ شبابَ المُسْلِمين ؟ » يقولُ : قال أحدُ المتَحدِّثين في الهيئة العامة لاتحاد الكنائس في فرانكفورت : المرأة المسلمة تشغلُ في الإسلام مكانةً هامَّةً ، وعندها سَلَّمَتِ المرأة المسلمة قَلْبَها وعَقْلَها وجَسَدَها للإسلام في ذلك الوقت تمكَّنَ المُسْلِمون من إقامَةِ دُوَلِهم الكُبْرى في التاريخ ، أمّا عِنْدَما ذَهَبَتِ المَرْأةُ المُسْلِمَةُ إلى ٱلدُّنْيا وإلى نَفْسِها أَصْبَحَتِ الدُّولُ الإسلامية خاضعَةً لِلْغَرْبِ خضوعَ العبيدِ .
المرأة المسلمة شكَّلَتْ في الماضِي ٱلْخَطرَ الأكْبَرَ ضد الغَرْب ، وَسَتكُونُ كذلك عندما تعودُ إلى الإسْلام مَرَّةً أُخرَى ، وطريقُ القَضاءِ على المُسْلِمين لا بُدَّ أن يَمُرَّ بالمرأةِ المُسْلِمَةِ .
قال جياني دو ميتشيليس Geanni De Michelis وزير خارجية إيطالية في ١٩/ ١٢/ ١٩٨٩م ، وكان وقتها رئيساً للمجلس الأوروبي : إنّ الشبابَ المُسْلِمَ في شمال أفريقية وخاصَّةً في الجزائر يتَّجِهُ بسرعةٍ=

= ملْحوظةٍ إلى السلوكيّاتِ الإسلامية ، وإلى أخلاقِ الإسلام ، وإلى الحجاب ، وإلى الصلاةِ ، وهذا يعني أن أوروبة محاصرةٌ إسلامياً من الجنوب ، ولا بدَّ من إبْطالِ مفْعُولِ النهضة الإسلامية في شمال أفريقية بتوجيهِ الشباب هناك إلى وجهات غير دينية ، وتشجيع هذا الشباب على تبنّي النَّمَطِ الغربيِّ في السلوك والحياة عن طُرُقٍ عِدَّةٍ ، أهمُّها : المسلسلات التلفزيونية ، ولا بدَّ من تَخْصِيصِ ثلاثة عشر مليار دولار لهذا المشروع .

ومن التقليد لأوروبة مسابقات ملكات الجمال ، ففي آخر مقالٍ للدكتور محمد حرب بعنوان « الوعي الإسلامي في تركية » جاءَ فيه :

« الغرب ينصّب تركيةً ملكةً لجمال العالم » :

في رسالة من أحد شخصيات قونية البلدة التركية المتديّنة ، والتي يرقدُ فيها مولانا جلال الدين الرومي وأستاذه شمس تبريزي نُشِرَتْ في ١٩/ ١٢/ ١٩٨٩م جاء فيها أن جريدة « جمهوريت » كُبْرى ٱلصُّحُفِ التركية الداعية للتغريب في تركية نظّمت عام ١٩٣٢م مسابقةً لاختيارِ ملكة جمال تركيَّة، نَجَحَتْ فيها فتاةٌ تركيةٌ تدعى: « كريمان خالص ».

ذهبت كريمان إلى بلجيكة للاشتراك في المسابقة الدولية لاختيار ملكة جمال العالم ، وبدون الرجوع إلى لجنة التحكيم ، تقدّمَ رئيس اللجنة في حركة مفاجئة بعد استعراض كل ملكات جمال العالم إلى المنصة ، ليقرِّر نجاحَ وفوزَ « كريمان خالص » بلقب ملكة جمال =

= العالم التي اشتركت فيها « ٢٨ » دولة . قال رئيس اللجنة في كلمته : أيها السادة أعضاء اللجنة ! إن أوروبة كلُّها تحتفل اليوم بانتصار النصرانية ، لقد انتهى الإسلام الذي ظلَّ يسيطر على العالم منذ ١٤٠٠ سنة . إن « كريمان خالص » ملكة جمال تركية تمثِّلُ أمامَنا المرأةَ المسْلِمَةَ ، تلك المرأة التي لم تكُنْ تخرجُ إلى الشارع ، وإنَّما كانَتْ ترى الناسَ من وراء المَشْربيَّاتِ ، ها هي « كريمان خالص » حفيدةُ هذه المرأةِ المسْلِمَةِ المحافِظَةِ بيننا الآن بالمايُوه ، ولا بدَّ من الاعتراف بأنَّ هذه الفتاة هي تاجُ انتصارِنا ، سنختارُها ملكةَ جمالِ العالم ، وَقَدْ يكونُ بَيْنَ المشْتَرِكاتِ مَنْ هِيَ أَجْمَلُ مِنها، وَقَدْ لَا يَكُونُ ، هذا لا يُضِيرُنا ، إنَّنا في هذا العالم بالذات لا نختار ملكةَ جمال للعالم بقَدْرِ ما نَحْتَفِلُ بانتصار النصرانية على الإسلام .

ذاتَ يَوْمٍ من أيّام التاريخ انزعج السلطان العثماني سليمان القانوني من فَنِّ الرَّقْصِ الذي ظهر في فرنسة عندما جاورتِ الدولةُ العثمانيةُ حدودَ فرنسة ، فتَدَخَّلَ السلطانُ لإيقافِ الرقْصِ خَشْيَةَ أن يَسْرِي في بلاده.

ها هي حَفِيدَةُ السُّلطان العثماني المُسْلِم تَقِفُ بَيْنَنا ، ولا تَرْتدي غير المايوه ، تطلبُ مِنّا أن نُعْجَبَ بها ، ونحنُ نعلِنُ لها بالتالي أنّنا أُعْجِبْنا بها ، وقد انْسَاقَتْ إليْنا ، إنَّنا اليوم نختارُ ملكةَ جمال تركية ملكةَ جمال العالم مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حَسْبَ ما نُرِيدُ ، فَلْتُرفَعَ الأقداحُ تكريماً لانتصار أوروبة . (محمد حرب ، خواطر عائد من إستانبول ، جريدة الأحرار ،

= ٥/ ١١/ ١٩٩٦م مقال بعنوان : « الوعي الإسلامي في تركية ») .
كانت مجلة (سبيل الإرشاد) قد نشرت في عددها الصادر في ١٨/ ٢/ ١٩١٩م : نرى أنّ (الدونمة) يسعون إلى هتك حِجَابِ المَرْأةِ المُسْلِمَةِ ، فَيَقُولُ الكاتِبُ مؤيِّداً المرأةَ المُسْلِمَةَ التي تحافِظُ على شَرَفِها معارِضاً الأفكار المخرّبة : « أيتها المرأة المسلمة ! ما أكثر أعداءك ، إنّ عفتَكِ وعصمتَك قد أصبحتا شوكةً في أعين فاقدي هاتين النعمتين ، لذلك فهم لا يتوقفون لحظةً عن تهجمهم عليك ، بارك الله فيك ، فما أمْتَنُك من إنسانة . ليتك عرفتِ كم من المؤامرات يدبّرون لِهَدْمِكِ ، وكم من القُوى والأموال يبذلونها ، لن يستطيعوا مغالبةَ الإسلام طالما اعتصمتِ برداءِ عفّتك ، وبقيتِ مثالاً حيّاً لشعائر الإسلام ، إنّهم يريدون إزالةَ الحياء من وَجْهِكِ ، وتمزيقَ حِجابِكِ ، وقَطْعَ الرّوابط بَيْنَكِ وبين أهْلِكِ ، لذلك فهم يُلينونَ لك بالقَوْل ، يَبْحَثون عن المدنية والذوق والجمال ، ويضعون لك أمثلة من القرن العشرين ، فَمِنْ هؤلاء مَنْ هو فاقدٌ لِدِينِهِ ، ومنهم من هو مفتقِرٌ للعِفَّةِ والحَياءِ ، ومنهم من تَقَطَّعَتْ صِلاتُه بأهْلِهِ وأسْرَتِهِ . من الطبيعي أن يناصبوك هؤلاء العداء ، أنَّهُمْ غرباءُ عن مجْتَمَعِكِ ، يختلُّ توازنُهُمْ بصُمودِكِ ، فَيُفَتِّشونَ عن سُبُلِ الراحة مِنْكِ ، ولن يَتَأتّى لهم هذا إلا بجَعْلِكِ تَتَشَبَّهِينَ بِهِمْ .
أيتها المرأة المسلمة المِسْكِينة ! تُخْطِئينَ وَتَظُنِّينَ أنَّ كُلَّ من يَحْمِلُ اسماً مُسْلماً هو مسلم ، فما أكْثَرَ المنافِقين منهم وما أكْثَرَ اللامنتمين ،

= وما أكْثَرَ مَنْ يَحْمِلُ في طَيَّاتِ قَلْبِهِ ديناً آخر ، إنَّهُمْ يُظهرونَ الإسلامَ حتى يَضْمَنُوا بقاءهم بَيْنَ المُسْلِمِين ، ويحصلوا به على مكاسِبَ ضخمةٍ ، يلَقِّبُون أولادهُمْ ألقاباً إسلاميةً ، ولَيْسَت لهم أيّةَ علاقة بالإسلامِ ، بل ملأت قلوبَهُمُ الأحقادُ ، يتَّخِذُون كافةَ التدابير الخفيَّة لِهدم الشعائر الإسلامية . فإن وجدوا فرصةً سانحةً انتقموا من الإسلامِ ، وفعلوا كلَّ شَيْءٍ من شأنِهِ إفساد الحياة الاجتماعية الإسلامية . انظر مصطفى طوران ، مرجع سابق ، ص٤٤ ـ ٤٥ » .

وقد جاء في مجلة « سبيل الرشاد » التي قامت بالرد على الدعوة للاختلاط وعلى دعوة المرأة للسفور في أوائل القرن الماضي في تركية ، في مقالٍ بعنوان : « التدريس المختلط في الجامعة » في عددها رقم ٤٠٦ الصادر بتاريخ ٣٠/ ٤/ ١٩١٩م . جاء فيه : إن الذين شهدوا منافع لهم في التهجم على دين هذا البلد ومقدَّراتِهِ ، جعلوا هدفهم في الأعوام الأخيرة النيلَ من حجاب المرأة المسلمة ، لإحداث فوضى اجتماعية في هذا المجتمع . ففي السنوات الست الأخيرة عمل أناس مجهولو المذهب ، منافقون ، ليست لهم أية علاقة بالإسلام ، على إظهار أنفسهم بمظهر المناصر للحق ، بغية إحداث تغيير عائلي في البلاد ، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، وبذلوا كلَّ جهدٍ ممكن في سبيل الإسراع في خراب هذا الوطن .

راجع كتاب « العلاقات التركية اليهودية » للدكتورة هدى درويش ١/ ١٢٤ ـ ١٢٧ .

ثُمَّ إنَّ مَنْ نظرَ إلى مظاهر الغَرْبِ يَحْسَبُ أهلَه يعبدون المرأة ويجلُّونها بهذا الحدّ ، ومنْ هذه المظاهر اعتُبِرتِ المرأةُ الشرقيةُ مقهورةً منكودةَ الحظّ ، لكن الحقيقة أنَّ الغربيين ومقلِّدتَهم منا يعبدون هوى أنفسِهم في عبادة المرأة ، وما إجلالُ الرجل العَصْريّ المرأةَ وتقديمُه إيّاها على نَفْسِه إلا نوعًا من الضِّحك على ذَقْنِها لمخادَعَتها وجعلها أداة اللهو واللَّعِب ، كما أن إخراجها من خُدُورِها وستُورِها معناه إنْزالُها من عرشِها المنيع إلى أسواق الابتذال ، حتَّى إنَّ اشتراكها في أعمال الرجال الذي هو معدودٌ من انتصارها وفوزِها بالحقوق التي تخوِّلُها إيّاها مساواتُها المُدَّعَى لها بالرجل ، ما هو إلا احتمالُها لأعباءِ الحياةِ القاسِيَةِ التي لم يَقُم رجالُ الشرق بها بعدُ حقَّ القيام فضلاً عن نسائِهِ ، مع أنَّ احتمالَها لتلك الأعباء

= وأضِيفُ أنه في نهاية عام ٢٠٠٢م تُوِّجَتْ ملكة جمال تركية عذراء أكين Azra Akin على عرش جمال نساء العالم، بعد أنْ أودتِ الاحتجاجاتُ على إقامة هذه المسابقة في نَيْجيريَة بحياة نحو ٢٢٠ شخصاً ، لكن مع ذلك أَصَرَّتِ المؤسّسةُ المُنَظِّمَةُ لهذه المسابقة على إتمامها . ومن الجدير بالذكر أنَّ المنظّم لهذه المسابقة مؤسسة إيريك مورلي Eric Morley .

يقَعُ بطريق مزاحَمتِها لِلرَّجُلِ ؛ لا مساعدتِهِ فيها ، فَعِنْدَئِذٍ إنْ لَمْ تُقْهَرِ المرأةُ في هذه المزاحمة فلا جَرَمَ أنَّ عدمَ قهرِها يكون مبنيًّا على مسامحة الرجال لها مقابل استفادتهم من أنوثَتِها ، وفيه ابتذال المرأة .

وقد كانت هي في الشَّرْقِ خيرَ عَوْنٍ للرجل ، تساعدُه في داخل بَيتِه ، وتشترك معه في أعمال الحياة ، وهي ملكةُ دَوْلَةِ العَائِلَة زوجةً أو أمًا . وكلامنا في جنس المرأة الشرقية المسلمة الحائزة لحقوقها ، فلا يُعْتَرَضُ علينا ببعض الزوجات المنكودة الحَظّ من أزواجٍ ظالمين قساةِ المعاملة مع أهليهم ، فالواجب إصلاح حالاتهنّ في دائرة المدنية الإسلامية ، وليس الشرعُ بعاجزٍ عن تأديب الظَّلَمَةِ مهما كانت صفاتهم .

فالمرأةُ الضعيفةُ في القِوَى الجسمانية الضعفُ الذي هو مُعْتَرَفٌ به في قول أفلاطون الحكيم عن مساواتها بالرجل[١] ، ذلك القول القديم الذي تمسَّكَ به أنصار المرأة الحديثة ، وسيأتي ذكرُه في مقالة السُّفُور والاحتجاب[٢] ، إنْ كانت

---

(١) بل عملياً كما ذكرتُ في هامش صفحة : ١١٠ . بسام .

(٢) الصفحة : ١٥٩ وما بعدها .

مضطهدةً عند كَوْنِها زميلةَ الحياة للرجلِ ومساعِدَتَهُ في بيته كما هو موقف المرأة الشرقية المسلمة ، فَلأَنْ تكونَ مضطهدةً ومقهورةً عند كونها مزاحِمَتَه في أعمال الحياة وطُرِق المعيشة أولى ، وليس لها موقفٌ حرٌّ ممتازٌ خالٍ عن الاضطهاد إلا موقفُ كونِها أداةَ اللَّهو واللَّعِب للرجال ، فالذين يعملون لحرِّيَّةِ المرأة الشرقية كأختها الغربية يشوبون موقف مزاحمتها بهذا الموقف الأخير المُزْرِي ، فيزعمون لها السلامةَ من الاضطهاد في موقف المرأة أيضًا ، كما أنَّ السفوريين يحاولون أنْ يُكْسِبوا المرأةَ مكانةً بأن يكونَ الرجالُ الأجانبُ عنها ، الذين يرونها ويخالطونها ، مزاحمين لزَوْجِها عليها .

وفي مَذْهَبِنا أن ضَعفَ المرأةِ في القوَّة الجسمانية المعترَف به عند معارضينا مع طماعِيَةِ الرجال فيها طَبْعًا وعدم استغنائها عنهم ، ثم بقاء الأثر فيها من الاقتران بالرجل ؛ كلُّ ذلك يَمْنَعُ استقلالَها في الحياة ، ويُحَتِّمُ عليها أنْ لا تعيش فَرْدًا ، وأن لا تكون عُرضَةً للرجال ، وأن تَنْحَصِر لواحدٍ منهم ، وتتجَنَّب كلَّ ما يُخِلُّ بهذا الانحصار من قريب أو بعيدٍ .

هذا إجمال ما تحتويه المقالتان الآتيتان في مبدأ تعدُّدِ

الزوجات وفي السفور والاحتجاب ، المسألتين اللتين لا يزال يدور حولَيْهما النقاش بين الفئة المتمسِّكِين بدينهم وتقاليدهم، وبين الفئة العائشين بأبدانهم في الشرق وقلوبهم في الغرب ، وسيرى القارئ بعد ما أحاط بالمقالتين عِلْمًا ؛ أنَّ العَقل والنَّقْلَ والفضيلة كلَّها تؤيد الفئة الأولى ، إلّا أن الفئة الثانية على أبصارهم غشاوة من الشهوات ، وفي أعناقهم أغلال التقليد القائلة : إنا وجدنا قدوتنا وقبلتنا الغربيين على أمَّةٍ ، وإنا على آثارهم مُهْتَدُون .

فلا تحسبوا أن الأوَّلين مقلِّدون لآبائهم ، وقائلون : إنا وجَدْنا آبائنا على أمَّة . . الخ ، والآخرين مستدلّون ماشون في طريقة العقل والتفكير ولو قالوا لكان لهم بعض المعذرة ، حيث إنَّ تقليد الآباء أقرب إلى الرشد من تقليد الأجانب ، مع أن تقليدهم أَعْمَى خالصُ العَمى ، في حين أنَّ تقليد الأولين له من العقل والفضيلة نصيران .

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقًا

مبدأ تعدد الزوجات

معلومٌ أنَّ مسألة المرأةِ لا زالت أعظم المسائل الاجتماعية في الأعْصُرِ الحديثة ، وأكبر ما تفْترق به الحضارة الغربية عن حضارة الإسلام ؛ ولا زال تعدُّد الزوجات أوّل ما يُنتقد به الإسلام ، وأشهر نواحي الضَّعف الذي يُلْتاثُ به في نظر الغربيين ومن ينظرون الأمور بمنظارهم من المسلمين ؛ حتى إذا عَنَّ لبعضهم الاعتذار عن حُكْم دينهم فيه ، كانت غايةُ ما يَتَمَسَّكُ به أن تَعدُّدَ الزوجات ليست بضروريّ في الإسلام ، وأن جوازَه محاطٌ بشروط تجعله مستحيل الوقوع ، ويفوتُه أنَّ الاعتراف بجواز تَعَدُّدِ الزوجات مبدئيًا ضروريٌّ للمسلم ، وأن شروطَهُ لا تجعله مستحيلًا ، وإلا كان تشريعُهُ عَبَثًا ولَغْوًا ، وكان فِعْلُ الصحابة العاملين به معدودًا من طَلَبِ المُسْتَحيل .

وقد كنتُ أشْبَعْتُ الكلام عن هذه المسألة في كتابي الذي أَلَّفْتُه قبل ثلاث عشرة سنة باللغة التركية[1] ، ولما كان البحثُ

(١) المقصود كتابه : « ديني مجدّدلر » أي : مُجَدِّدو الدين ؛ ولم يترجم هذا الكتاب للعربية . =

والنظرُ فيها من بعضِ الكاتبين مستأنَفًا في الأيام الأخيرة على صفحات بعض الجرائد ، أردتُ أنْ أقول قولي فيه .

إنّ ما يرْمي إليه الإسلام في معاملة النكاح والزواج هو النسل وقضاء الحاجة البشرية إلى المناسبات الجنسية بشَكْلٍ مشروعٍ . ولا تَبْتَعِدُ جميعُ الأديان وقوانين الحضارة في مَرْماها عن هاتين الغايتين ، فَيُفْهَمُ أنّ الدين والعقل مجمعان على مراجعة الشكل المشروع في المناسبات بدلًا من غير مَشْروعها ، ومتى دَعَتْ حاجةُ أي رَجُلٍ إلى الاقتران بأية امرأة فلا سبيل إليه عند العقل والنقل إلا سبيله المشروع ، أي : الزواج . وما دام في الدنيا رجلٌ لا يكتفي بما عنده من زوجة وحيدة ويبحث بعينه ورِجْلِه عمَّن عداها ، فالاعترافُ بمبدأ تعدُّد الزوجات ضروريٌ ، إلّا لمَنْ يشذّ عن طريق العقل والنقل ويبيح الزِّنَا ، أو لمن يغضُّ بصرَهُ عن الحقائقِ وينكرُ وجودَ الزُّناة في الدنيا بين الرجال المتزوِّجين ، أو لِمَنْ يتقاصر حِجَاهُ عن إدراك التلازم بين منع تعدّد الزوجات وإباحة الزنا لِبَعْضِ الرجال .

فهذا القَدْرُ من الكلام يكْفي في تغليب حُجَّة القائلين بمبدأ تعدُّدِ الزوجات وإدحاضِ حُجَجِ المعارضين من دون

حاجة إلى إطالة النقاش ، وإني لا أبْرَحُ على طول طريق المناظرة أتعلَّقُ بالمقارنة بين النّكاح والسِّفاح ، وأكتفي بترجيح تعدّد الزوجات للذين تسوقُهم شهواتُهم إلى الاستمتاع بأيّ امرأة لا يحلُّ لهم ذلك في نظر الشرع ، سواءٌ كان استمتاعُهم بوِقاعِها أو بتَقْبيلها أو مخاصَرَتِها أو النظرِ إليها ، وأخَصُّ هؤلاء اللصوص ، لصوص الأعراض ، بوضعهم موضع الخلاف بين أنصار تعدُّد الزوجات وأعدائه . فالإسلام عفيفٌ ، لا يبيح استمتاع الرجال بغير نسائهم اللاتي يوجد بينهم وبينهن عقد شرعي ، فإذا شعروا بحاجة إلى ذلك يجب عليهم أن يأتوه من بابه ، ويتوسَّلوا إليه بعقود ثانِيَةٍ ، فيعلمُ الشرع ويعلمُ الناسُ أنَّ هذه المرأة زوجةٌ ثانيةٌ لهذا الرجل ، ولا يرضى الإسلام أن يَدَعَ علاقات الرجال بالنساء سَرِقات ، ويدَعهن صَيْدًا لِمَنْ قَنَصَ أو مَلْعَبَةً للفُسَّاق .

زَوْجَة ثانية ! نعم ، هذا الاسم يَثْقُلُ على ألسنة المفتونين المُسْتَبْدِلين بعقلياتهم وآدابهم الاجتماعية عقلِيّات الغربِيّين وآدابهم ، المشترين الضلالَة بالهدى . ولَيْتَ شِعْرِي ! كيف يجدونَهُ عند المقارنة باسْم المَزْنِيِّ بها ، التي يُعَبِّرُون عنها بالخَليلة سَتْرًا لِمَعَابَتها وتخفيفًا لفضاحتها ؟! ولا يَعْتَرِفُ

الشرعُ ولا القانونُ بهذه الخِلَّة ، ولا يُجهَرُ بها في المجتمع ، وإنَّما يتهامَسُ بها الأخِلّاء ـ أي : الزُنَاة ـ فيما بينهم .

ولقد دهشتُ عندما قَرَأْتُ قولَ أحد الكاتبين بهذا الصَّدَدِ : « لو سَألْنا أيَّ امرأةٍ : هل تُفَضِّل أنْ ترى زَوْجها يتزوَّج من امرأةٍ أخرى أو يخادنها فقط ؟ لقالت : بل أفضِّلُ أن يخادِنَ ألف امرأة غيري ، لأنّه قد يعود إلى صوابِهِ فيعود إليّ وحدي » !!

وأنا أقول : ماذا عَسى أن يكونَ قَدْرُ امرأةٍ تُفَضِّلُ أن تكون زوجةَ رَجُلٍ يخادِنُ ألفَ امرأة على كَوْنها الزوجة الأولى لرجلٍ عفيفٍ ؟ وماذا يكون قيمَةُ قَولِ تلك المرأة الساقِطَة الحسِّ والشعور بهذه الدرجة وقيمة تقديرها الرجال ، وهي لا تقدِّرُ العِفّة قَدْرَهَا ؟ أفَمِثْل هذه المرأة يَنْصِبُها الكاتِبُ حَكَمًا ويجعل قولَها الفَصْلَ في مسألة هامةٍ اجتماعية كهذه ؟! وهل يمكن أن يقولَ أحدٌ من الرجال : لا أمنع امرأتي أنْ تخادِنَ ألفَ رجلٍ ، فحسبي أنّها قد تعود إلى صوابها وتعود إليّ ؟! .

وإني قد كنتُ قبل خمس وعشرين سنة أنشأت قصيدةً تركيةً موضوعُها تحاورُ امرأتين ، ونَشَرتُها في صحف الآسِتانة تحدِّيًا لمقلِّدي الغَرْب المُسْتَهْجِنين لمبدأ تعدُّد الزوجات ،

فعبَّرْتُ فيها ـ بلسانِ إحدى المتحاورتين ـ عن المرأة التي يَشُقُّ عليها أن يتزوَّجَ بَعْلُها بامرأةٍ ثانية فلا ترضاه ، ولا يَشُقُّ عليها أن يخادِنَ النساء فترضاه ؛ بامرأةٍ ذات قَرْنَين .

ولو سَأَلْتُ الكاتبَ الذي يَصِفُ في أوَّلِ مقالته أعداء تعدُّدِ الزوجات بأنهم حاملو لواء المدنية : هل فيهم هذه المرأة التي يَحكِي عنها أنها تبيح لزوجها أن يخادن ألف امرأة فتحمل ألفَ قرن ؟! .

ومَنشَأُ استسهال الكاتِب تقويلَ أيّ امرأة بذاك القول تَفَشِّي الفِسْق بين الرجال ، حتى عَمَّتْ بَلِيَّتُهُ ، فهانَ على النساء اختيار أزواجِهن من الفُسَّاق ، وهان على الرجال أن يُحَبِّذُوا هذا الاختيار .

والكاتِبُ يَعُدُّ الرجلَ الذي يُعْقِبُ أولادًا من زَوْجَتَيْن آثمًا ، فكأنّ أولاد الزوجة الثانية أعداءٌ يُدْخِلُهم الرجلُ في الأسرة ، ولا يعدُّه آثمًا إذا أدْخل فيها وَلَدَ زِنْيَة ، ولعلّه يتغاضى عنه كما تتغاضى الزوجةُ عن خليلَةِ زَوْجِها ووَلَدِه منها ، أو يعتبرهما في حُكْمِ العَدَم كما اعْتُبِرَت هي ، لأنهما مجهولان عندها وعند الناس ومعدومان . ولقد دَقّ نظر الإسلام حيث رأى في الزِّنا قَتْلَ نَفْسٍ وإعدامَها ، وجازاه بمثله .

أمَّا ما ذَكَرَه مِنْ مُعاداةِ بَني العَلَّات[١] بعضِهم بعضًا ، فمنشأُ ذَلِكَ نقصانُ التربيةِ الدينية الواجب تدارُكُه .

وماذا يقول الكاتب فيمَن يحاذِيهم من بني الأخْياف[٢] ؟ وفي المعاداة المُمْكِنَة الوقوع فيما بينهم ؟ فهل يُتَصَوَّر سَنُّ قانونٍ يمنع زواج امرأة ماتَ عنها زوجُها أو طلَّقَهَا بزوج آخر لئلا تَلِدَ منه أولادًا يعادون مَن وَلَدَتهم من الزوج الأوّل كما يتصوَّر سنّ قانون يمنع تعدّد الزوجات ؟ بل هل يتصور سَنُّ قانونٍ يمنع الرجال بعد موت زوجاتهم أو مفارقتهن بالطلاق ، أن يتزوّجوا مرةً ثانية ، فَيَلِدُوا بني العَلَّات ، ويحصل بينهم المعاداة ؟

فَقَدْ ظهر أنَّ أعداء تعدُّد الزَّوْجات الذّين لا زالوا يتعقَّبون ما فيه من المحاذير الاجتماعية ويَتَتَبَّعونها ، يمكن معارضتهم في كلِّ خطوةٍ بالزنا وما فيه من المضار والويلات[٣] ، ثم

(١) أولاد الرجل من أمهات مختلفات .

(٢) أولاد المرأة من آباء مختلفين .

(٣) خاصَّةً في عصرنا ، فقد ٱبْتُلِيَ الزُّناةُ والشَّاذُّون جنسياً بأمراض خطيرةٍ لم تكنْ معروفةً قبل نهاية القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين، من أمثال مرض نقص المناعة المكتسَبة / الإيدز/ السِّيدا وغيره ، =

لا يُمْكِنُ عند العقل السليم تفضيل الزِّنا عليه وتفضيل وَيْلاته على تَبِعاتِه ، ولذا قال مظهر عثمان بك الطبيب التركي الكبير الأخصائي الشهير في الأمراض العقلية والعصبية في كتابه المسمى « الطب الروحي » :

« الاكتفاء بالزوجة الواحدة (Monogamie) على ما يُرى في أوروبة إنَّما هو مظهرٌ (Etiquette) كاذِبٌ بعيدٌ عن الحقيقة ، فقد تَبَيَّنَ أنَّه لا يمنع الفسق ، فالأَوْلى أنْ نَحْتَرِمَ تعدُّدَ الزوجات المشروع في ديننا ، بدلًا من أن لا نَكْتَرِثَ بهذا التوسُّعِ الضروري في الفِسْق والفجور » .

وتكلَّم الكاتب المعارِضُ في عَدَدِ الرجال بالنسبة إلى النساء ، وقال : « إن قَامَتْ حَرْبٌ وماتَ فيها عددٌ كبيرٌ من الرجال ، أمكننا حينئذ أن نرجع إلى ديننا وإلى تطبيقه بحسب اختلاف الزمان » .

وإنِّي أوصيه بالرجوع إلى دينه من غير تَرَيُّثٍ .

وقد قلت في كتابي المذكور [« مجددو الدين »] :

= فالحمد لله ٱلذي أغنَىٰ المسلمين عن هذه العقوبات الدنيوية قبل الأخروية بالحلال الطيب الطاهر . بسام .

« بناءً على كون عَدَدِ النساء أكثر من الرجال ، أو تقليل الحروب عددهم ، أو عدم رغبة بعض الرجال في الزواج ، أو رغبة بعض النساء الحرَّة في اختيارها في الزواج ببَعْضٍ مُعَيَّنٍ من الرجال المتأهِّلين ، بناءً على أيّ سَبَبٍ من الأسباب ؛ فقد توجَدُ امرأةٌ يمكن أن تكون زوجةً ثانيةً لأيّ رَجُلٍ حتى يتحقَّق تعدُّدُ الزوجات في ساحة الوقوع ، وحَسْبُكَ هذه المرأة زائدة في المقارنة بين عدد الرجال والنساء ، فإنْ لَمْ توجدْ تلك المرأة فلا محلّ حينئذٍ لتعدُّدِ الزوجات ، ولا لشكاية الشاكين منها . ثم إن دفاعي عن تعدُّدِ الزَّوجات لَمّا كان بالنسبة إلى الزِّنا والسِّفاح ، ففي استطاعتي إثبات زيادة النساء على الرجال بوجود نساءٍ في كل بلدة يعشْنَ ببَيْع أعراضِهنّ ، من غير حاجة إلى سَوْق المسألة إلى أودية بعيدةٍ .

ولا عليّ أنْ أُثْبِت كونَ هذه النساء زائدات في المقارنة بين نفوس الذكور والإناث بكلِّ بلدةٍ يوجَدْنَ فيها ، فهاهُنَّ ظاهراتٌ فيها بمظهر الزيادة ، فعلى الرجال الذين لا مندوحة لهم عن الاقتران بهنّ أن يتزوّجوهنّ ، سواء كانوا متزوِّجين قبل ذلك أو عزَّابًا ، ويجعلوا ما يعطونهن ثمن العِفّة نَفَقةَ الأهل .

إنِّي أُلْزِمُهُم ذلك، ولا يرضاه المعارضون لأنهم يحاولون أَنْ يبقى الرجال دَوْمًا بموقف يسهل عليهم تبديلهُنَّ غيرهنَّ ، وبه يظهر أنَّ المعارِضِين لا يرضون التحديد الذي يتضمنه تعدُّد الزوجات ، بالرغم من أنهم يَشْكُون التعدُّدَ ، ولذا قال أحد أدباء أوربة : « إنَّ للمسلمين أنْ يَفْتَرِشوا النساء إلى أربع ، وللغربيين الذين يعدُّون أنفسهم أرقى مدنيةً منهم أن يفترشوهنَّ إلى ما شاءوا من العَدَد » .

« وكأنِّي بالمعارضين يتعجَّبون من قولي ، ويقولون : كيف يتزوّج كلُّ رجلٍ مِنَ التي أراد أن يزني بها ؟ وربَّما تكون من المُومِسات ، وتسكن بيتًا من بيوت الدعارة الجهرية أو السرية ، وتَعْرِضُ نفسها على مَنْ طَرَقَ بابَها ؟ فكيف تتفق الكرامة وهذا الزواج ؟ ولكنِّي أعودُ فأزيدُ في تعجُّبهم قائلًا : إنَّ الزواجَ منها لا يُخِلُّ بالكرامة الإنسانية قدرَ ما يُخِلُّ الزنا بها ، وإنَّ الرجلَ مهما بَلَغَ من الكرامة فهو يسقطُ في درك امرأةٍ يريد أن يَزْني بها ، لكن الزَّواج لا يحطُّ من كرامة الرجل ، وإنما يعلي المرأةَ ويُنْجيها من سَقْطَتِها » .

أما قول الكاتب : « ومِنْ حَقِّ المرأة أن تَسْتَأْثِرَ بزوْجِها ، وأن تستأثر بِحُبِّه ، وأنْ تقول له في علانية : إنْ أَنْتَ ضَمَمْتَ

إلى صَدْرِكَ امرأةً أخرى فلسوف أضُمُّ إلى صَدْرِي رجلاً آخر ! فإنَّ العين بالعين والسن بالسن » .

وكان هو قد حكى عن أيّ امرأة فَرَضْنا أنَّ سألناها أنّها تفضِّل أن يخادِن زوجها ألف امرأة غيرَها على أن يتزوّج من امرأة ثانية كما سبق نقله منا مع التعليق عليه .

فعند الجمع والتوفيق بين هذين القولَيْن ، تكونُ النتيجةُ أنَّ تلك المرأة التي يخادِنُ زوجُها ألفَ امرأة سوف تضمُّ إلى صَدْرِها ألفَ رجُلٍ ، لأنَّ العَيْن بالعين والسن بالسن ! بالرغْم من إباحتها لزوْجِها تلك المخادنة الغير المحدودة في ضِمْن تفضيلها على تزوُّجِه من واحدة ! ولعلّ تفضيلها أن يخادِنَ على أن يتزوَّجَ لِيُمْكِنُها الاقتصاص منه ، إذ لا يُمْكِنها أن تقول : إنْ هُوَ تَزَوَّجَ بعدي بثانيةٍ وجَمَعَها إليَّ فلسوف أتزوّجُ بآخر وأجمع بين الزَّوْجيْن ! لأنَّ القانون لا يأذَنُ لها في ذلك ، ولا تأذَنُ به فِطْرَتُها أيضًا ، لأنَّ بَطْنَهَا لا يَجْمَعُ بين ولدَيْن من رَجُلَين من دون اختلاط الأنساب ، أمَّا الرّجُلُ فيمْكنهُ أنْ يَقْتَرِنَ بعدَّة نسوة فيحصل منه عدة أولاد من غير وقوع التباس في أبيهم أو أمَّهاتِهم ، وهذا من أَبْرَزِ مَيِّزات الرجل التي يمتاز بها على المرأة .

فقد ثَبَتَ أنَّ فجورَ الأزواج يستفزُّ الزوجات ، ويؤدِّي إلى فجورِهنّ ، أما وجود الفُجَّار من الرِّجَال ، فأمرٌ لا يمكنُ إنكارُهُ بالكتمان ، بل لا يُمْكِنُ كتمانه أيضًا ، فالواجِبُ أنْ نتداركه بتعدُّد الزوجات الذي أخذ المسلمون ينسُونَهُ منذ أقاموا مقامه الفِسْقَ .

فإن قال قائل : كيف نَتَدارك الفِسْقَ الفاشي في البلاد بإحياء مبدإ تعدُّدِ الزوجات ، وليس جميعُ الفَسَقَة من المتزوِّجين حتى نُزوِّجُهُم ثانية ؟

فالجواب عليه : إن الفاسِقَ ، وبعبارة أوْلى : مَنْ رأى نفسَه على شَرَفِ الوقوع في الفِسْق إن كان عَزَبًا فليتزوَّج ، وإن كان متزوِّجًا فليتزوّجْ ثانيةً وثالثةً ورابعةً حتى يحصل له الاستغناء ، فإن لم يحصلْ بالرّابعة وتاق إلى خامسةٍ فليطلِّق إحدى نسائه وليجعل الخامسة رابعةً ؛ فإن عَدَّ هذه الفعال تلاعبًا بالأهل والعيال ، قلت : إن كلَّ ذلك أفضلُ من الفِسْق ، حنانَيْك ! بعضُ الشرِّ أهوَنُ من بعض .

وإن سألوني عن منابع المالِ اللاّزم لهذه الزيجات ، أُرِهم منابع المال الذي يُنْفَقُ في سبيل الفِسْق ، وهو أكثر .

ثم إنَّ الرجوعَ إلى ديننا في تَستُّرِ النساء وعدم اختلاطهنَّ

بالرجال يهدِّىءُ الأهواء ويخفِّفُ نَهْمَةَ الشهوات ، فيتَّفقان مع تعدُّدِ الزوجات في ممانعة الفسق ، وَرُبَّمَا يُغْنِيَان عن تعدد الزوجات نفسه ، لكَوْنِهِ موضوعًا لِمسايَرَةِ الفِسْقِ ومزاحَمَتِهِ .

والدواءُ الثالث ضدّ مرض الفِسْق تسهيلُ الطلاقِ إلى حدٍّ ما[1] ، كما أشرنا إليه ، لأنَّ الإسلامَ شَرَّعَ الطلاقَ كما شَرَّعَ النكاح ، ولكن العادة الحديثة التي حَلَّت ببلاد الإسلام ، وجَعَلَتِ الطلاقَ من المُحالات ، حتى إنّ الرجلَ المسلم لا تُرضيه قرينَتُه ، فيضطرُّ إلى مرافقتها طول الحياة ! فإذا خَرَجَ من بيته تدورُ عينُهُ على نساء العالم ويَتَنَفَّسُ الصُّعداء ، وربَّما يزني ، ويتحمل إثمَهُ ولا يتحمل عارَ تطليق امرأته ! هذه العادة انتقلت إلينا من الغَرْبِ ، وقد رأى المُغْرَمون مِنّا بتقليد أَهْلِهِ أَنَّهُم لا يملكون طلاقَ زوجاتهم ، وسمعنا منهم اعتراضًا كثيرًا على الطلاق في الإسلام ، فحرّمناه علينا ! في حين أنّ أهلَ أوروبة وأمريكة بدأوا يَسعَوْن في تسهيله على أنفسهم ، فأخذوا منّا التَّوسِعة ، وأخذنا منهم التَّضْييق ، فلو أنَّ مَنْ سئم مِنْ قرينَتِهِ حتى احتاج إلى تجديدها بالسِّفاح استفاد مِمّا

(١) لا كما يطالب بعضهم بوضع حواجز كرسوم مالية تتقاضاها الدولة ، في سبيل تصعيب وتعسير الطلاق !؟ بسام .

بيده من استبدال زَوْج مكان زوج لوجد في الإسلام منجاةً من الوقوع في المناهي ، بل ومِن اقتحامِ غائِلَةِ تعدد الزوجات ، وربَّما وجدَ سعادةً في زواجه الثاني ووجدَتْ زوجتُهُ القديمةُ التي هي جديدة لِمَن يتزوجّها بعده سعادةً عنده .

ومما يُعينُ على التعفُّفِ عدمُ تصعيب النكاح بتحدِيد سنّ الزَّواج وإرجاء النكاح إلى ما بعد بلوغ الجنسين بِبعْضِ سنين ، ومَنْ يَضْمَنُ لنا أنَّ الفتيانَ والفتيات يُمْضون هذه السنوات الطويلة المصادِفَة لِرَيْعان شبابِهم وغَلَيان دمائهم في تبتُّلٍ وتعفُّفٍ ؟! وكونهم في دَورِ التَعلُّم الذي لا بُدّ أن يُشْغلهم زواجُهم عنه لا يُعَدُّ معذرةً لآبائهم في أنْ يعاملوهم بالتسامح والتغاضي عما يَقْضون به حاجاتهم الجنسية ، ولا يُعَدُّ معذرةً لهم أنفسِهم لأنَّهُم بالغِون مُكَلَّفون ، ولا يُؤْذَنُ لأحَدٍ في الفِسْق بحجَّةِ أنَّه في دَوْرِ التعلم لايمكنه الزَّواج[1] ، وقانون الإسلام يفرضُ الزواجَ على كلٍّ من يخاف على نفسه الوقوع في الفِسْق ، ولا يبيح الوقوعَ فيه لأحد ولو في سبيل التعلُّم ،

(١) من الأنظمة المجحفة أن الفتاةَ إذا تزوّجت تفصل من المدارس الرسمية ولا تقبل كطالبة فيها؟! فتأمّل يا رعاك الله في هذه المدارس التي تنادي بتحرّر المرأة ولا تترك لمتزوِّجَةٍ مجالًا للدراسة فيها. بسام.

وإنما واجب المسلمين أن يتدبَّرُوا ليكتَشِفُوا طريق تأليف التعلُّم مع الزواج للمحافَظَة على عِفَّة المتعلِّمين ، والفِطْرَةُ لا تُجَوِّزُ أن تَجْعَلَ دَوْرَ غَلْواء الشباب يمضي بالعَطالة والعُقْم ، ولا بالإنتاج في طريق غير مستقيم ينتهي إلى العُقْمِ أيضًا ، لكنّا رأيْنا أنَّ الغربيّين لا يتزوَّجون في عُنْفُوان شبابهم ، فقلَّدْناهم ، وما فكَّرْنا في أنَّهُم لا يبالون بما إذا كان شُبَّانهم يقضون حاجاتهم الجنسية في طُرُقٍ لا تقبَلُها آداب الإسلام الاجتماعية من مخالطة الفتيات ومخاصَرَتِهِنّ ومبادلتهن المحبة ! وربّما فَكَّرْنا في ذلك وقلَّدْناهم في عدم المبالاة .

الحاصِل؛ إن الإسلام يُسْرٌ، يريد بنا اليُسْرَ في المعاملات، وخِطَّتُه في معاملة الأزواج مع الزَّوْجات تدورُ على إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسان ، كما عَبَّر به القرآن [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٩] ، والنكاح وإنْ كانَ ميثاقًا غليظًا كما عَبَّر به القرآن أيضاً [٤ سورة النساء/ الآية : ٢١] ، وكان الطلاق أبغضَ الحلال إلى الله(١) ، وكان الله لا يحب الذَّوَّاقين

(١) قال رسول الله ﷺ : «أَبْغَضُ الحلالِ إلى الله تعالى ٱلطَّلاقُ» ، رواه أبو داود ، رقم : ٢١٧٨ ؛ وابن ماجه ، رقم : ٢٠١٨ . بسام .

والذوّاقات[1] ، كما وردا في الحديث النبوي ؛ فليس شيء من هذا وذاك وذلك يَلْصُقُ أحد الزوجين بالآخر بحيث لا يتمكّنان من الافتراق كما في أنكحة سائر المِلَل ، فيتولّى الرجلُ الطلاقَ ، وتتولاه المرأة باشتراطه عند عقد الزواج ، وبالمخالعة ، وقد يتولاه الحكمان المبعوثان من أهلَيْهما لإصلاح ذات البين ، لأنَّ دوام رابطة النكاح بين الزوجَيْن مهما كان مطلوبًا في الإسلام ومحبوبًا فهو مشروطٌ بعدمِ مخافتهما أنْ لا يقيما حدُودَ الله وهذا تعبير القرآن أيضًا [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٢٩] ، وقد فَسَّرُوها بحقوق الزوجية التي لهنّ منها مثل الذي عليهن بالمعروف ، مع ما للرِّجال عليهن من درجة ، وفي التعبير ما لا يخفى من إعظام تلك الحقوق .

ثم لا يخفى أن المحافَظَة على العِفَّة من الطرفيْن تدخُلُ

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « لا تُطَلَّقُ ٱلنِّسَاءُ إِلَّا مِنْ رِيبَةٍ ، إِنَّ ٱللهَ تبارَكَ وَتَعَالَى لا يُحِبُّ ٱلذَّوَّاقِينَ وَلا ٱلذَّوَّاقَاتِ » رواه البزار والطبراني في « المعجم الكبير » و« المعجم الأوسط » . « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٧٦١ ، ٤/٦١٦ والمعنى : إن الله لا يحب السريعي النكاح السريعي الطلاق . « النهاية » لابن الأثير ، مادة ذوق . بسام .

فيما هو المطلوب حصوله بينهما من إقامة حدود الله دخولًا أوَّلِيًا ، فعند مخافة التَّعَدِّي من أحدِهما لحدودِ الله يتعيَّنُ الطلاقُ بلُطْفٍ ومعروفٍ وإحسانٍ ، ولا يُعْقَلُ لهما قضاء العُمْر في عَدَمِ التراضي .

ويُعَدُّ تعدِّيًا لحدود الله من جانب المرأة أن تَمْنَعَ زوجَهَا مِنَ العَمَل بمبدأ تعدُّد الزوجات الذي هو من حقوق الزَّوْج عِنْدَ حاجَتِه إليه .

وهذه الحرِّيَّة من النِّكاح والطلاق ، والسهولة التي يلاقيها الزوجان بصددهما ، جعلتِ الإسلامَ في التوسُّط بين ضيقِ مبدأ المسيحية فيهما ، وفوضى الاشتراكية [الإباحية] ، فهو لا يَبْعدُ في مبادئه عن الاشتراك ، فيضمَنُ للإنسانية الفوائدَ التي تنتظرها منه ، ويغني عن إفراطاته .

وفي زكاة الإسلام التي ترى حقًا للفقراء في أموال الأغنياء أدلُّ شاهدٍ على هذا .

كما أنَّ سهولةَ النكاح والطلاق في الإسلام التي تتضمَّن سهولة استبدال زوج مكان زوج هي من هذا القبيل ، أي : مما يقرِّبُ به الإسلام من الاشتراك ، وبهذا التسهيل يكون

الإسلام قد اعْتَرَفَ بحاجَةِ الإنسان إلى التجديدِ الذي أطلقه الفسقة والاشتراكيّون [الإباحيّون] ، والإسلام يراعي التجديدَ مع التحديد ، ويربطه بالنظام ، وكان الأنصار أهلُ المدينة يَنْصرُون المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم أجمعين ، إلى حدّ أنّ مَنْ عنده امرأتان كان ينزلُ عن إحداهما ويزوِّجُها واحدًا منهم[1] ، وهذا ممّا يُسْتَشْهَدُ به على سهولة النكاح والطلاق في الإسلام ، وعلى أن المقصود منهما قد يكون الإيثار والتضحية لا الاستئثار .

* * *

(١) جاء في « صحيح البخاري » رقم : ٣٧٨١ ؛ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَآخَى رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ ، وَكَانَ سَعْدٌ كَثِيرَ ٱلْمَالِ ، فَقَالَ سَعْدٌ : قَدْ عَلِمَتِ ٱلأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالاً ، سَأُقَسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ ، وَلِي ٱمْرَأَتَانِ ، فَٱنْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا حَتَّىٰ إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا ؛ فَقَالَ عَبْدُ ٱلرَّحمَنِ : بَارَكَ ٱللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ . وَرَوَاهُ مسلم ، رقم : ١٤٢٧ ؛ وَالتِّرمِذيُّ ، رقم : ١٠٩٤ و١٩٣٣ ؛ والنَّسَائِيُّ ، رقم : ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢ ، ٣٣٧٢ ، ٣٣٧٣ ، ٣٣٧٤ ، ٣٣٨٨ ؛ وأَبُو دَاوُدَ ، رقم : ٢١٠٩ ؛ وَٱبْنُ مَاجَه ، رَقَمْ : ١٩٠٧ . بسام

نرجع إلى تعدُّدِ الزَّوْجات ومقارنَتِه مع التعدُّد من دون زواج ـ الذي يفضِّله المتشبِّعون بعقلية تقليد الأجانب عن الإسلام على التعدد المشروع ـ ويقوّلون النساء قولهم بالتفضيل . وقد قلت عن هذه المقارنة في كتابي المار الذكر : « إن في التعدُّدِ الغير المشروع : ضَرَرَ الزوجِ بفَقْدِ عِفَّتِه ، وضَرَرَ المرأةِ التي اقترن بها بفَقْدِ عِفَّتِها ، وضَرَرَ الزوجة من حيث كونها زوجة الرجل المفقودِ العِفّة ، وضَرَرَها أيضًا من حيث احتمال أن تَفْقِدَ عِفَّتها انتقامًا من زَوجها ، وضَرَرَ الزوج من هذه الجهة ، وضَرَرَ زَوْج المرأة التي اقترن بها الزَّوج إن كانت متزوِّجة ، وضَرَرَ الزوجة التي تقترن بزوجها الزوجة المنتقمة إن كان متزوِّجًا ، وضَرَرَ الأولاد المضاعة بين المقترِنين وقريناتهم وبين المقترنات وقرنائهنّ ، وضَرَرَ كُلٍّ من الطائفَتَيْن من الأمراض المُعْدية في هذه الاقترانات ، وضَرَرَ زوجات المقْتَرِنين وأزواج المقترنات من انتقال العدوى إليهنّ وإليهم . فهذه عَشْرُ مضار قد كَفَتِ الثلاثُ الأخيرة منها في إفساد حال الدنيا الحاضر . ومِنْ حِكْمَةِ الله تعالى أنَّه يُسلِّطُ مُعْضِلاتِ الأمراض على الاقترانات الغير المشروعة .

وفي تعدُّدِ الزوجات مقابلَ هذه العشر ضَرَرٌ واحدٌ خاص بالزوجة ، وهو كون زوجها تزوّج بامرأةٍ أخرى . وهو ضَرَرٌ إن أخلَّ باستئثارها بزَوْجها فلم يُخلّ بشَرَفِها ، لأن زَوْجَها استعملَ حَقَّه الذي أعطاه قانون الإسلام ، كما لو وُلد بعد الوَلَدِ شقيقُهُ فأخل باستئثاره بأبَوَيْه .

ولستَ بالَّذي لا أُقَدِّرُ قَدْرَ الحُبّ والقلب وما بينهما من صلةٍ تُحيي وتُميت ، ولا قَدْرَ أصحاب القلوب من الأزواج الذين تمنعهم محبَّةُ زوجاتهم ، أو على الأقل رحمتُهُن ، عن أن يتزوَّجوا عليهنّ ولو كانوا في حاجةٍ إليه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَقَّ لِأُمَّتِي رَقَّ ٱللهُ لَهُ »[1] .

وإنَّما أنا لا أفهَمُ للكتَّاب المعارضين الظاهرين بمظهر الرعَايةِ والاهتمام بقَلْبِ الزوجة الأولى وحُبِّها ، تسامحَهم مع

---

(١) كَذَا الأصلُ ، ولعلَّهُ كما ذَكَرَ الأستاذُ حسن السماحي سويدان: « مَنْ رَفَقَ بِأُمَّتِي رَفَقَ ٱللهُ بِهِ » وهو في صحيح مُسْلم، رقم: ١٨٢٨ ؛ عن أُمِّ المُؤمنين عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنْها، عن رَسُولِ ٱللهِ ﷺ : «ٱللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِم فَٱشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَٱرْفِقْ بِهِ » وَرَواهُ الإمامُ أحمدُ في « مُسْنَدِهِ» ، رقم: ٢٣٨١٦، ٢٤١٠١، ٢٥٦٦٧، ٢٥٦٨٠، ٢٥٧٠٥. بسام.

الخيانة الموجَّهَة إليها وإلى مَحبَّتها من جانب الزوج الذي يخادِنُ امرأةً غيرَها بدلًا مِنْ أنْ يتزوَّجَها ، مع أنّ الاعتداء على القلب من الصنيع الأول أشدُّ وأبشعُ ، لكونِه إشراكًا في الحُبّ يتضمَّنُ سقوطَ المُشْرِك والشريكة .

* * *

ثمَّ إنَّ تعدّد الزوجات مهما ثَقُلَ على الزوجة الأولى وأضرَّ بها فَفِيه منفعةٌ لأخْرَى من جِنْسِها ، لأنَّه صَيَّرها زوجةً مِثْلها بدلًا من أن تصير خليلةً ساقِطةً .

وإنَّ الإنسانية إنْ نَظَرَتْ إلى تعدُّدِ الزوجات وما يقابِلُه من التعدُّد بشكلٍ غير مشروع ، وهو ما لا بُدَّ أنْ يقومَ مقام التعدُّد المشروع ويملأ فراغه في الحاجة البشرية ، إن نظرتْ إلى هذا وذاكِ بعين الإنصاف وجدتْ تعدُّدَ الزوجات أوفق لمصلحة النساء العامة وصلاحهن العام .

والمعارضون ينظرون إلى مصلحة بَعْضٍ منهنّ دون بعض .

وفضلًا عن ذلك ، فإنَّ تعدُّدَ الزوجات إنْ أخلَّ بمساواة الجنسَيْن ، فالرجلُ لا يساوي المرأةَ ، يُنادي بعدم المساواة

كونُ فطرةِ المرأة تأبى أنْ تجازي تعدُّدَ الزوجات بتعدُّدِ الأزواج كما ذكَرْنا ، ثم إنها لا تستطيع أنْ تَلِدَ في عامٍ واحدٍ إلا مرةً واحدةً مع أنّ قوة الإنتاج في الرجل تتجدَّد كلّ يوم ولا يشغلها شاغل ، والمرأةُ تستغني عن الرجل أيام مَحِيضِها ومَخَاضِها ونِفَاسِها ، وتَهْرَم قبل الرجل ، فتنقَطِعُ عن الولادة ، ويعتريها القِدَمُ قَبْلَ الهَرَمِ ، فتكون بِكْرًا وثَيِّبًا ووالِدَة ، فَتَفْقِدُ من طراوَتِها كلَّما مَرَّ عليها دورٌ من هذه الأدوار ، فلو وَقَفْنا الرجلَ والمرأةَ في حَدِّ المساواة إنصافًا للمرأة لكُنَّا ظلمنا الرجلَ الفائِق في فِطْرَتِه ، ألا يرى أنَّ المولود يُفضَّل كونه ذكرًا حتّى عند أمه ، وهل لا يدلُّ هذا على اعتراف من جانب المرأة بفَضْلِ الرجل ؟

وإنَّما شاعَتْ دعوى مساواة المرأة للرَّجُل في العصر الحديث تحت حماية بعض الرجال ومحاماتهم عنهنّ لحاجةٍ في أنفسهم ، يحاولون قضاءها بالتقرُّب إليهنّ ، فلو فازَتْ دعوى المساواة فازتْ وهي مساواةٌ ممنوحَةٌ غير حقيقية .

والنساء في عصرنا يطاوِلْنَ الرجالَ برفْعِ كعُوب أحذيتهنَّ مطاولةً مبنِيَّة على التكلُّفِ وتغيير الخِلْقَةِ ، لكنَّهُنّ على خَطَرِ الكبْوَةِ عند السِّباق معهم بتلك الأحذية .

ولأجْلِ ما ذكرْناه من كمال قدرة الإنتاج في الرجال ، حتى إِنَّ الرجلَ الواحِدَ لا يَعْدِلَهُ جماعةُ النساء الغفيرة ، كان طريقُ إكثار التناسل في الأمم تزويج رجلٍ واحدٍ عدة نسوة ، أعني : العمل بتعدُّد الزوجات ، ذلك المبدأ الإسلامي الذي سَتَحْتاج حكومات الغَرب إلى تطبيقه في بلادهم ، لاسيّما بعد تطبيق واحدةٍ منهنّ ؛ أمَّا كثرةُ النَّسْل ، فلا شكّ في كونها من أجلِّ ما تَرْغَبُ فيه الأمَمُ لاكتساب القوة ، ولا يرتاب في نَفْعِها أحدٌ إلا كاتب كتَبَ يومًا فيما تعوَّد كتابته في « الأهرام » ينهى المصريين عن إكثار الأولاد ، في حين أنّ حكومات الغَرْب تتنافس في إكثار عدد شعبها ، وتكافئ المُكْثِرين وتَجْزِلُ لهم أنواعَ العطاء ، كما أنَّ نبيّنا ﷺ قال لنا قبل ذلك : « تَنَاكَحُوا ! تكَثَّرُوا ! فَإِنِّي أُباهي بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » [« الجامع الصغير » ، رقم : ٣٣٦٦] وإنِّي عجبْتُ من شذوذ هذا الكاتب ، الذي نحمَدُ الله على أنَّه لم يتدخَّلْ في نقاش مسألة تعدُّد الزوجات ، فلو تدخَّل لعدَّ كونه سببًا لكثرة النسل من مضارِّه .

وأعجبُ منه ما سبقَ لكاتب كبير في تركية[١] عند

(١) المرحوم جناب شهاب الدين بك .

مناظرتي إيّاه في مبدأ تعدد الزوجات من أنَّه لم يعترفْ بنَفْعِهِ لكثرة النفوس ، وقد ذكرْتُهُ هنا ليكون أُنْموذَجًا لمكابَرَةِ المعارضين في هذه المسألة ، وشاهِدًا على وَهْنِ مواضِع أقدامهم ، لِحَدّ أنَّهُم رُبما يحتاجون إلى تعزيز دعاويهم بما يخالِفُ البداهَة .

ثم إنَّ الرجالَ همُ الذين يتحمَّلون أقسى وظائف الحياة ، ومشاركةُ النساء إيّاهم في بعضها في العصر الأخير بعيد عن المساواة كلّ البُعْد ، يكفيك أنّ أعباء الحروب الأساسية على كواهلهم ، والدماء الجارية فيها كالأنهار دماؤهم ، فالأمم إذنْ في حاجة إلى أن تقومَ نساؤهم بتضحيةٍ تتكافأُ بعضَ الشيء مع تضحيات الرجال ، وتلافي ما تُحدث فيهم التضحياتُ مِنَ النقْصِ ، فينبغي لهنّ أنْ يحارِبْن أنفسهنّ ويَرْضَنَها لاحتمال تعدّد الزوجات ، فيعوضنَ بهذا الحِمْلِ الثقيلِ ما يضحّيه الرجال بأرواحهم في ميادين الحروب .

وما نقلنا عن الكاتب المعارض من قوله : « على أنَّه إن قامت حَرْبٌ وماتَ فيها عددٌ كبيرٌ من الرجال أمكننا حينئذٍ أن نرجع إلى ديننا وإلى تطبيقه بحسب اختلاف الزمان » اعترافٌ منه بمبْدإ تعدد الزوجات ، وبكونِهِ حقًّا للرجال عليهنّ حيال

الحروب ، صَدَرَ منه بغير شعور به ومن غير شعور بأنَّ التسويفَ فيه لا يتفق مع المصلحة المعْتَرَف بها ، لأنَّ تعدُّدَ الزوجات الذي سوف يطبَّق بعد وقوع حَرب ، وبعد مَوْت عددٍ كبير من الرجال فيها ، إنَّما يأتي بثمراته في عشرات السنين بعد انتهاء تلك الحرب ، والحالُ أنَّ الأمَّة المتيقِّظة من واجبها أن تظلَّ عقب انتهائها من حرب قادرة على حرب أخرى ، فيلزمها أن تكون دائمًا على استعداد ولا تنتظر أوان الحاجة .

وقد كنتُ كَتَبْتُ في تركية قبل خمس وعشرين سنة أنّ تعدُّد الزوجات الذي تحمِلُ النساءُ أثقالَه مقابِلٌ لحروب الرجال . ثمّ رأيتُ حديثًا نبويًا ، وكتبته في كتابي المار الذكر [« مجدّدو الدين »] ، وهو : « إنَّ الله كَتَبَ الغَيْرَةَ على النِّساءِ ، وَٱلجِهَادَ عَلَى ٱلرِّجَالِ ؛ فمَنْ صَبَرَ مِنْهُنَّ إيمانًا واحْتسَابًا كان لَهَا مِثْلُ أجْرِ شَهِيدٍ » أخرجه الطبراني عن ابن مسعود بإسناد لا بأس به « الجامع الصغير » [رقم : ١٧٦٧] ؛ ففي الحديث إشارةٌ إلى تعدُّد الزوجات ، والمراد من كَتْبِ الغَيْرةِ على النساء كَتْب ما يُثير الغَيْرَةَ ، وهو تعدّد الزوجات ،

وإنما فَسّرنا بهذا لأنَّ الغَيْرَةَ توجَدُ في الرِّجالِ أيضًا ، لكنَّهم لم يكلَّفُوا بها ـ أي : بتحمل ما يثيرها ـ كما كُلِّفَتِ النِّساءُ .

ولِنَخْتِمِ المقال ، فقد طال على القارئ ، وخلاصته : إنَّ في تعدّد الزوجات جُنَّةً من البِغَاء ، وقوةً للأُمَّةِ العاملة به .

* * *

السفور والاحتجاب

لا خلافَ في أنَّ الشرقَ مهدُ العلوم والمدنيات ، وسبَبُ ذلك يرجِعُ إلى كونِهِ موطن الأنبياء ومَهْبط الوحي الإلهي ، حتى إنَّ مدَنِيَّةَ اليونان التي هي أقدم مدنية في أوروبة ، والتي استنار منها الغربُ قبل ما استنار من علوم الإسلام ومدنيته المنصبَّة إلى إسبانية بأيدي العرب الفاتحين ، مقتَبَسَةٌ من اتصال اليونانيين بسكَّان سواحل آسية المحاذية لسواحل اليونان بمناسبة التجارة وغيرها ، فضلًا عن كون أصل اليونانيين من المهاجرين الشرقيين .

ولا خلافَ أيضًا في أن السُّفورَ حالَةُ بداوةٍ وبداية في الإنسان ، والاحتجاب طَرَأ عليه بعدَ تكامُلِه بوازع دينيّ أو خُلقيّ يَزَعُهُ عن الفوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ، ويسدُّ ذرائعها ، ويكون حاجزًا بين الذكور والإناث .

وقد خُصَّ الاحتجابُ بالمرأةِ دون الرجل لاشتغالِهِ في خارج البيت ، ولأنَّ موقِفَه في المناسبات الجنسية موقف الطالِب ، وموقِفَ المرأة مَوْقِفُ المطلوب ، فيكون منه

الطلب والإيجاب ، ومنها القبول أو الإباء ، واحتجابها وسام إبائها وهي متحلِّيَةٌ به أمام الرجل كيلا تحتاج إلى الإباء والرَّفْض باللسان أو اليد ، ففيه صونُها عن أن تكون عُرْضَةً للرجال ؛ فإذا تصدَّى لها الرجلُ ، وراوَدها بِلِحَاظِهِ ، وأرادتْ هي قَبولَ مراودته تُسْفِرُ له ، فهو يَنِمُّ عن قَبولِها الطّلب ، وسفورُها لرجلٍ مُعَيَّنٍ من غير سَبْق طَلَبٍ منه شعارُ قبولٍ متقَدِّم على الطلب وإغراءٌ له بالطلب ، وسفورُها العامُّ شعارُ القبول والإغراء العامَّيْن .

ثم إنّ الاحتجاب كما يكون تقييدًا للفَوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ، ويضاد الطبيعة من هذه الحيثية ؛ فهو يتناسب مع الغيرَةِ التي جُبِلَ عليها الإنسان ، ويوافِق الطبيعةَ من ناحِيَتِهِ الأخرى ، إلا أنَّ الغيرَةَ غريزَةٌ تستمدُّ قوَّتَها من الروح ، والتحرُّرُ عن القيود في المناسبة الجنسية غريزَة تستمد قوّتها من الشهوة الجسمانية ، فهذه تُغري بالسُّفُورِ ، وتلك تَبْعَثُ على الاحتجاب ، وبين هاتين الغريزتين تَجافٍ وتحاربٌ يجريان في داخل الإنسان ؛ فالمدنية الغربية انحازت إلى الطبيعة الأولى ، وقرَّرَتْ أنْ لا تَحْرِمَ المنتسبين إليها التمتعَ الجاذب الحلو في سُفورِ النساء

واختلاط الجنسين في الأندية ومجالس الأنْس والسهر ، وضحَّت بِالطَّبيعَةِ الثانيةِ في سبيل ذلك التمتّع .

فالرجل الغربي يخالِطُ نساءَ الناس ، ويقبِّل أيديهن ، ويجالِسهن سافرات ونصف عاريات ، ويخاصِرهُنَّ ، مقابل التنازل عن غيرَته على زوجته وأخْتِه وبِنْتِه ، فيخالِطُهُنَّ غيرُهُ ويجالسُهُنَّ ويخاصرُهُنّ ، ويرى أنَّ عدد ضحاياه قليلٌ بالنسبة إلى ما يربَحُ ، وربَّما لا يوجد من يضحّي به فيخلُصُ له الرِّبْحُ .

والحفلات الراقصة التي هي من لوازم المدنية الاجتماعية في الغرب ليست إلا تأييدًا عَلَنيًا للمعاشرة المختلطة ، وتقريبًا لأحد الجنسين إلى الآخر في الاقتران والالتصاق ، وقضاءً على الغَيْرة بين ظهراني مَنْ يُتَوَقَّع منهم التحمّس بهَا ، فكأنّ تلك الحفلات أفراحُ القِرانِ العام .

والقضاء على الغَيْرَةِ بَلَغَ عند مدنية الغرب إلى أنْ اعتبرتْها من النقائص ، بالرَّغْم مِنْ أن الإنسان يشعرُ بِفطْرتِه أنها فضيلةٌ ، وتواضَعَ كتَّابُها وشعراؤها على تغيير هذه الفِطْرَة ، من ذلك ما قاله الشاعر الفرنسي المشهور (هوغو Hugo) فيما

كتبه إلى مؤتمر الصلح المنعقد في (لوغانو) سنة ١٨٧٢م :
« . . . نَرى فكرة الاستيلاء انقلبت إلى فكرة الاختراع ، وسيقومُ إخاء الأمم السميح مقام إخاء الملوك المفترس ، وسينجو وطنُنا من الحدود ، وميزانيتُنا من الطفيلية ، وسفرُنا من العَرْقَلَة ، وتربيتُنا من العنف الحيواني ، وتجارَتُنا من الجُمرك ، وشبيبتنا من المُعَسْكر ، وشجاعَتُنَا من المقاتَلَة ، وعدالتنا من المِشْنَقَة ، وحياتنا من السِّنان ، ولساننا من العِقال ، وضميرنا من التحكم ، والحقيقةُ من البطلان ، والمعبودُ من الراهب ، والسَّماءُ من جهنم ، والعشْقُ من الغَيْظ والغَرَضِ » وقد أراد بخلاص العِشْقِ من الغَيْظ والغَرَض أن تقوم سعة الأريَحية مقام ضيق الغَيْرَةِ .

ومع هذا ، فلا يزال أصحابُ الطبْع السليم في الغرب يحسُّون مرارة هذه المعاشرة المختلطة ، وينطقون بالحقّ الناعي على حسراتهم ؛ فقد نَقَلَ الكاتِبُ التركي الأكبر المرحوم جناب شهاب الدين بك في كتابه المسمى « أوراق الأيام » عن مدام دولارو مارديروس ، التي وصَفَها الكاتبُ بأنَّها كبرى شاعرات فرنسة ، قولها له : « قولوا لنسائِكُم ليقدِّرْن قَدْرَ سعادَتِهنّ ، وما يضطرِرْن إليه من الحياة المحجبة

التي تصونُهُنَّ عن اضطرابات كثيرة . فلو عَلِمْنَ عدَدَ مُحِبَّاتي اللاتي بكَيْن على مَنْكِبَيّ شاهِقات ؟! إنّ في أذنيَّ ودائعَ من شكايات النساء تفتّتُ الأكباد ، نعم ! إن دخول حفلة راقصة فخمة يُرَى كتصريحٍ جديرٍ بالطلب ، ولكنَّ الغَيْرَة التي تنهشُ قلبَ زوجةٍ تَدْخُل هذه الحفلات مع زوجها الذي تحبّه ، أشبه بأفعى رَقْطاء ، يا لها من أفعى ! فهل أنتم تَعْرفونَ ذَلِكَ ؟ فالحفلاتُ الرَّاقِصةُ ، ومسارح التمثيل ، وجميع أندية التلاقي ؛ ما هي إلا دُور تعذيبٍ لِسَنْت أوفيس[١] ، وما هي إلا جهنَّم أمام رجل يهمّه أمر زوجه ، أو امرأة تحب زوجها ، فهل أنتم فاهمون ؟! أفيدوه إذاً لزوجاتكم وإخوانكم » .

ومِنَ الدَّليل على كَونِ السُّفُوريِّين يتكلّفون إسكاتَ صوت الغَيْرَة في قلوبهِم وإماتَتِها مقابل ما يتمتّعون به من الاختلاط بنساءٍ غير نسائهم ، أن مقلِّدتَهم من المسلمين لا يسمحون بالدخول على نسائِهم إلا لِمَنْ يَسْمَحُ لهم بالدخول على نسائِهِ ، فلو قَصَدُوا بالسُّفُورِ الذي يدعون له إلى تحرير المرأة من أسْرِ الاحتجاب ، كما يدَّعُونه ، لما حافظوا على شرط

(١) سنت اوفيس Saint office تطلق على محاكم التفتيش . بسام .

المعاوضة في سُفُور نسائهم عند أيِّ رجل من معارفهم .

ومن الدَّليل الجليِّ أيضًا على أنّ ما يَرْمي إليه سُفُورُ النساء العَصْرِيّ ليس بشيءِ عادي يتَّفِقُ مع الصلاح و[لا] ينبي على طَوِيَّةٍ حسنةٍ من الذين يَدْعُونَ له ، ولا يزيد على مساواتهنّ بالرجال في أنّهُنَّ خُلِقْنَ حرائر كما أنهم خُلِقوا أحرارًا ، من الدليل على ذلك أن سفورَهُنّ لا يقف عند حد سفورِ الرجال ، فيكشفْنَ عن أذْرُعِهِنَّ إلى آباطهنَّ ، وعن صدورهِنّ وظهورهِنّ وسيقانِهِنَّ ، في حين أنّ الرجال لا يرون أي لزوم للكشف عن هذه الأعضاء .

فالسُّفورُ خرجَ اليوم عن معناه في أصل اللغة ، وهو الكشف عن الوجه ، وتحوّل إلى ما نَراهُ من نصف التعرّي أو ثلثيه ! والاختلاط في هذه الحالة بالرجال الأجانب ! فنحنُ لا نجيزُه لبلادٍ يهتم أهلها بِعِفَّةِ نسائهم ، ونراه رائدًا للفسق والفَسَاد ، ونتعجَّبُ من كُتَّابٍ اتخذوا الدعاية للسفور مبدءًا لهم ، ثم نراهم الفَيْنةَ بعد الفَيْنة يشكون تهافتَ النساء على أنواع التبذّل والاستهتار في المصايف وعلى شواطئ البحر ، واندفاع الفتيان والفتيات وراء الشهوة الجامحة ، لا سيما في (استانلي باي Stanley by) التي وصفها أحد شعراء مصر الكبار

بقوله من قصيدة [من الطويل] :

تَرَى العَيْنُ فَوْقَ الرَّمْلِ سِرْبًا مِنَ المَهَى
مُبَعْثَرَةً فِي الرَّمْلِ بَعْثَرَةَ الزَّهْرِ

تَمِيْلُ عَلَى الجَنْبَيْنِ فَوْقَ أَدِيمِهِ
مُمَدَّدَةَ السَّاقَيْنِ مَثْنِيَّةَ الخَصْرِ

وتُبْصِرُ فَوْقَ البَحْرِ أخْرَى تَجَمَّعَتْ
تَجَمُّعَ سِرْبِ الطَّيْرِ يَخْرُجُ مِنْ وِكْرِ

وَبَيْنَهُمَا سِرْبٌ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي
عَلى مِثْلِ حَال المَوْجِ في المَدِّ وَالجَزْرِ

عُرَاةُ نَوَاحِي الجِسْمِ إلَّا بَقِيَّةً
تَلُوحُ هِيَ الأُخْرَى وَدَعْكَ مِنَ السَّتْرِ

وَتجْلِسُ في النَّادِي فَتَاةٌ إلَىٰ فَتَى
عَلى الوَرْدِ بَيْنَ النَّقْلِ وَالكَأْسِ وَالْخَمْرِ

هُنَالِكَ كُلُّ اثْنَيْنِ ضَمَّهُمَا هَوًى
وكُلُّ مُبِيحِ العِرْضِ في المَعْرِضِ الْحُرِّ

فَفِي البَحْرِ سَوآتٌ وَفي البَرِّ مِثْلُهَا
فَيا ضَيْعَةَ الأخْلاقِ في البَرِّ والْبَحْرِ

وقال آخر [من الخفيف] :

هَلْ رَأَيْتَ الْجُمُوعَ مُحْتَشِدَاتٍ
فَوْقَ شَطِّ الْخِضَمِّ أَوْ سَابِحَاتِ
وَرَأَيْتَ الحِسَانَ يَمْشِينَ زَهْوًا
مُقْبِلاتٍ يَتِهْنَ أو مُدْبِرَاتِ
ضَلَّلَتْهُنَّ قُدْوَةُ الوَالِدَاتِ
وَمِنَ الوَالِدِينَ سُوءُ أنَاةِ
وَمِنَ الزَّوْجِ غَضُّ طَرْفٍ لِضَعْفٍ
أَوْ طِبَاعٍ فِي نَفْسِهِ فَاسِدَاتِ
وَانْغِمَاسُ الشَّقِيقِ فِي شَهَوَاتٍ
لا يُبَالِي بِمَنْهَجِ الأخَوَاتِ
فَاطَّرَحْنَ الحِشْمَةَ يَحْسِبْنَهَا مِنْ
بَالِيَاتِ الأُمُورِ وَالعَادَاتِ
وَكَشَفْنَ الْجُسُومَ إلاّ قَلِيلاً
وَتَرَكْنَ الحَيَاءَ في الحَرَكَاتِ
يَتَخَطَّرْنَ جِيئَةً وَذهَابًا
مُبْدِيَاتِ الدَّلالِ مُسْتَهْتِراتِ

وَيُغَالِينَ فِي مِزَاحٍ وَلَهْوٍ
لَسْنَ بِالعُرْفِ وَالنُّهَى حَافِلاتِ
تَلْتَقِيهُنَّ تَارَةً رَاقِصَاتٍ
مَعْ رِجَالٍ وَفِتْيَةٍ وَلِدَاتِ
وَتَرَاهُنَّ مَرَّةً فَوْقَ رَمْلٍ
جَنْبَ رَهْطِ الشَّبَابِ مُنْبَطِحَاتِ
وَيغَازِلْنَ بِاللِّحَاظِ شَبَابًا
وَبِهَزِّ الخُصُورِ وَالضَّحِكَاتِ
مَرَّةً يَهْتَرِشْنَ دُونَ حَيَاءٍ
وَيُهَارِشْنَ فِتْيَةً مَرَّاتِ
يَتَخَبَّطْنَ مَوْجَةً إِثْرَ أُخْرَى
قَافِزَاتٍ فِي خِفَّةٍ صَاخِبَاتِ
حَالَةٌ تَجْرَحُ الفَضِيلَةَ حَقًّا
وَلَها تَدْمَى نَفْسُ ذِي النَّخَوَاتِ
شَطُّ اسْتَانْلِي أَنْتَ عَارٌ لِمِصْرَ
وَعَلَيْهَا مِنْ أَشْنَعِ الوَصَمَاتِ
أَيُّها البَحْرُ ! طَهِّرِ القَوْمَ وَاغْسِلْ
مَا تَرَاهُ مِنْهُمْ مِنَ المُنْكَرَاتِ

وقال آخر [من مجزوء الكامل] :

هَا قَدْ تَرَحَّلْنَا فَقُلْ لِي
مَاذَا رَأَيْتَ على سْتَانْلِي ؟
مَاذَا رَأَيْتَ وَقَدْ وَقَفْـ
ـتَ ضُحىً عَلَى الرَّمْلِ المُطِلِّ
مِنْ كُلِّ جِسْمٍ ضَاحِكٍ
يُوحِي إِلَيْنَا بِالتَّمَلِّي
مِنْ كُلِّ غَازِيَةِ القُلُو
بِ تَسِيرُ فِي صَلَفٍ وَدَلِّ
أوْ كُلِّ سَاكِنَةِ العَرَا
ءِ وَكُلِّ نَازِلَةٍ لِظِلِّ
زُمَرٌ مِنَ الْحُسْنِ الرَّفِيـ
ـعِ تَطُوفُ فِي ضَنٍّ وَنَيْلِ
هـذِي تُحَيِّي مَنْ تَشَا
ءُ وَتِلْكَ تَبْخَلُ أَيَّ بُخْلِ
ضَاقَتْ بِهِنَّ الأَرْضُ حَتْـ
ـتَى كُدْتُ أَجْلِي مِنْ مَحَلِّي

وَأَخَـــذْتُ مِـــنْ عَجَبِـــي أُحَـــدْ
ـــدِقُ فـــي ٱلْمُشَـــارِفِ وَٱلْمُـــوَلِّـي
فَـــــإِذَا ٱلظِّبَـــــاءُ الآنِسَـــــاتُ
تَمُـــــرُّ لَا تَلْـــــوِي بِمِثْلِـــــي
وَإِذَا الخُصُـــورُ الضَّـــامِـــراتُ
تَجِـــلُّ عَـــنْ وَصْـــفٍ وَقَـــوْلِ
وَإِذَا الْجُفُـــونُ النَّـــاعِسَـــاتُ
تكَـــــادُ تَقْتُـــــلُ أَيَّ قَتْـــــلِ
وَإِذَا الـــوُجُـــوهُ المُشْـــرِقَـــاتُ
تكَـــادُ تَخْطِـــفُ كُـــلَّ عَقْـــلِ
يَـــا قَلْـــبُ هَـــذِي كَعْبَـــةُ الـــدْ
ـــدُنْيَـــا فَقِـــفْ يَـــوْمًـــا وَصَـــلِّ
لِلْعَـــــارِيَـــــاتِ كَـــــأَنَّهُنْـ
ـــنَ عَـــرَائِـــسُ البَحْـــرِ الأَجَـــلِّ
مِـــــنْ أَيِّ وَادٍ فـــــي الكِنَـــــا
نَـــــةِ أَوْ مَكَـــــانٍ أَوْ مَحَـــــلِّ
طَلَـــــعَ الْجَمَـــــالُ العَبْقَـــــرِيْـ
ـــيُ عَلَـــى ثَـــرَى الشَّـــطِّ المُـــدِلِّ

مَهْمَـــا أَقُـــلْ فيـــهِ فَلَسْـ
ـــتُ بِبَـالِــغٍ جُهْـدَ المُقِــلِّ
يـــا قَلْـــبُ وَالحُسْـــنُ اسْتَـــوَى
خَـــلِّ الـــوَقَـــارَ اليَـــوْمَ خَـــلِّ
وَابْسِـــمْ كَمَـــا بَسَـــمَ الهَـــوى
وَانْـــزَعْ هُنَـــالِـــكَ كُـــلَّ غِـــلِّ
وَانْـــسَ الْحَيَـــاةَ وَمَـــا بِهَـــا
وَدَعِ الشَّقَـــاءَ لِمَـــا يُسَلِّـــي
وَانْعَـــمْ أمَـــامَـــكَ بِـــالْغَـــوَا
نـــي قَـــدْ بَـــرَزْنَ بِـــأَلْـفِ شَكْـــلِ
وَلَبِسْـــــنَ أَمْـــــوَاجَ الخِضَمْـ
ـــمِ البِيـــضِ إلَّا فِـــي الأَقَـــلِّ
وَسَبَحْـــــنَ يـــا لِلْحُسْـــنِ كَيْـ
ـــفَ يَغِيـــبُ فـــي مَـــاءٍ وَرَمْـــلِ
وَمُتَـــاجِـــرَاتٍ بِـــالغَـــرَا
مِ يَسِـــرْنَ مِـــنْ خِـــلٍّ لِخِـــلِّ
يَغْـــوِيـــنَ آلافَ الـــرِّجَـــا
لِ بِبَسْمَـــــةٍ أو بَعْـــــضِ دَلِّ

فَــإذَا القُلُــوبُ تَظَــلُّ تَــرْ
عَــاهُــنَّ فــي سَفَــرٍ وَحَــلِّ
هَــذَا يُمَنَّــى بِــالــوِصَــا
لِ وَذَاكَ يُمَنَّــى بــالتَّخَلِّــي
وَالقَــوْمُ مِمّــا قَــدْ أَصَــا
بَهُــمُ عَلَــى خَطَــأٍ وَجَهْــلِ
وَيْلــي عَلــى الظَّبْــيِ الَّــذِي
قَــدْ شَــرَّدَ الأحْــلامَ وَيْلــي
فــي سَكْــرَةِ الحُلْــمِ الجَمِيـ
ـــلِ أَذَادَ عَــنْ نَهْــلٍ وَعَــلِّ
مَــنْ عَلَّــمَ الظَّبْــيَ الغَــرِيـ
ـــرَ ضَــرَاوةَ الآسَــادِ قُــلْ لِــي !

ويقول عنها كاتبٌ من النوّاب :

« هذا فتى وهذه فتاة ، إي والله ، هما فتى وفتاة من أبناء هذه الحضارة التي نكابد آثارها . كلاهُما يَبْدُو في المَصِيف وفي ضَحْوَةِ النهار خارجًا مِنْ مأواه (الكابين Cabin) عُريانَ ، حاسِرَ الرأس ، بادِيَ السَّوْأَتَيْن ، يقطع ما بين مَأواه والشاطئ على هذه الصّورَة ، ثم لا يبتَدِرُ الماءَ ليستُرَ به سَوْأَتَه ، بل

يهيم على طُولِ الشَّاطِئ أو على امتداد الطريق كما كانَ يفعل الإنسان الأوّل حين ينطلق من مأواه يطلبُ قُوتَهُ في صَيْدِ يباغِته ، فكلاهما طالِبُ صَيْدٍ ، غير أن الشباك مختلفات .

وهذه لَمَّةٌ من بني آدمَ وبناتِ حواء . إي والله ! هي لَمَّة مِن بني آدم الواغلين في صَمِيم المَدَنِيّة وبنات حواء الواغلات في تَرَفِ العصر ، وزخرفة تَسْتَشْرفها على بُعْد ، فَتخْطُو إليها لترى ما خَفِيَ من أمرها ، فإذا انتهيتَ إليها رأيتَ العُرَاة متلاصقين يرقُصُون رَقْصَ المدنية السَّمِجَةِ ، ما احتمَلَتِ النَّفْسُ مَضَضَه وهو في الغُرَف والأبْهاء ، فكيف احتماله وهو في الفَضَاء والعَرَاء ؟

وقد يُرى في جانب آخر أشباهُ قَوْمٍ آخرين قد يكونون مَثْنى ، وقد يكونون ثلاث ؛ وقد يكونون أكثر من ذلك ، وهم أمام المصوِّر في أوضاع ليس وراء تبذُّلِها غاية لِمُسْتَبْذِل » .

وتقول إحدى الكاتبات : « لقد رمانا القَدَرُ وسوءُ التربية ببَعْضِ المجازِفات المعتوهات اللائي قلَّدْنَ الراقصات في الاستحمام على الشواطئ ، ثم تبعهنّ غيرهنّ ، حتى أصبح الأمر شائِعًا بين كل الطبقات إلا مَنْ عَصِمَ ربُّك ، تمشي المرأة

المستهترةُ على الشاطئ كَمَن يتخبَّطه الشيطانُ من المَسِّ ، تجْمَحُ في الغِوَاية ، لا يكْسِرُ شكيمتَهَا قانونٌ ولا يكْبَحُ جماحَها شيءٌ ، تروحُ وتَغْدو بملابس الاستحمام الضَّيِّقة المهلْهَلَة ، وتَتَثَنَّى وتتلَوَّى وتتمايل وتختال ، ثم تَنْظُرُ إلى الجالسين ، وتطالع على وجوههم ، ماذا فَعَلَتْ كلُّ هذه الوَقَفَات في نفوسِهم ؟ وهل راقَهُم منظرُها أو أنَّهُم عليها ناقمون ؟! » .

« . . . كانت المرأةُ بليدةً فاترةً هامدةً ، لا تشعرُ بشيء ، ولا تحْفَلُ بمحاسن الحياة ومباهجها ، تَرْسُفُ في الأغلال ، تَحْيَى حياةً صامتةً كئيبةً قاتمةً ، وكان أنصارها يقولون بأنَّ كَثْرَةَ الضَّغْطِ تسبِّب الانفجار ، فصحَّتْ نبوءَتُهُم ، وها هي انطلَقَتْ على غير هُدَى ، واندفعت اندفاعًا فهدَّمت سياجَ الفضيلة بمعاول المدَنِيَّة والجهل ، فَمِنْ حجاب مَمْقوتٍ ، ومن خِدْرٍ مَكْنُونٍ لا تراه العيون ، إلى الشارع مكشوفَةً حافِيَةً عارِيَةً ، وَسْوَسَتْ لها المدنيةُ وخَدَعَتْها ، فحسِبَتْ أنَّ حريَّةَ المرأةِ هي الحرّية الخارجة على الحياء ، الهادِمة للآداب ! وغَفَا الآباءُ والأزواجُ ، وغَفَا أُولو الشأن ، وتسامحوا ، ولم يفكِّرُوا في إرهابِها وتخويفِها ومَنْعِها » .

« فهلْ جَرَى في ظَنّ أحدٍ يدعُو إلى السُّفورِ أنْ تخرجَ المرأةُ هكذا عاريةً من الفضائل ، عاريةً من الملابس ، لتواجه الشمس كما تدّعي ؟ » .

« فلو عَلَّمُوهُنَّ الدِّينَ لتطهَّرت نفوسُهُنَّ عن الدنايا ، لو علّموهُنَّ الدينَ لما زلَّت القدمُ ، ولكان لَهُنَّ دِرْعًا يقيهن شرّ الفساد » .

« وهل جرى في ظنٍّ أحدٍ أنْ تسكتَ الحكومةُ ويسكُتَ السادةُ العلماء ؟! وهل جَرَى في ظنٍّ أحدٍ أنْ تتفضّل إدارة المطبوعات بالغيرَةِ على الأخلاق فتطلب مَنْع نشر صور المستحمّات وتترك المستحّمات لحمًا مكدّسًا على الشواطىء ؟! » .

« والمرأةُ المستَهْتِرَةُ تعرضُ جسمَها على أنظار الناس تستجدي النظرات الخائنة ، تَطْرَبُ لها ، وهُمْ هناك على الشواطئ يحمِلُ بعضُهم بعضًا ، ويعبثُون ولا يتورَّعون ، لم ينشدْ لنا نصيرُنا قاسم أمين هذا الذي اخترعته المرأة وتفنَّنت فيه ، ولو كان يعلم الغيبَ لألقاها في غيابَةِ السجنِ لا تخرج منه أبدًا ؛ أراد قاسمٌ أن تتعلَّم المرأة وطَلَب مساواتَها بالرَّجُل » .

ونحن نقِفُ هنا وقفة ، فنقول للسيدة الكاتبة : بل هذا هو الذي نَشَدَهُ قاسم أمين وأضرابُهُ من أنصار السُّفُور ، وكان كلّ مَنْ له عَقْلٌ وخِبْرَةٌ بأهواء الرجال والنساء وميولهم الغريزية يعرفُ أنَّ عاقِبَةَ السُّفورِ ستكون هذهِ المخازي ، لأنَّ فكرةَ السُّفورِ حَصَلَتْ فينا تقليدًا للغَرْبِ ، وكُنَّا عالِمِين بأنَّ سُفُورَ المرأة الغربية غيرُ مُقْتَصِرٍ على كَشْفِ وجْهِها . ومما يدلُّ على كَوْنِنا لم نتَّعِظْ بعدَ هذه التجارب المخْجِلة لدعاة السُّفورِ فينا ، ظَنُّنَا بأنَّ السفورَ في الغرب لا يتضمّن تلك المخزيات المنافية للآداب والأخلاق ، حتى أصبح كالعادة عند الذين يجلسون للوعظ والإرشاد من دعاة التجديد الذي فيه السُّفور وغيره ، أنْ ينبِّهوا على الفَرْقِ بيننا وبين الغربيين في الاستعداد للحرية ، ويوصونا بمراعاة ٱلتَّدْرِيجِ إلى أنْ نبلغ مبْلَغَهم في العلم والرُّقِيّ ، ولكن لا العلم ولا الرقيّ ، ولا أيّ شيء ، لا يغلب على الطبيعة ، فالسُّفورُ على حَدّ انكشاف نساء الغرب ـ الذي هو قدوة الشرقِ اليوم ـ واختلاطُ المرأةِ بالرِّجال ، يكونُ لهما أثرُهما الطبيعي ٱلْبَتَّةَ إلا في النادر الذي لا يُبْنى عليه الحُكْم ، وليس ٱلتَّدْرِيجُ في السُّفورِ ولا الاستعدادُ له إلا تَدْرِيجًا في المفْسَدَةِ ، وإلا استعدادًا لما

ينجرُّ إليه ، فلا تَغُرَّنَّكُم كلماتُ دعاةِ السُّفُور المموّهة والقيودُ الاحترازية التي ذَكَروها لتبرير دِعايتهم .

ثم إنِّي أرَى الكاتِبة الفاضلة تأْسَفُ على عدم تعليم المرأة الدينَ ليكون لها وازِعًا ويقيها شر الفساد ، ونَرَاها مع ذلك توافق قاسم أمين على دَعوى مساواة المرأة بالرَّجُل التي لا يقبلُها الدينُ . على أني أقول مخالفًا للكاتبة : لَو علَّموهُنَّ الدينَ بالمعنى الذي يريدونه من الدين مِنْ غير أن يجمَعُوا إليه سَدّ أبواب الفِتَنِ وذرائع الفساد ، كالسُّفورِ واختلاط الجنسَيْن ـ الذي هو من الدين أيضًا ـ لما كَفَى وازِعًا وواقيًا .

* * *

وقال [أحمد الصاوي] كاتب (ما قَلّ ودَلّ) : « في البلاد التي تَحْبو إلى الحرية يكثُر التَّزَعْزُعُ الاجتماعي ، كالرجل الذي يظلُّ محجوبَ البصر بعد عملية جراحية في عينيه ، لا يستطيع أن يواجه النور ، فهو في حاجةٍ إلى بصيصٍ ضئيلٍ يتزايد شيئًا فشيئًا حتى يجيء يوم يواجه الشمس ساطعةً » .

هـذا أبلغُ مثالٍ يحاول أنصارُ السُّفور التدريجي أن يتمَسَّكوا به ، ومعنى هذا أنَّ مسرح (ستانلي باي Stanley by)

لو كان عَرَضَ على أهل البلاد بعد عشرين سنة مثلاً لما هالَهُم كما هَالَ اليوم حتى أنصار السفور مثل هذا الكاتب . وانظر إلى قوله : « كُنّا نهلِّلُ كُلّ مرة نسمع فيها بفتاة مصرية نابغة (وعدَّ هنا بعضَ الفتيات اللاتي تعلَّمْنَ في أوربة) نُهَلِّلُ ونكَبِّرُ ، ويقول ضعاف الأحلام والعقول : هذا إسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، وها هو الردُّ عليهم في (ستانلي باي Stanley by) فإننا يجب أن نَنْفُخَ في صُورِ الفضائل ونمجّد اللواتي يجلسن إلى مكاتبهن السنين الطوال ، يدرسن ويبذلن شبابهن في خدمة المجتمع ، فهؤلاء هُنَّ اللواتي يُحَضِّرْنَ هذا المجتمع للحرية العاقلة الرزينة الكريمة ، لا اللواتي يقْتَبِسْنَ آخر أزياء البيجامات من شاطىء (ستانلي باي Stanley by) .

من الغريب أن تكون (ستانلي باي Stanley by) ردًا على ضعاف العقول الذين يخالِفون الإسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، أليس في تكوين (ستانلي باي Stanley by) يدٌ لأنصار المرأة العصرية ؟! فلماذا إذن لم تكن (ستانلي باي Stanley by) موجودَةً في غابر الزمان الذي لم يوجَدْ فيه أنصار المرأة ودعاة السُّفور ؟! فها نحنُ بِفَضْلِهم وبفَضْلِ انتصارهم قد رَأَيْنَا بجنب النوابغ الثلاث اللاتي ذكرهن الكاتب ثلاثة

آلاف أو أكثر من اللواتي قال عنهن : « فالفتاة المصرية التي تعتَقِدُ نَفْسَها آية الآيات في الرشاقة والأناقة ، والتي بدأت تقتَبِسُ البيجاما السَّاحِلِيَّة الفضفاضة ، وتكشف عن فَخِذَيْها ونَهْدَيْهَا وظهرها وصَدْرِها ، والتي تعرف كَيْفَ تَحْدِجُ من وَرَاءِ الجُفونِ بِنَظراتٍ معسولةٍ فيها السرّ والخفاء ، والتي تُحْسِنُ الرقْصَ الحديث ، وتعرفُ كيف تتلاعَبُ بالألفاظ والقلوب ، هذه الفتاة المُحْدَثَة على الحرية هذه الحداثة ، هل تعرف ما تنشده ؟ والمرأة الأوربية التي تقلِّدُها اليوم الفتاةُ المصريةُ هي امرأة من بلاد عريقة في الحرية ، حرية اشتَرَتْهَا تلك البلاد بدمائها ، وفي مقدمة الصفوف النساء ، وتلك المرأة تعرِفُ كيف تُنَظّم بيتها ؟ وكيف تطرّز ثوبَها ؟ وكيف تعيش بالمَلِّيم والدانق ؟ وكيف تَرْبطُ ميزانيتها ؟ وكيف تربِّي إلى جانب هذا كلِّه وقبل هذا كلّه ولدها ؟ فهي اشترت حريتها بثمن باهظ ، اشترته بما بذلته من دَمٍ وتضحيةٍ وإجهادٍ ، إنها اشترت الحرية على مدى أجيال » .

الكلام في تبذّل المرأة الشرقية المقلِّدة ، وإسرافها في الانكشاف والخلاعة ، ولا علاقة له بكون المرأة الأوربية تعرف كيفَ تنظِّم بيتها وكيف تَرْبِطُ ميزانيتها . . . الخ ، فلعلّ

الكاتب يغفر للمرأة المصرية إسرافها في التبذّل والانكشاف لو عرفت ما تعرفه الأوربية ، وكان ما يلزمه أن يقول : إنَّ المرأة الأوربية لا تسرف هذا الإسراف في الانكشاف والإغراء بالرجال ، لكنه لا يستطيع هذا القول ، ولو استطاعه لكفاه أقواله في خارج الموضوع ، مثل كون المرأة الأوربية من بلاد عريقة في الحرية ، واشترائها الحرية بثمن باهظ ، مما لا يبرّر شيءٌ منه إسرافَ المرأة في الانكشاف ، نعم! إن نساء الشرق ، ولا سيما المسلمات ؛ اشترينَ الحريةَ من غير ثمنٍ بفَضْلِ الرجال المحامين المتطوِّعين ، وكيفما كانت المرأة نالت حريتها بثمن باهظ أو رخيص أو من غير ثمن ، وسواء كانت في الشرق أو الغرب ، فسُفورُها بالمعنى العصري لا يخلو عن إفسادها ، وأكرِّرُ لكِ قولي بأنْ لا يَغْرُرْكَ تقلُّبُ الكاتِبين عن السُّفُور في الكلمات الخلّابة الفارقة بين نسائنا ونساء الأوروبيين الرامية إلى أنَّ السفور لا يضرُّهنَّ ، والموهِمَةِ بأنّ نساءَنا إذا ارتقَيْن مثلهنّ فلا يضرّهن السفورُ أيضًا ، وليس الذنب في السفور ، وإنَّما في إساءة استعماله ؛ فأمثالُ هذه الاستدراكات من دُعاة السفور إنَّما يُقْصَدُ بها سَدْلُ ستارٍ من التضليل على جناية السفور الفاضحة ، والعجبُ أنَّه

يندرُ مَنْ لا يَنْخَدِعُ بها مِنْ أصحاب القلوب الصافية ، فيُؤمِنُون بالفَرْق بين المرأتين ، ويعتذرون به عما وَصَلَ إليه حال المرأة المسلمة من السفُورِ ، ويَعْقِدون الأملَ على رقيِّها مثل الأوربية حتى تخلص من تبذُّلِها الحالي . عَمَّتْ هذه الفكرةُ ، ولم ينجُ من تأثيرها ـ وعلى الأقل من بعض تأثيرها ـ حتى الوسط الديني ، فقد قرأتُ مقالة قيِّمة في مجلة دينية أجاد كاتِبُها في شرح مضار الحضارة الغربية بالمرأة المصرية ، وفي ضمن هذا الشرح قوله : « وَرِثْنا مِنْ الحضارة غير الإباحية المُطْلقة للفتاة بدعةً جديدةً ، هي بدعة العِشْرَة قبل الزواج ، [وَهِيَ] منتشرةٌ في المدن المصرية على وجه الخصوص . وأصبحْنا نحاكي الفرنجة في هذا الضرب من ضروبِ الإقدام على الزواج ، ولكن مع الأسف الشديد هم ناجحون في خِطَّتِهم في غالب الأحيان ، ونحن مُخْفِقونَ في كلِّ حين ، وهم مُوَفَّقون ، ولكنَّا لن نوفَّق ولو بعد حين ، ذلك لأنهم يُحْكِمون ترتيب الخطة ، جادُّون في عَمَلِهم ؛ وأما نحنُ فمُقْدِمون عليها بلا ترتيب ولا نظام والاستعداد ، عابثون فيها أشدّ العَبَثِ » .

والحَقُّ الذي يَليقُ بأنْ يُقال في مثل تلك المقالة القَيِّمة

الداعية إلى سواء السبيل ، أنّ العِشْرَةَ قبل الزواج تضرُّ في كلِّ بلدةٍ شرقيّة أو غربيّة ، ولا ينفع معها إحكام النظام ما دام الفتى يختلي مع الفتاة ، كما أنّ الحقَ الحقيقَ بأنْ يُقال في السفور العصري : إِنّه يضرّ بالمرأة الشرقية والغربية معًا ، ولا يمنعه من ضَرَرِهِ رقيُّ المرأة الغربية ، وَحَسْبُكَ وحَسْبُها أنّها تدخل الحفلاتِ الراقصةَ الخاصّةَ بطَبَقَتِها ويخاصرُها فيها غيرُ زوجِها ، وهي في ثوب السهرة الذي لا يستُر من جسمها إلا قليلًا ، وينمُّ عَمَّا تحت القسم الذي يستره ، وحَسْبُك ممّا تعرفه من رقيّ المدنية الغربية أنها تعتبر ٱلغَيْرَةَ التي جُبِلَ عليها الإنسان من المعايب وتُرَوِّضُه على التخلُّص منها ! بل إنَّ هذا التوسُّعَ المُبْتَذَل في السفور إلى النحور والصدور والظهور والأذرع والأفخاذ ليس إلا صنع أوربة ، لم تكن تعرفُهُ المرأةُ الشرقية ، لا سيّما المسلمة ، وإنَّما تعلَّمَتْه من المرأة الغربيّة ، حتى إِنّ مناظِر (ستانلي باي Stanley by) الفاحشة الممقوتة بعينها من هدايا الغرب ، ولم تكن الفواحش في مصر وغيرها مِنْ قَبْلُ مبسوطةً في عراء البر والبحر ، وإنَّما كانت منحصرةً في مكامِنِها ، لكن دعاةَ الشرق للغرب لا يزالون يزكُّون المرأة الغربيّة ويمجِّدُونها بين الإنكار على

فضائح السفور في الشرق بالرغم من كون المرأة الشرقية أخذَتْها منها ، يزكُّونها لئلا يَتَضَعْضَع صرح مبدأ التقليد الذي سعى أنصار السفور في بنائه أيّ مَسْعاة .

فاعلمْ هذا ، ولا تستَمِعْ إلى أحاديث الفَرْقِ بين المرأة الشرقية والغربية ، فعند ذلك تكُونُ ذا فكرةٍ تامةٍ في مفعول السفور واختلاط الجنسين السَّيِّء ، واحذرْ أن يجعلك المضلِّلون نصفَ عدوٌّ لهما ونصف نصير . والذي أقصده من كتابتي فِي هذا الموضوع هو التنبيه على مثل هذه النقط الدقيقة ، وإلّا فما أكثر ما كُتِبَ ضد السفور حتى من أنصاره أيضًا حين جُبِهوا بمخازي المستَهْتِرات ، وأكثر الكاتبين أفصحُ مني قلمًا .

نعودُ إلى أقوال كاتب « ما قلّ ودَلّ » ومنها : « ماذا نرى في (ستانلي باي Stanley by) ؟ هل هو وَسَطٌ شرقي ؟ هل هو وسَط غربيّ ؟ لا هذا ولا ذاك ! إِنَّهُ خليطٌ ، إنَّهُ خليط شنيعٌ مدهشٌ متضاربٌ كما لو كان قد امتزج هنا عدوّان لدُودان ، وكُلُّ عدّوٍ منهما مع ذلك عَدُوٌّ لنَفْسِه ، كالشيطان . فيا لها من بيئةٍ لا تُعرَفُ لها عقيدةٌ ! ولا مذهبٌ ! ولا مبدأٌ ! ولا دينٌ ! هنا صراعُ الطَّيْش والتردُّد والاستهتار والحياء والصراحة

والتَّذَبْذُب والبُكُورةِ والفُجور » .

وهذا الكاتب الذي يبكي هنا ، فيما بكى ، على الدين ؛ كَتَبَ في قولٍ آخر له جوابًا لخطابٍ وارد إليه يقولُ صاحبُهُ :

« في أثناء دراستي بالخارج رَبَطَتْني وإحدى العائلات هناك صداقةٌ قويةٌ ، انتهت بشروعي رسميًا في خطوبة آنسة من العائلة ، ولكنِّي علَّقْتُ الزواج على موافقة أسرتي ، وتصادف رجوعي بالإجازة إلى مصر ، وكنت في زيارة صديق لي ، وجرى حديثُ الزواجِ ، فرويت له أمري ، وأطلَعْتُهُ على صورة الخطيبة ، فَنَهَاني عن ذلك ، وعرض علي الزواج من إحدى بنات بَلدِهِ ؛ وفعلاً تمَّ كلُّ شيء ، وأخذت وعدًا رسميًا بذلك ، وفَسَخْتُ خطوبتي مع الآنسة الأجنبية .

انتهت دراستي ، وحضرتُ نهائيًا إلى بلدي ، وما كان أشد دَهْشَتي عندما وجدت صديقًا من أعز أصدقائي قد استولى على خطيبتي المصرية بعد أن قال عني لعائلتها ما قال مالك في الخَمْرِ !

فلو أنّ آنسات الطبقة المتوسطة التي نرغب في الزواج منها يوجَدْنَ بِكَثْرَةٍ وبكيفية يسهل معها التعارف بهن لما كانت هناك أزمة للزواج ، ولما تعدّى الصديقُ على صديقه بمجرَّدِ

العثور على آنسة متوسطة في العلم والأدب والجمال والمال ، الأمر الذي نرغبه جميعًا في كل زوجة .

فهل للأستاذ أنْ يساعدَنا على هَدْمِ هذا الحجاب الذي يفصل العائلات عن بَعضها ، وأَنْ يعملَ على تهذيب بعض عوائدنا الاجتماعية ؟ » . ع . ج

فأجاب عنه الكاتب بما نصُّه :

هذا داءٌ قديمٌ عضالٌ ، تعبنا فيه كثيرًا ، وآلامهُ تتجدَّد أبدًا . وقد طالَ الحديثُ في هذا الشأنِ حتى مَلَلْناه ، ولكن الأزمة الخطيرة التي يعانيها الشبان والفتيات في مصر هي الكفيلة وحدها بأن تحلّ هذا الموقف المُزْرِي حلًّا عاجلًا حاسمًا حكيمًا لمصلحة العائلة المصرية ، فليس يُرْضينا أن نَجِدَ ألوفَ الفتيات المصريات العاقلات الطاهرات يَفْنَيْنَ في زوايا البيوت ويذوي شبابُهُنَّ ويقضين حياتَهُنَّ في هواجس وخيالات وأماني كاذبة ، ويقعن بالزواج الطائش أو الزواج الجاهل في حَيْصَ بَيْص ، كأنَّهُنَّ ارتكَبْنَ ذنوبًا يُكَفِّرْن الآن عنها !

والقول بأنَّ الاختلاطَ يؤدِّي إلى الفوضى هو قول مُبْتَذَلٌ لم يقمْ عليه أيُّ دليلٍ ، لأن الفسادَ بصورَتِه الراهنة شنيع

جدًا . وقد ارْتَضى الشبّانُ حياةَ العزُوبَةِ لأنَّها لا تُكَلِّفُهُم كثيرًا ، في حين أنها تكلِّفُ الفتاةَ شبابها ، وهو أثمن ما تَمْلِكُهُ .

[أحمد] الصاوي

انظر إلى عَدِّه القولَ ضدّ الاختلاط قولًا مبتذلًا ! مع أنَّهُ الموافق لقول الإسلام ، فانظرْه مع ما عاب على ممثلي (ستانلي باي Stanley by) مِنْ أَنَّهُم لا يعرفون عقيدةً ولا مَذْهبًا ولا مبدأ ولا دينًا . فهل للكاتب مذهبٌ يثبُتُ عليه ، وأيّ دينٍ يبُيحُ الاختلاط والعِشْرَةَ قبل الزواج ؟ وهي العِشْرَة التي نقلْنَا بعض الشكايات المُرَّة فيها عن الكاتب الآخر المخلص لدينه . وقد سَمِعْنا عندما كنا في بلاد اليونان شكايات بشأن تلك العِشْرَة عن أفواه المسيحيين ، ولا يدري الكاتب الذي يحكم بأنَّ الفسادَ بصورته الراهنة شنيعٌ جدًا ، أنَّ الفسادَ يصيرُ أَشْنَعَ عند توسع الاختلاط كما يحبّه ، وربما يحضر (ستانلي باي Stanley by) أفواج من الفتيان والفتيات تمضي أيام العِشْرَة قبل الزواج ، وربَّما يحصلُ فيها التبادل بالأزواج المستقبلة ، ومما يُسْتَغْرَبُ على الكاتب بعد أن رأى (ستانلي باي Stanley by) وأنْكَرَهُ ، قوله بعدم قيام أيّ دليل

على القول بأن الاختلاط يؤدِّي إلى الفوضى ، مع أن (ستانلي باي Stanley by) ليس إلا معرض الاختلاط ، وهل لا يعرف السائل الغافل الذي يشكو من الحجَابِ ويطلب الاختلاط ويشكو مع ذلك من صديقه المستولي على خطيبَتِهِ ، أنَّ الاختلاط يعبِّدُ السبيل إلى استيلاء الصديق على زوجة صديقه فضلاً عن خطيبته ؟

أما قولُ الكاتب : « فلا يُرْضينا أن نجد ألوفَ الفتيات المصرية يفنين في زوايا البيوت ويذوي شبابُهن » فمغالَطَةٌ مرماها تدعيمُ ما يدعو إليه من حياة العِشْرَةِ قبل الزواج بأزمة الزواج الحاضرة ، فهو يدعو المصريين إلى أن يَسِيموا بناتَهم ويَزجُّوا بِهِنَّ في الشوارع يبحثْنَ عن أزواج ، ويلقين فتيانًا يتبادَلْنَ معهم المحبّة ، ويعاشرْنَهُم بُرْهَةً من الزمان قبل الزواج ، مع أنَّ الكاتب وأمثالَه يعرفون كما يعرفون أبناءهم أنَّ أزمة الزواج أشدُّ في الأمم التي تصرح لبناتها بهذه العِشرَة قبل الزواج مع مَنْ يَشَأْنَ من الشُّبَّان ، لأنَّ الشُّبَّان الَّذِين ذاقوا حلاوةَ هذه العِشْرة وضَرُوا بها يَسْتَغْنون عن الزواج وأمامهم التفنّن في اختيار المعاشرة ، أو تُزَعْزِعُ هذه الحياة المختلطة بالفتيات ثقتَهُم بهنّ ، فتحذِّرهم من الزواج ، ويَكْتَفُون عنه

بِشِبْهِهِ ، وتَبُوءُ الفتياتُ بتَمْتِيعِهِمْ مِن حُبِّهن . نعم ! وأنَّهن أيضًا يَتَمَتَّعْنَ من حُبِّهم الوقتي المسْتَمِر مدى العِشْرَة ، فلا يكون شبابهن قد ذَوى في زوايا بيوتهن سُدى ، فهل يُرضي هذا العِوَضُ الذي يكسبْنَهُ حضرةَ الكاتب الساعي في مصلحتهنَّ ؟ أمّا موقِفُهُنَّ بعد انتهاء سوقِ هذه الحياة إلى الكساد ، سواءٌ عدْن إلى زوايا بيوتِهنّ وهُنَّ أشباه أرامل ، أو بَقين مُلْقَياتٍ في الطُّرق ، فلا يهمَّ كاتبُنا الاجتماعي !

فالحقُّ أنَ العِشْرَةَ قبل الزواج تُعَرْقِلُ الزواجَ وتزاحِمُه بِشِبْهِهِ عكس ما ادعاه أنصار السُّفور والاختلاط ، حتى إِنّ المعاشِرَات أشباه الزَّوْجات يزاحِمْن بنات البيوت والخُدور ، فَيُمانِعْنَ زواجَهُنَّ أيضًا ؛ كما يُفْسِدْنَ الزواجَ على أَنْفُسِهِنَّ ، وعليه يَنْبَني غَلَطُ الكاتب أو مغالَطَتُهُ ، فلو أوَتِ الجميعُ إلى بيوتِهنّ وخُدُورِهِنَّ لما وَجَدَ الشبابُ مَنْ يتلاعَبُ بها من الفتيات ، ويَسْتكِفُّون ، فَيَنْفُقُ سوقُ الزواجِ كما كان نافِقًا قبل أن أعْدَتْ عادةُ العِشْرَة قبل الزواج من الغرب إلى بعضِ بنات المسلمين .

ولماذا لا يَخْتارُ صاحبُ الخِطاب مَن يتزوَّجُها من بين السافرات المتأهِّبات للعِشْرة ، وهُنَّ موجودات في مصر ،

حتى شكا كاتب المقالة في المجلة الدينية من انتشار هذه البدعة في بلدانها ؟ فلماذا لا يكْتَفي صاحب الخطاب بهنّ فيبغي لحوقَ الصالحات الباقيات بالفاسدات ليصطفي زوجته من السافرات القريبات العهد بالاحتجاب ؟!

واستَمِع إلى خطاب آخرَ كَتَبه دكتور إلى كاتب « ما قَلّ ودلّ » :

آلمني ما قرأتُ اليومَ وأمسِ عن حادثتي الطبيبَيْن ، ولكن ألا ترى أن الشرّ موجودٌ في كل مكان ولولاه لما شَعَرْنا بالخير ! وهل نسيتَ أنَّ مِثْلَ هذه النفوس الشريرة موجودةٌ في كلِّ مِهْنة ، وأنَّ الواجِبَ يقضي علينا أنْ نَقِفَ في وجه كلِّ مَنْ وَضَعَ في يَدِهُ شرف أسرة فامْتَهَنه ؟ ولكن ما رأْيُكَ يا عزيزي في حالتي المؤلمة وقد ذكرتها لك منذ ثلاث سنوات ؟

لقد عشتُ أكثر من عشرين عامًا أحِبُّ فتاةً لم أكلِّمْها مرةً واحدةً في حياتي ، وخطَبْتُها رسميًا من أبيها ، ولكنّه مات ، فضاع بموتِهِ كلُّ وَعْدٍ . طَلَبْتُها من أخيها ، فماطَلِني خمس سنوات ، ومن أجلها ، وهي الفتاة التي لم أعرف عنها شيئًا غير أني رأيتها واطمأْنَنْتُ إلى مكانة أهلها الأدبية والأخلاقية ؛ من أجلها فقط تركتُ فُرَصًا كبيرةً منذ عشرين عامًا ـ سواء أكان

في مصر أو في أوربة ـ تركتُ كلَّ ذلك لأنِّي أعتقد يومًا أنّها تعلم أني أريدها زوجةً ، فحافَظْتُ على كلمتي عشرين عامًا وأكثر ، وأخيرًا اتفقتُ مع أخيها في صيف العام الماضي في إسكندرية بلدِها أنّي لَنْ أسأله عن أيّ شيء يتعلّقُ بما يخصّها عن أبيها ، وأنِّي أقومُ مِنْ جهتي بشراء كلّ ما يلزم للمنزل من أثاث ، وذلك كي لا أُحمِّلُهُ دفعَ مليمٍ واحدٍ في جهاز أخته . وفعلاً اشتريت كلَّ شَيْءٍ ، حتى علب المِلْح والفُلْفُل ، وصرفتُ في ذلك أكثر من ٢٨٠ جنيهًا ، وكتبتُ له بذلك ليحضر ويشاهد بنفسه ما اشتريتُ ، وليختار بنفسه لأخته سَكَنًا في أي جهة في القاهرة . أتدْرِي ماذا فَعَل ؟ إنه لم يردّ على خطابي ! وأخيرًا كتبتْ أختي لوالدته ، فكان الردُّ بعد انتظار عشرين عامًا : لا يمكن أن تَتَزَوّجَ قبل الكبيرات ! وهن أربع . والأدْعى للسخرية أنها قالت لها : أنَّ المنجِّمَةَ أخبرتْهُنَّ أن الزواج يكون تعيسًا ، وأحسن شيء قولي لأخيك أن يبحث عن زوجة أخرى ، أمّا الجهاز الذي اشتراه فله أن يتصرَّفَ فيه كيف يريد ! .

لقد انتظرتُ عشرين عامًا لأسمع بعد ذلك حُكْم المنجِّمَة ، واشتريتُ كلَّ شيء لأني أخذتُ وعدًا من رجلٍ

ظَنَنْتُه شريفًا . ستقول : ولماذا لا تتَّصِلْ بها شخصيًا ؟ فأقول : إنَّ هذا من المستحيلات ! فهن يعشْن في القرن الثامن عشر ، وفي منزل أشبه بحصون القرون الوسطى ! إنها لا تعرف السينما ، وتستغرب كيف أنَّ السيدات يخرجن الآن سافرات ! وهي من الإسكندرية وفيها ! ولم ترَ البِلاج [= الشاطىء] للآن . كنتُ أظنُّ أنِّي أريها العالم وأفرِّجها على الدنيا وهي لَمَّا تزل خامًا ، ولكني أخطأتُ يا عزيزي ، لأني نسيت أن روحَيْنا ربما لا تمتزجان ، فأنا في الحقيقة لا أعرفُها ، ولكني كَيَّفْتُ منها مدة عشرين عامًا الزوجة الملائكية [المثالية] التي كنت أتخيلها An Ideal Wife ، وبذا أضعتُ حياتي وخيَّبتِ المنجِّمةُ آمالي ، المُنَجِّمَةُ التي تحكَّمَت في مستقبل شاب عاش في أوربة وهو من بيئة متعلمة أبعد ما يكون عن الخُزَعْبلات .

فما رأيُك ؟ وأنا طبيب ، ألا ترى أن في زمرتنا لا يزال هناك أناسٌ كثيرون يراعون الشَّرَفَ والصِّدْقَ والوفاء ؟

الدكتور محمود . . .

فأجابَه :

لست أشكُ يا أخي لحظة في أن في الأطباء نماذج مُثْلى للخُلُقِ الكريم . بل إنّ طائفتَهُم في مجموعها هي عندنا من أشرف وأكرم الطوائف العامِلة .

أمَّا مسألَتُكَ فخطيرة بقدر ما هي حَزِينة . فقد رأيتَ طفلةً وقدَّسْتَها وجعلْتَها أمَلَكَ ومُناك ، وسافَرْت ، وكبرتَ ، وتعلمتَ ، رجاء تزوّجها ، وقد أسْدَتْ إلَيْكَ هي ، دون أن تدري ، جميلًا إذ حَفِظَتْكَ من الشرور ، وأخَذَتْ بيدِك في العلوم ، وجعلتْك تفوز وتتفوق وتصبح رجلًا عاملًا نافعًا في بلادك . ورأيتَ كُلَّ الدنيا من غير أن تَنْساها !! فماذا تُسَمِّي ذلك ؟ إنَّهُ وفاءٌ فِعلًا ، ولكنّه في غير موضعه الآن . أنْتَ تفي لشخْصٍ إمَّا أَنَّه مسلوبُ الإرادة والفِكْر ، وإما أَنَّه قد نَسِيَك تمامًا ، لأنَّه لا يزعمُ لنفسه كلَّ هذا الوفاء بعد نظرةِ طفولةٍ بريئةٍ ، فلماذا تحرقُ دَمَك ، وتسجنُ نفْسَك في سجن ضيق مع شبح لا وجود له ؟! إننِّي واثق من أنّك لو رأيْتَها اليومَ لأنْكَرْتَها . فقد تباعَدَ ما بين تَرْبِيَتِك وتربيتِها ، وقد سافَرْتَ أنْتَ ورأيتَ العالَمَ ، بينما هي لم تعرفْ من الإسكندرية قليلًا

ولا كثيرًا . إنَّ الفُرَصَ أمامَك سانحةٌ ، ففي بنات وطنك كثيرات يتمنَّيْنَ أن يفتحن لك أبواب السعادة ، فاغْتَنِم ما بقي من العمر ، والله يقيِّضُ لتلك الفتاة الشهيدة مَنْ يُنْقِذُها .

[أحمد] الصاوي

كان الواجبُ على الأستاذ الكاتب أن يَعْتَبِرَ ويُفَكِّر من حال صاحب هذا الخطاب الذي يعْتَرِفُ الكاتِبُ بأنَّه من النماذج المُثْلى للخُلُق الكريم ، وهو لا يسأل الكاتِبَ المساعدةَ على هَدْمِ الحجاب ، كان الواجب أن يَعْتَبِرَ ويُفَكِّرَ ماذا الذي حَكَم على شاب يتعَلَّم في مصرَ وفي أوربة مَحْشَرِ النساء الفاتِناتِ السَّافرات ، ويمكُثُ عشرين عامًا مربوطًا بفتاة من مصر لم يَرَها إلا مرةً أو مرتين ، ولم يكلِّمْها كلمةً ، ولم يَعرِفْ عنها شيئًا غير مكانة أهلِها الأدبية ، وغير أنَّها لا تعرفُ السينما ، وتستغرب كيفَ أنّ السيدات يخرجن الآن سافرات ! وهي من الإسكندرية ! وفيها ! ولم تَرَ البلاج [= الشاطىء] للآن ! أليس هذا سِحْرُ الحجاب ؟ بلى ! وهو الذي خَيَّلَها له زوجةً من الملائكة ، فلم تمْلأ عينَيْهِ السافراتُ الحِسانُ ، وجعله يعدُّهُنَّ مُبْتَذِلات .

قد أكثرتُ النَقْل عن الكُتَّاب ، لاسيما عن كاتب « ما قَلَّ ودَلَّ »[١] [أي : عن أحمد الصاوي] بنصوصهم ، وإن طالتْ كما هو دَأبي ؛ لئلّا يكون قراء مقالتي قد سَمِعُوني فحسب ، بل سمعوا معي المعارِضين الذين لم يُنْتَقَدْ عليهم ، وهم ممن يَعْبَأُ الناسُ بكلامهم ، وقليلاً مّن يؤيدُ أقوالُهُم دعوايَ من الموافِقِين والمحايدين ، كل ذلك في مقالة واحدة .

وقال كاتب « ما قل ودل » أيضًا [أي : أحمد الصاوي] ، وهذا آخر ما أنقلُهُ عنه :

رأيتُ رجلاً فاضلاً ، ذا مركز مُمْتازٍ وخلقٍ قويم ، يجرُّ ولَدهُ الصغيرَ بيَدِه ، يسيران مُتَثاقلَين ، كأنَّ كلّاً مِنْهُما عبءٌ على صاحِبِه ، ودخَلَ الأبُ قربَ وقت الغداء دكّانَ بَقَّالٍ ليحمل طعامًا جاهزًا من العلَب المحفوظة أو الجبن والزيتون والحلوى ، لأنَّ بيتَهُ بغَيْرِ امرأةٍ ! .

فلماذا ؟ هل ماتَتْ أمُّ الولد ؟ كلا ! ولكنَّها شَرٌّ من مائتة . إنَّها امرأةٌ أجْنبية آواها وأعطاها اسمَه بعد ما لَفَظَها أهلُ

(١) هي سلسلة مقالات كان يكتبها أحمد الصاوي في جريدة الأهرام . بسام .

بَلَدِها ، وكان يَحْرُمُ نفسَهُ لتسافِرَ هي كلَّ صيفٍ إلى أهلها في أوربة ، فلم يُثْمِرْ هذا فيها ، بل تركَتْ له أولاده طالبةً الطلاق ، وطُلِّقَتْ فعلًا ، وتزوَّجَتْ من صديقٍ له .

لو كانَتْ مصرية لكان في الأمر نَظَرٌ . كنا نقول : إنَّ أهلها زوَّجُوها رغمًا عنها من رجل لا يستحق الحبَّ ، ولكنَّها أجنبية ، هَجَرَتْ بلادَها بمحْضِ اختيارها ، وعَرَفَتْ زوجها الشهورَ أو السنين قَبْلَما تتزوَّجُهُ .

فهذه الطائشَةُ تَسْتَبْدِلُ الرجالَ كما تشاء . أخذتْ شبابَ رجلٍ وأعطته أولادًا ، ثم زَهِدَتْه وتَخَلَّتْ عنه هو وأولاده لتأخذ شباب رجلٍ آخر وتعطيه أيضًا أولادًا .

ليس الذّنْبُ ذَنْبَها وحدَها ، وإنَّما أَيْضاً ذَنْب الذي أغواها ، فهذا الرَّجلُ الذي يدخُلُ بيتَ صديقٍ له ولا يَتَحرَّجُ مِنَ النظر إلى زوجَتِه نظرةً خائِنَةً ، ثم لا يتحَرَّج من إغوائها ، ثم لا يَتَحَرَّجُ مِنْ مُصاحَبَتِها ، ثمَّ لا يتحرَّجُ مِنْ تَطْلِيْقها ، غير مكتَرِثٍ بالصديق والصداقة ، هازِئًا بحُرمة الزَّوْجِيّة وحُرْمَةِ الأمومة والأبوة . . هذا الرجلُ ، بماذا يُحْكَمُ عليه ؟! .

مروءةُ الرِّجالِ تَقْتَضي بأنَّه إذا رأى المرءُ بادرةَ هذا الحبِّ

الشائِن وَلّى الأدبار ، ووضَعَ بينَه وبينَه حَدًّا ، لأن في هذا الحبِّ خرابًا ودمارًا . أيُّ مشهدٍ أشدّ ألمًا للنفس من رجلٍ يجرُّ قدميه ويجرُّ ولدَيْه ساعةَ الغذاء في الطرقات ليشتري من بقّال طعامًا ، لأنه لا يسيغ للطعام مذاقًا ، لأنّه مطعونٌ في قَلْبه بخِنجَرٍ من يد صديقِه ومن يَدِ زوجَتِه ؟!

[أحمد] الصَّاوي [محمد]

ينسى الكاتِب حين قال : « لَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبَها وحدَهَا ، وإنَّما أيضًا ذنبُ الذي أغواها ، فهذا الرجل الذي يدخلُ بيتَ صديقٍ ولا يتحرَّج من النظر إلى زوجته نظرةً خائنةً . . » المذنب الثالث وهو الرجلُ الذي رَثى له الكاتبُ ، أعني الزوجَ الذي أدْخَلَ أصدقاءَهُ على زوْجَتِهِ ، وهي قد تكون مَلَكًا في الجمال ، ولن تكون مَلَكًا في الطبيعة ، وكذلك الأصدقاء . ومع أنَّه يَنْسى المُذْنِبَ الثالث لا يذكر منشأ الذَّنْبِ والفَسادِ ، وهو السُّفورُ والاختلاطُ ، وبذلك يكون الكاتِبُ قد نَسيَ المذنب الرابع أيضًا ، وهو كل مَنْ يدعو للسُّفورِ بلسانِه أو قَلَمِه ويدافع عنه ، والله لا يَغْفِرُ لهذا المُذْنِبِ ، وإنْ غَفَرَ للأوّلين ! ومحطُّ العَجَبِ كلِّ العَجَبِ أنَّ الكاتِبَ لا يرى نَظَرَ الأصدقاء الداخِلين على زوجة الرجل نظرةً خائنةً طبيعيًا ،

بمعنى أنّه مقتضى الطبيعة المُنْتَصِرة على كل شيء ! فهذه الحكايةُ المنشورةُ بقلَمِ الكاتِب الذي هو من ألدّ أعداءِ الحجاب حجةٌ قاطعةٌ عليهم ، وأنَّهم مَهْما أنكروا الحقَّ الواضِح ، وأصرُّوا على دعواهم ، فهي لا بدّ أن تَفْضَحَهُم بلسانِ المَشَاهِدِ ، مثل (ستانلي باي Stanley by) ! ولا بُدّ أنَّهُم مخرِّبون بيوتهم بأيديهم ، كما وَقَعَ لكاتب (ما قل ودل) في هذه الحكاية .

* * *

ومِنْ أباطيل القاصرين لمضرَّةِ السُّفورِ على المرأة الشرقية التي تقلّد المرأة الغربية ، قولُهم : إنّ الرجلَ الغربيَّ يرى منذ طفولَتِه النساءَ عاريات الأعضاء الكثيرة ، وينْشأُ بَيْنَهُنَّ ، فلا تهيِجُهُ رؤية تلك الأعضاء ، في حين أنّها تهيجُ الرجلَ الشرقيَّ الذي لم يألفْ رؤْيَتَها ، وهو حديثُ العهد بها . وهذا قولٌ باطلٌ ، وإن كان في صورة الحقِّ مِنْ حيث إنَّهُ متضَمِّنٌ لتَحْذيرِ المرأةِ الشَّرْقِيَّة من تقليد الغربية ، حتى إنَّكَ تَحْسَبُه من كلام أعداءِ السفور ، لكنَّه مِن ناحية أخرى يبيحُهُ لها في المستقبل إذا تقادَمَ عهدُ السُّفور فينا وحصلَتِ الأُلْفَةُ به لعيون رجالِنا ،

بل إنَّ مَغْزَاهُ إباحةُ سفورِها حالًا بتخفيف وَقْعِه في النفوس وطَمْأنَتِها بالأُلْفَة المسْتَقْبَلَة ، وهو مع هذا مَبْنيٌّ على دَعْوى غير صحيحة من كَوْنِ الرِّجَال في الغرب لا يهتمُّون برؤْيَةِ ما تكشفه النساء هنالك من أعضاءٍ لها جاذبيتُها ، فهل نساءُ الغرب إذَن يَعْمَلْن ما يَعْمَلْنَ من التأنّقُ والتفنُّنِ في الانكشاف عَبَثًا لا مطمح لَهُنَّ به ولا مَطْمَعَ عند الرجال ؟ وهل ليس هناك أيضًا مطمَحٌ عند النساء للرجال الَّذين وضَعُوا أُسُسَ المدنِيَّة الغربِيّة ومراسِمَها الاجتماعية حين أدخَلوا فيها حفلات الرقْص مع النساء ومخاصَرَتِهنّ في أعرى ما يكون عليهِنَّ من لباس الزِّينَة ؟ فهل هُمْ عابِثُونَ بعقول أنفسِهم ؟ وهَلْ هُنَّ عابثاتٌ بعقول أنفسهِنّ ؟ أم المدَّعون مِنَّا بأنَّ المرأةَ الكاسِيَةَ العارِيةَ في الغَرْبِ لا تثير رغبةَ الرجل ولا تثير عينَيْهِ ، عابِثون بعقول الشرقيين المسلمين ؟! فالحقُّ أنَّ هذه جراَةٌ غريبةٌ مذهِشَة من دُعاة السفورِ ، تدُلُّكَ على مَبْلَغِهم في الإقدام على هَذْرِ القَوْل ، وأغرَبُ منه اقتناعُ كثيرٍ من العُقلاءِ بقولِهم هذا ، مع كونِهِ من الوَهْنِ بحيثُ لا يقاوِمُ شيئًا قليلًا من النَّظَرِ والتَّفْكير .

نعم ! إنَّ للغَرْب أُلْفَةً بإسراف النساء في السُّفورِ والاختلاط بالرجال مع الأُلفَة بما ينطوي ذلك عليه من

المفاسد ، فيظنُّ الغافِلُ أنَّ السفورَ والاختلاط لا يفعلان في تلك البلاد فعلهما الطبيعي ، وقد لَفَتْنا النَّظَرَ فيما سَبَقَ إلى أنَّ النساءَ السافرات لا يكتفين بالكشْفِ عن أعضائِهن بحدّ ما يكشف عنه الرجال من أعضائهم ، في حين أنَّ غاية ما يُطْلَبُ لهنَّ من الحُقوق هي المساواة بالرجال ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ مَغْزَى لِهذا الفَرْقِ العظيم بين الجنسين في التلبُّسِ والتَّعَرِّي ، ولا بُدَّ أنْ يكون مَغْزاهُنَّ في الميل إلى التعرِّي ، سواء كان في الشرق أو الغرب ، هو تغذية عيونِ الناظرين . ولو صَفَحْنا عن وجود هذا القصد فيهنّ ، فالتغذِّي حاصِلٌ لا محالة ، فالشرع الإسلامي الذي يقول : « العَيْنَانِ تَزْنِيانِ ، وَاليَدَانِ تَزْنِيانِ » [« صحيح ابن حبان » ، رقم : ٤٤١٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٨٢٢١ ، ٧٦٦٢ ، ٨٣٩٢ ، ٨٦٢٦ ، ٩٠٧٦ ، ٩٢٧٩ ، ١٠٤٤٨ ، ١٠٥٢٨ ، ١٠٥٣٧ ، ٨١٥٦ ، ٣٧٤٣٠ ؛ وراجع البخاري ، رقم : ٦٢٤٣ ، ٦٦١٢ ؛ مسلم ، رقم : ٣٦٥٧ ؛ أبو داود ، رقم : ١٨٤٠] وطَبْعُ المسلم الغَيُورِ على عِرْضِهِ لا يقبلان أن يستَمْتِعَ من المرأة بأيِّ صورةٍ من صور الاستمتاع مَنْ لا حقَّ له في ذلك .

ومن العَبَثِ الواضِحِ بالعقول ما قَرَأْتُهُ بالجرائد نقلاً عن مقال مكتوب في مجلة غربية « رِيدَرزْ دَيْجِسْت Readers Digest »

تَعُدُّ فيه الصِّفات التي يجب أن يتحلَّى بها الشابُ العصري : « كذلك يجب أنْ يَتَعَلَّم الشابُّ الرقصَ ، لأنَّه بجانب كَوْنِهِ رياضة بدنية ، فهو فنٌّ ينمِّي فيه روح الفضيلة ، ويعوِّده النظَر إلى الجنس اللطيف بعين مجردة من الخِسَّة والشهوات » .

يُفْهَمُ مِن هذا أنَّ المدنيةَ الغربيةَ تواضعَتْ مع ٱلْمُتَمَسِّكين بها على أن تُباعَ الرذيلة في سوقها باسم الفضيلة ، وسَبَبُ نَفَاقِ هذا البَيْع أنَّه يَتَضمَّن لذةً مادِّيَّةً للمتبايعين ، فيُهْتَكُ في سبيلها الحياءُ ، ويُسَمَّىٰ الاعتيادُ على قضاء الشهوة فضيلةً وتجرُّدًا عن الشهوة والخِسَّةِ ! ويُغالىٰ في الجرأة ، فتُعاب على الإسلام فضيلَتُه المانِعَةُ من سفور النساء واختلاطهن بالرِّجال الأجانب ، حتى يحتاج الإسلامُ من هذه الناحية إلى دفاعٍ يمتدُّ على طول اعتداءات العابثين ، في حين أنَّ الحضارةَ الغربيَّة القاضيةَ على الفضيلة ، والمبنيةَ على أساس قضاء الشهوة ، سالمةٌ من التعييب والاتهام !

وهذه المعاكَسَة بالحقائق تروجُ بفَضْلِ تعصُّب الغربيين لما يُنْسَبُ إليهم من التقاليد وضلالِ أبناء المسلمين صراطَهُم المستقيم ، ولو لَمْ يكُنْ مِنْ وراء هذه الحياة المختلطة ما يؤيِّدُها من قوة الغرب وشوكَتِهِ لَعُدَّت سوادَ وجهٍ لأيِّ قوم

اختارها ، ولهذا كانت مسألةُ النساء أعظمَ حاجزٍ بين الإسلام والمَدَنِية الغربيّة ، فالمسلمُ لا يقبَلُ الحياة العارية المختَلِطَة لِنِساءِ المسلمين ما دام يَصِحُّ لَهُ إِسلامُهُ ، والغربي لا يَرَى كَحِجَابِ النِساءِ أكبرَ مانِعٍ في اختيار الإسلام ديناً له ، ورُبَّما لا يشكُّ في كَوْنِهِ أحقُّ الأديان بالقبُول ، لأنه يَصْعُبُ عَلَيْهِ فِراقُ ما تعوَّدَهُ من الحياة المختلطة بالنساء ، وفيها حظ للنَفْسِ عظيمٌ ، وفضلاً عن الغربي الغير المسلم ، فصاحبُكَ المُتَفَرْنِجُ لا يصافيك المودّة والأُلْفَة حين يراك لا تبيحُه مخالطة نساء بَيْتِكَ ومجالَسَتِهنَّ في حضورك وغيابِكَ .

نعودُ إلى قول كاتب المجلة ؛ فالرجالُ الَّذين يحضُرون حفلاتِ الرَّقْصِ المزْدَهِرَةَ بمختلَفِ الأنوار ، ويخاصرُون فيها النساء العاريات عن الثياب إلا قليلاً كالمعدوم ، كأَنَّهُم على ادِّعاء كاتب المجلة يخاصرون قِطَعًا من الخَشَبِ من غير أن يشْتَهوا شيئًا من أولئك المُشْتَهيات ، وكان سهلاً على الذين آمَنُوا بِمِثْلِ هذه التُّرَّهات أن يضَعوا الحجاب على عقولِهم من أن يضعوا الحِجاب على النساء ، فتُعْسًا لهم !!

* * *

وقد ذكَّرني قولُ تلك المجلة ما كنتُ قَرَأْته في بَعْضِ

جرائد تركية قبل بِضعِ سنين ، والجرائد يومئذٍ تتسابَق في المماشاةِ لِمُرْضاة حكومتها اللادينية الراغبة في انكشاف النساء واختلاطهن بالرجال : « إنَّ الحياةَ المختَلِطَة الحرَّة لا يَنْظُرُ فيها أحدٌ إلى مرأةِ أحدٍ نظرةَ سُوء ، والمحاذيرُ المتصوَّرَةُ فيها إنَّما تَجْرِي في الذَّين لم يَتَأَدَّبُوا بآداب المَدَنِيّة ، ولم يَرِقّ ولم يَرْقَ إحساسُهُم . نعم ! إنَّ الرَّجُلَ عند أوَّلِ عَهْدِهِ دخولًا في تلك الحياة ، ورؤيَتِهِ النساءَ الجميلات المتجرِّدات حوله يندهش ويستحيي ، ثم تثورُ نفسُه الأمّارة بالسوء ، لكنَّ مُتَعَوِّدَ هذه الحياة ، الناضجَ الشعور والإحساس ، يدخُلُ مَثلًا حَمَّاماتِ البحر ، ويَرَى على الشاطئ أو في مُلْتقى البحر به حيث لا يجاوز الماء قدر شبر ، نساءً عارياتٍ من أنْفَسِ النفائس ، ولا يخْطُرُ ببالِهِ إغواءُ الشَّيْطان أو إغراءُ النفس الأمَّارة . ثمَّ إنَّ هذا الرجلَ يرقُصُ مثلًا في حفلةٍ ساهرةٍ مع النساء الأشباه العاريات ، عَيْنُه إلى عَيْنِها ، وجِسْمُه إلى جِسْمِها ، من دون أن تتحرّك منه شَعْرَةٌ ، وهو بالعكس يمارسُ عرقه الضعيف حيال المرأة ، وينضُجُ ، ويربِّي نفسه الأمَّارة ، ففي هذه الحياة المدنية أمْنٌ على العِفَّة وارتياحٌ للنفس معًا ، فقد حكى لي واحدٌ من الرَّاسخين في هذه الحياة

أَنَّهُ رأى امرأتَهُ يومًا عند طاهي منزلِهِ (طوسون) وهي سافر ، فنهاها ، وعهدي به أنه يُدْخِلُ زوجتَه كلَّ ليلةٍ على أحبابه فيراقصونها ، ويختلون معها ، فمِنْ أجلِ ذلك تعجَّبْتُ من قوله ، وسألتُ : أَلَسْتَ أنتَ تُدْخِلُها سافرًا على كلّ أحدٍ ؟ فأجاب : إنهم لا يقاسُون بالطاهي (طوسون) لأنَّهُم يدرون أن يحترموا المرأة ، وهو يعتبرها مخلوقًا يؤكَلُ مثل الكُمَّثْرَى » .

فانظرْ قولَ هذا الكاتب ، وتَعَلَّمْ إنْ لم تكُنْ ذا عِلْمٍ بأنَّ مخالطي النساء ومراقصيهنّ بين أيديهم ، يقصدون بذلك إلى تربية نفوسهم الجامحة ، وتعويدها ضبط شهواتها ، واجمع هذا القول إلى كاتب المجلة الغربية ، ثم اقضِ منهما العَجب ! .

ولعلَّك يَقَعُ في مخيِّلتِك أن المتعوِّد لمجالسة النساء وملامستهن لا يكُون كحديث العَهْد بتلك الأحوال ، وأنَّ لحالة التعوُّدِ والتكرار حُكْمًا ليس في حالة الابتداء ، وهذان الكاتبان اعتمدا في تغرير القارئَ على وجود الفَرْق بين الحالَتيْن ، ونحنُ لا نجْتاز هذه النقطة لكونها مِنْ أبْدَعِ دعائم السفور التي يُسْندُ دعاتُه مغالطاتِهم إليها ، وهي على شِدَّة

بطلانِها أشبَهُ شيءٍ بالحقِّ ، فَنَحْنُ لا نجتازها من غير تأديةِ حَقِّها ، وفي مثل ذلك مَيِّزَةُ مقالِنا عن موضوع السُّفور ، فنقولُ : يجب على المسلم اليَقِظِ أنْ يَسْأَلَ الدعاةَ المغالطين الذين يريدون أنْ يُنْزِلوا الناس مَنْزِلَةَ الحمقى : إذا كان واضعُو الحياة الحديثةِ المختَلِطَةِ وضعوها لإزالة تأثير أحد الجنسين على الآخر وإخماد الشهوة المتقابلة بينهما ، فماذا الغَرَضُ من هذا الوضْعِ المضاد للطبيعة ؟ وما هي الفائِدَةُ المجنِيةُ منْه ، مع أنَّ مصلحةَ الناس في إيجاد اللَّذَّات لهم دون إعدامها ؟ وما هي الفائدة في تنزيل قيمةِ أحد الجنسين عند الآخر بإزالة ما بينهما من حرارة الجاذبية وإبدالها بالبرودة والجمود ؟

ثم نقول : نعم ! إنَّ متعوِّدَ الشيء ليس كالمُبْتَدئ الحديث العهد به ، إلا أنَّ هنا نقطةً في غاية الأهمية يلزم التنبُّه لها ، وهي أنَّ مناسَبَةَ الرجل بالمرأة المستجْمِعَة لأسباب الجاذبية إنِ اقتصرَتْ على مجالسَتِها والتَّماسِّ الحاصل بين أعضائهما عند التفافهما متراقصين ، فتكَرُّرُ هذه الحالة مهما كَثُرَ فلا يُسكِّنُ التمايلات الجنسية ولا يُطَمْئِنُها ، وبالعَكْس يُثيرُها ويُشَدِّدُها ، وأنتم مهما أكْثَرْتُم من المناسبة بالنِّساء على أن تَذْهبوا بها إلى حَدٍّ فتَقِفُوها عنده ، مهما أكْثَرْتُم من أعدادِها

وأنواعِها ، فلا تكونون قد أرْوَيْتُمْ بها أنفسكم ، وإنَّما ازدَدْتُم ظمأً على ظمأٍ ، فيكونُ مفعول التعوُّدِ هنا بالعَكْسِ ، فإن كان في الدنيا شيءٌ لا يُقْنِعُ بِقَدْرِ ما نيل منه ، ولا يُستغنى به عن الوصول إلى غايته ، فذلك الشيء هو ملاقاةُ المرأة ومماسَّتُها ؛ وما أصدقَ قولِ الشاعر [من الطويل] :

وَكُنْـتَ إذَا أرْسَلْـتَ طَـرْفَـكَ رَائِـدًا
لِقَلْبِـكَ يَـوْمًـا أتْعَبَتْـكَ المَنَـاظِـرُ
رَأَيْـتَ الَّـذِي لَا كُلُّـهُ أَنْـتَ قَـادِرٌ
عَلَيهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[1]

---

(١) فلو لم يكن عصر السفور والاختلاط قضى على العشق القديم الذي كان قد يؤدِّي إلى موت العاشق أو جنونه ، لقلنا : إنّ هذه المناسبة بالمرأة الجميلة الواقفة عندما يكون الرجل معها في أندية الرقص والسهر ، توقعه في مخالب العشق وتُميتُه أو تجنّنه . لكن عصرَ السفور والاختلاط عصرُ ابتذال المرأة يُغني الجنسين عن العشق ويحقِّقُ قولَ الشاعر القديم الذي هو مقولٌ لهذا العصر أكثر من كونه مقولًا لعصره [من البسيط]

مَـا حُـبُّ عَـزَّةَ إلَّا حُـبُّ غَـانِيَـةٍ
فِـي وَصْـلِ غَـانِيَـةٍ مِـنْ وَصْلِهـا خُلْـفُ

[راجع «ديوان كُثَيِّر عَزَّة» الصفحة : ٥٠٥ ، حيث رواية البيت تختلف] .=

وَعَلَيهِ ، فدعوى التأمين على أنَّ إغواءَ الشيطان وإغراءَ النَّفْسِ الأمارةِ في ملاقاة الرجل بالمرأة يزول تأثيرُهما بتكرار الملاقاة وتعويدِها النفس في حياة العِشْرَةِ الجديدة المدنية ، باطلةٌ غير مسموعة .

نعم ! إنَّما يُسلَّمُ بحصولِ نوعٍ من شِبَعِ العَيْن وصَمَمِ الإحساس في التمايلات الجنسية برؤية الكثيرات من النساء والتلاعب بهِنَّ بشرط واحد ، هو أن تنضمّ إلى هذه المقدّمات نتائجُها الطبيعةُ ، فينتهي عند ذلك غلواء رجال الحياة الجديدة ، ويسكُنُ جماحُ أنفُسِهم ؛ لكن تأمين العِفَّة لحياة العِشْرَةِ الجديدة بهذه الصورة يكون كوضع عدم الأمن موضع التأمين ، وقصاراه أن تكون عيون رجال الحياة العصرية شَبْعى تُجاه النساء بِفَضْل اللاتي لقوها منهنّ وقضوا أوطارَهُم منها ، فلو أمْكَنَ أن يُقال : شَبْعى تجاه اللاتي يلقونَهُنَّ بفضل اللواتي لم يلقوهنَّ لاعتبرناه تأمينًا حقيقيًا . فهذا تحليلُ مغالَطَةِ أنصارِ السُّفور والحياة المختلِطة ، وقول كاتب الجريدة التركية : « إنَّ في هذه الحياة أمْناً على العِفّة وارتياحًا للنفس » يكفي بعضه في نقض بعض .

أمَّا سِتْرُ الرجلِ المدنّي المحكي زوجتَه عن الطاهي

(طوسون) ، فسببُه عدم اعتباره أهلًا لأن يخالط نساءَ مَنْ هم في طبَقَتِهِ ، والحياة المدنيّة المختلِطة تتطلّب الكفاءة في مشتركيها ، فيلزم أن يكونوا من الذين يدْرُونَ آداب الاستفادة من جمال المرأة ويَقْدِرون مقابل ذلك على الإفادة ، وكلا الشرطين لا يوجد في الطاهي (طوسون) .

وإني لا أقْبَلُ الاتهام بسوء الظنّ في تحليل هذه المسائل ، فتلك الحياةُ منطويةٌ لا محالة على مفاسد لا تتَّفِقُ مع العِفَّة ، إلا أنَّ التجاهل بالمفاسد يقوم في تلك الحياة مقام العفّة ، ويسيغُهُ كونُ تلك المفاسد معتاضة بأمثالها[1] .

ولو فَرَضْنا أنَّ هذه الأزياء العصرية للنسوان ، البليغةَ في التزين المكشوف ، الحَرِيَّةَ بِغُرَفِ الزَّفاف ؛ والاختلاطَ الخليعَ في تلك الأزياء بالرجال الأجانب ، والتراقص معهم ملتفات بهم ساقًا لساقٍ ، ووجهًا لوجهٍ ، وصدرًا لصدرٍ ؛ لو

(١) وكثيرٌ من الكتاب يعيبون على شعراء الشرق السالفين إسرافهم في الخلاعة وهجنة القول عند التشبيب . وإني أقول : كانت الفسوق عندهم من المخيلات الصعبة الوصول ، لكن تقليد الغرب في سفور النساء واختلاطهن بالرجال نقل الفسقَ من الألسن إلى الأعمال ، فأصبحت مواصلة النساء من الأمور العادية التي لا تُذْكَرُ .

فرضنا فرضَ المحال أنَّ هذه المقدَّمات لا تَجرُّ الجنسين إلى ما وراءها من المفاسد ، فحَسْبُها هي نفسُها مفسدةً ، إذ لا يُسوِّغُ الشرعُ الإسلامي ولا الطباع السليمة أنْ يَقْضيَ الرجالُ الأجانب بعضَ شهواتهم من أجسام زوجَتِكَ وبناتِكَ وأخواتِكَ ، ولا أن تقضي أَنْتَ ذلك من أجسام زوجاتهم وبناتِهم وأخواتِهم ؛ كما لا يسوِّغان أن يقضوا هم ولا أنت منها تمامها ، وشريعَتُنا الغَيُورُ تحكمُ بلَمْسَةٍ واحدة بين الرجل والمرأة الأجنبية من تلك اللمسات المنطوية على الشهوة بالمصاهرة بينهما ، فتحرِّمُ أصولَ أحدهما وفروعَه على الآخر[1] .

* * *

ولنسمع هنا لقول كاتبٍ مصريٍّ يتعلَّم في جامعةٍ غربيَّةٍ :

---

(١) راجع « الهدية العلائية » صفحة ٢٥٠ : حيث فيها : وإذا مَسَّ الرجلُ امرأةً مشتهاةً حيّةً تمَّ لها تسعُ سنين بشهوةٍ من أحدهما ، أو منهما ، ولو لشعر على الرأس ، ولو بحائل لا يمنع الحرارة ، وكانت الشهوة حال اللمس ولم يُنْزِلْ مَعَهُ حَرُم عليه أصولُها وفُروعُها ، وحرم عليها أصوله وفروعه . انتهى . هذه الإضافة مما استفدته من طبعة الأستاذ حسن السماحي سويدان ، جزاه الله كل خير . بسام .

« إن نظامَ الاختلاطِ بين الشابّ والفتاة في سنٍ مُبَكِّرةٍ معدومٌ في مصر ، لا يكاد يكون له أثر إلا في بعض أسرنا الأرستقراطية من الذين عاشوا رَدْحًا من الزمن في أوربة ؛ أمَّا في مصرَ ، فإنَّ الشَّابَ والفتاة يبقيان من عهد طفولتهِما منفصليْن تمام الانفصال ، فيحرُمُ عليهما الحديثُ حتى بين أولاد الأسرة الواحدة وبناتها ، ويحلِّلُونَ تحريمَهُم هذا بأنَّ ذلك الحاجز الذي أقاموه بينهما يَمْنَعُ ما قد يحدث من أهواء الشباب . ولو فكَّرُوا مليًّا لوجدوا أنَّهُم مُخْطِئون خطأً كبيرًا ، وأنَّ نتيجة ذلك على عكس ما كانوا يظُنُّون ، ففي هذه الحالة يعملُ كلٌّ منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنِعَ اختلاطُهما من أجلِهِ ، فكأنَّهُما يحطِّمان ذلك الحاجز انتقامًا من ذَوِيهِما ، وزِدْ على ذلك ما يتكبَّدُه الاثنان من ضروب التفْكير العميق الذي يفكِّرَانه في سبيل الوصول إلى بعضهما ، وجعْلِ ذلك بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ حتى لا يدري أحدٌ ما يدورُ وراء الستار ، وهذا التفكيرُ العميقُ يضرُّ كلًا منهما ، فتجدُ الفتى واجمًا في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة ، وربَّما يشرح المدرِّسُ نظريةً هندسيةً بينما هو يفكر في موعد لقائها ، وكذلك الحال مع

البنت ، وكثيرًا ما كان لهذا التفكير أثرُهُ في مجموعها العصبي ، وما مَرَضُ الهِسْتِرْيا الذي يصيبُ كثيرًا من فتياتِنا في سنِّ الإدراك إلا نتيجةٌ لهذا . فلو أنَّ هذه الحواجِز التي يقيمها الآباء أُزِيلَتْ ، وغُرِسَ في نَفْسٍ كُلٍّ من الفتى والفتاة الأخلاق القويمة ، ونشأ من حداثة سنِّهما مختلطين ، لضَعُفَتْ تلكَ العاطفَةُ الجامِحَةُ إلى حينٍ ، وقَويتْ على أنقاضها الصحبةُ الجميلةُ التي لا تتعدّى النزعة البريئة والاختلاط الذي يوقظ في النفس حبَّ الجمال ، لأنه جمال فقط ، لا للعبَثِ والنزول به إلى النوع التجاري الرخيص . وإننا لنقرأ كثيرًا في صُحُفِنا المحلِّيَّة عن بنات بعض الأسر وهربهن مع الخدم إرضاءً لنداء تلك العاطفة التي زادتْها هياجًا القوانين الشديدة التي فرضتها نُظم الأسرة على أولئك الفتيات العَذارى » .

« وإنه ليُعْجِبُني كثيرًا نظامُ الاختلاط في الأسرة الإنكليزية ، فتجد الطفلَ يصاحِبُ طفلةَ الجيران ، ويلعبان معًا في حديقة منزل أحدِهما ، ويبقيان على ذلك حتى سنّ الشباب ، فيتدرّج في اللعب معها إلى الزمالة في الدراسة ، ثم دعوة كلّ منهما لصاحبه لتناول الشاي ، وكم يكون فَرَحُ الأم أو الأب إذا ما أخبرهما ولدهما أو فتاتهما أنه سيأخذ أو ستأخذ شابّها اليوم مع صديقته أو صديقها ! يرحِّبان بصديقةِ

ولدِهما، ويظهران لها من ضروب العَطْف والحنان ما تُسَرُّ له ، وترفع صديقها في عينها وتحترمه الاحترام كله . تزامله في دراسَتِه العالية في الجامعة ، فتكون نِعْمَ الصحبة ، يعيدُ مَعَها محاضراتِه، فيتفهمّان معًا، ويكونان عَضُدًا لبعضهما، فيستفيد منها الدقة في العمل ، وهو دأب الجنس اللطيف ؛ وتستفيد منه بما جبل عليه الرجل من الصبر على المكاره ومواجهة الصعاب بثغر باسم ، فيستفيد كلٌّ من صاحبه ، ويخرجان آخر العام يشدّ كلٌّ على يدِ زميلَتِه ، ويهنّئها بالنجاح » .

« والسبَبُ في تقدُّم الطلبة الإنكليز مع صعوبة الجامعات والإرهاق في العمل بسيطٌ ، لو عرفنا ظروفه واستوعبنا قليلًا منه لوجدنا أنه لا يفوق ذكاء المصري في شيء ، ولم يُخْلَقْ من مادةٍ غير التي خُلِقَ منها المصريّ ، وإنما حُصِرَ تفكيرُه في عَمَلِه وعدم تشعُّبه في مقابلة فتاته أو كيفية محادثتها . لم يفكّر في ذلك وهي بجانبه في المحاضرة وفي المعمل ، تبسُمُ له ابتسامةً بريئةً كلما تقابلت نظراتهما ، ثم يعود كل إلى إتمام عمله بهمةٍ ونشاطٍ » .

محمد حامد شاكر

القسم الفسيولوجي ـ جامعة ليفربول

يحدِّثُ الكاتِبُ الطالبُ قومَه ويرشِدُهم إلى ما رآه في الغرب من منهجِ التربية الاجتماعية ، وحَبَّذَهُ ، من دون توجيه أي نظرة أو أهمية على دين قومِهِ وآداب آبائِهِ وأجدادِه ، وإلى أن قُرّاء مقالِهِ هذا المنشور في الأهرام بعنوان (أثر البيئة في الاجتماع) لم يُعْدَموا ـ على الأقل فيهم من لم يعدموا ـ بعدُ ميزان عقولهم .

فهل يضمنْ لهم الكاتب أولًا أنَّ نظام الاختلاط بين الشاب والفتاة الذي نَوَّهَ بوجودِهِ خاصَّةً في بعض الأسر المصرية الأرستقراطية من الذين عاشوا رَدْحًا من الزمن في أوربة ، كان نافعًا لهم وحميدَ الأثر ؟

ثم إنَّ الكاتِبَ الطالِبَ جدُّ عارفٍ بأنَّ ما يحصل في اختلاط الجنسين ـ ويسميه الصداقة البريئة ، أو النزعة البريئة ، أو الابتسامة البريئة ـ وقد يضاف إليها طبعًا التَّخاصُرُ والاعتناق البريئان ، لأنّ الزميل والزميلة الناشئَيْن على آداب الحضارة الغربية لا بد أنّ يتراقصا في بعض الأحيان ـ كلُّ هذه البريئات ، مع ما تُوقِظُ في النفس من حُبِّ الجمال ، لأنّه جمال فقط كما ذكره الكاتب ؛ أسماءُ وأوصافٌ كاذبةٌ تُذْكَرُ لمخادَعَةِ السُّذَّجِ ومكافحة الحياء الإنساني تحت ستار الألفاظ

البريئة المستعملة في غير مواضعها ، مثل ما يفعل بعض اللصوص فعله تحت اللثام ، وهذا كما يُسمِّي دعاة السُّفور أنفسَهم أنصارَ المرأة ، ودعاةَ الحجاب خصومَها ، والله يعلَمُ مَنْ الأنصارُ أو الأعداء ، كما يعلم المُفْسِدَ من المُصْلِح .

وانْظرْ إلى قول الكاتب عن نتيجة وضْع الحجاب بين الشاب والشابة : « ففي هذه الحالة يعملُ كل منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنَّما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنِعَ اختلاطُهما من أجله » فكأنَّ الجنسية الخاصة بكلٍّ منهما لا تبقى عند إباحة الاختلاط بينهما ، فينقلب كلاهما ذكرًا أو كلاهما أنثى ! .

ثم لماذا يكون اتصاله بصاحبَتِه بريئًا عند إباحة الاختلاط وغير بريء عند منع الاختلاط ؟! فإنْ أتى الفسادُ مِنَ المَنْعِ كما سيأتي بيانُه لا من طبيعة المختلطين فلا شك في أنَّ مباحَ الاختلاط أيضًا ممنوعٌ من الاتصال الغير البريء ، فيلزم أن يكون فاعلاً لما مُنِعَ « فكأنَّهُما يحطِّمان ذلك الحاجز انتقامًا من ذَوِيه » ، وهذا كما يقال : إنَّ الإنسان حريصٌ على فعل الممنوع ، فكأنَّهُما لو لم يُمْنَعا عن اتصال أحدهما بالآخر ، ولم يُقَم بينهما حاجز ، لما تهالكا على هذا الاتصال

الممنوع ، وعليه فقد يكُون في دعاوى أنصار السُّفور أنَّ الحجابَ أدْعَى إلى الفِتْنَةِ ، وأنَّهُ يَشْتَمِلُ على مفاسد يضيقُ عنها نطاق السُّفور وإباحة الاختلاط ، وربَّما تُسمَعُ مثلُ هذه الكلمات منهم ، وكلُّهُ سَفْسَطَة وتَضْليل ، إذْ لَوْ كان المَنْعُ عن أيّ فِعْلٍ يؤدِّي إلى وقوع ذلك الفعل أكثر مما إذا لَمْ يُمْنَع وتُرِكَ مُباحاً لانعكس موضوع الأمر والنهي ، وأصبح الحاجِزُ وسيلةً ، والوسيلةُ حاجزًا ، ولزم إلغاء قوانين العقاب الموجودة في الدنيا لكون مفعولها في المجرمين الحثّ والتحريض على الإجرام انتقامًا من واضعي القوانين ، ولو قال الكاتب : اغتنامًا للفرْصَة التي لا تواتي كلّ حين مع الحجاب الحاجز لكان أشبه بالحقيقة . أمّا إذا لم يكُنْ بينهما حجاب ، ولكل منهما الاختلاط والاتصال بالآخر متى شاءا ، فالوقت مُتَّسِعٌ أمامهما ، ولا حاجة إلى التعجُّل ، فأوقاتُهُما كلُّها فرص .

وإنِّي تذكرْتُ هنا حكايةً لا أمْضي مِنْ دون أن أورِدَها :

كان رجلٌ وامرأةٌ أجنبيةٌ عنه يترافقان في سفر ، فقال الرجلُ للمرأةِ : أتدرين ماذا سيكونُ إذا وصلنا إلى ما وراء هذا الجبل ؟ فقالت : ماذا سيكون ؟ فقال : سأعْتَدِي عليكِ

هناك ، فتأبِينَ ولا تَسْتَسْلِمين لطلبي ، وتصيحين ، وتستغيثين من غير مُغيث ، ويقع بيننا عراكٌ عنيفٌ لا يتكهّن أحد بمنتهاه . فاستمعت له المرأة ، وقالت : لن يَقَعَ شيءٌ مِمَّا تخافه علي ، لأني سأوافقك على ما طلبت مِنِّي وينتهي الأمر بِسَلام .

نعودُ إلى قَوْلِ الكاتِب : « وزِدْ على ذلك ما يتكبَّده الإنسانُ من ضروبِ التفكير الذي يفكّرانه في سبيل الوصول إلى بعضهما » وفي هذا مضيعة لهما من الأوقات والمساعي مع إمكان تسهيل الأمر لأبويهما « وجعل ذلك بطُرُقٍ خفية حتى لا يدري أحدٌ ما يدور وراء الستار » مع أنَّ المجاهرة أولى من العمل في الخفاء ، وأدل على الشجاعة ، وأجدر بالحرية « وهذا التَّفكيرُ العميقُ يضرُّ بكُلٍّ منهما ، فتجد الفتى واجمًا في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة » فلو كانت فتاته في متناول يده متى شاء أو بجنبه أو مرأى عينيه لكان هشًّا بَشًّا نشيطًا . ولو كان الكاتب مِمّن يُصَلِّي في المساجد لقال : ولو صلى بجنب الفتيات الحسان في صفٍ واحدٍ ، أو صلّى وهُنَّ أمامَهُ في الصفِّ المتقدِّم يحكين في الركوع أهلَّةً وفي الاعتدال قضبانَ البانِ ، لَوَجَدَ في صلاته لذةً لا يجدُها في المساجد

الغاصَّة بالرجال ، وأخذَ الشُّبَّان النافِرون من الصلاة يلازمون المساجدَ « وربَّما يشرحُ المدرِّسُ نظريةً هندسيةً بينما هو يفكر في موعد لقائها » وإذا رُفِعَ الحاجز وأبيح الاختلاط فذهْنُ الطالِبِ يظَلُّ حاضرًا معه في كلّ مكان كما تكون مطلوبته حاضرة فيه « وكذا الحال مع البنت ، وكثيرًا ما كان لهذا التفكير أثره في المجموع العصبي ، وما مرض الهستريا الذي يصيب كثيرًا من فتياتنا في سن الإدراك إلا نتيجة هذا » مسكينات فتياتنا ، يمرضن من فاقتهن إلى فتيان يؤانسُونَهُنَّ ويرافقونَهُنَّ في المدارسِ والمنازل والشوارع والمنتزهات ، فيسْتَنْشِقْن معهم هواء الحرية والمحبة « وإنا لنَقْرَأُ كثيرًا في صُحُفِنا المحلّية عن بنات بعض الأسر وهروبهنّ مع الخدم إرضاءً لنداء تلك العاطفة التي زادتها هياجًا القوانين الشديدة التي فرضتها الأسرة على أولئك الفتيات العذارى » ! .

لو كان في عَقْلِ الكاتبِ أدْنى صلة بالمَنْطِقِ لتنبَّه لكون هروب بعض بنات الأسر المصرية مع الخدم نتيجة اختلاط الذكر بالأنثى الذي نحذِّرُه نحن ، وهو يدعو له ، فلا يعدّ مثل هذه الحادثات ذنبًا على قوانين الأسر المانعة من اختلاط الجنسين ، فهل لا يعتبر الخادم من الذكور أو من الأجانب ،

أو لا يعتبر البنت من الإناث ، وهي كما يحب الكاتب تنشأ برفقة الخادم ، وتراه كلّ يوم ؛ فإذا كان الاختلاط بالخادم يكفي في إغوائها فما ظنّك باختلاطها بفتى من طَبَقَتِها ؟ فهذه الحوادث تَنعى على دَعْواه ، في حين أَنَّهُ يَسْردُها لتدعيمها ! والواجب للآباء المصريين وغير المصريين أن يختبروا مَبْلَغَ أبنائهم من الذكاء والعقل السليم قبل مبعثهم إلى مدارس الغرب ، وإلا فلا مانع من أن يكتبوا يومًا إلى جرائد مصر يدعون آباءهم وإخوانهم في علانية وصراحة إلى دين الغربيين الذي وجدوه حقًا مستندين إلى عقولهم التي أرَيْناك بعضَ نماذجَ من تفكيرها المعْوَجِّ ! .

وإنّي أقول في مختتم كلامي عن مقال طالب الجامعة : لِيَحْلَمَ المصريون باستقلال بلادهم ، فقد استعْمَرَ الغربُ قلوبَ أبنائِهم المتعلِّمين ! واستعمار القلوب أقوى أنواع الاستعمار وأشدّها خطرًا وأفتكها بكيان الأمم .

* * *

ومن أقوال دُعاةِ السُّفورِ التي يموِّهون بها باطِلَهم ، ويظهرونَهُ بمَظْهر الحقّ : « إنَّ ضمان العِفَّة في النساء الذي هو جديرٌ بأنْ يُعَوَّلَ عليه هو تعليم المرأة وتَرْقِيَتُها وإنماءُ القوة

العقلية فيها وتربيتها وجعلها ـ أي : القوة العقلية ـ حاكمةً على النفس ، فبالعِلْم والرُّقِيّ تقدِّرُ الفتاةُ قدْرَ عِفَّتِها ، وهذا السِّياجُ المتكوِّن من العِلْم والتهذيب يَقْصُرُ بالنسبة إليه ويَضْعُفُ بكثير أنْ تكون محتجبة وتعيش في عالم مفترق عن عالم الرجال » .

ونحن لا نعارض لأنْ تُكَوِّنَ في الفتاة سجيةٌ تحكُمُ بها على نفسها ، وتَسْتَنِدُ إلى التعليم والتربية ، وإنَّما نُعارِضُ أنْ تُعَدَّ مستغنيةً بها عن الحجاب الذي وضعه عليها الإسلام ، لأنّا كما عرفنا أنَّ سجية الحكم على النفس لا توجد بكثرة في الذين أخذوا نصيبهم من التعليم والتربية ، لا نأْمَنُ أيضًا على إصابَتِنا الواقع عندما فرضنا أناسًا من معارفنا حاكِمِين على أنفُسِهم تُجاه المغناطيس الجذّاب الكامن في جمال المرأة ، أو فَرَضْنا فتياتِنا ونساءَنا حاكمات على أنفسهن حيال إغواء شياطين الأنس ، لا سيما العصريين المجهَّزين بالمكايد الراقية ؛ فنقصان الحُكْم على النفس من أحد الجنسين كافٍ في وقوع الفتنة عند اختلاطهما ، فنحن نخاف كلًا منهما على الآخر ، ولا نردُّ الشبهات التي تساوِرُنا ، وإنْ رَدَّها غيرُنا ، لأنَّ الحكْمَ على النفس شيءٌ يسهل قولُه ويصعب فعلُهُ ، وماذا

يَسَعُنا أنْ نقول عنا بعد ما قال سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [١٢ سورة يوسف/ الآية : ٥٣] .

والحاصل : إنَّ الحُكْمَ على النفس شيءٌ لا يحدِّدُ وجودُه وعدمُهُ ومبلغُ كفايتِهِ ومقاومَتِهِ ، ويخفى أمرُه في كلّ أحدٍ بحيث لا يطّلِعُ عليه غيرُهُ ، بلْ كثيرًا ما يُخْطِىءُ الإنسان في تَخْمِينِه لنَفْسِهِ في مثل تلك المواقف الدقيقة الخَطِرة ، ولله درّ الشريف الرَّضيّ القائل [من الكامل] :

لَا ٱلْعَـفُّ عَـفٌّ حِيـنَ تَمْلِـكُ لُبَّـهُ
تِلكَ ٱللِّحَاظُ وَلا ٱلأَمِينُ أَمِينُ(١)

لا سيّما وأنَّ قَدْرَ العِفّة في نظر مَنْ لا يتعلّم وجوبها من الدِّين ، بل من المحاكمة العقلية ، لا يجاوز وراء أن يعرفه الناسُ عفيفًا ، وأن يكون مركزُه هذا محفوظًا عندهم ، وهو غير ٱلْعِفَّة الحقيقية ، فَمَهْمَا عُلِمَ قَدْرُ العِفَّةِ ، ومهما تَمّ عقلُ الإنسان ، وسَلِمَتْ محاكمتُهُ العقلية ، فربَّما لايكفيه ذلك في مثل هذه الأحوال التي هي مَزْلَقَةٌ طبيعيةٌ للأقدام أيُّ مزلقة ،

(١) ديوانه ، صفحة ٤٧١ .

ومن جَرَّاء ذلك لَزِمَ أنْ لا تَسْمَحَ للنَّفْس أوْلى فرصة وأن تَسُدَّ طُرُقَها ، فَحِجابُ المرأةِ معناه حجب طرق الفرصة على النفوس بأخصر وجهٍ . وقد استخفَّ بعضُ كتاب التُرْك ـ من أنصار السُّفور ـ بقوَّةِ تلك البراقع الحريرية الرقيقة الملقاة على وجوه النساء ، ومع ذلك ٱعْتَرَفَ بأنَّ تلك البراقع تجعل المرأةَ كأنَّها تعيش في عالم آخر ، فقلت له : إنَّ هذا اعترافٌ مِنْكَ بقُوَّتِها ، فتلك الحُجُبُ الرقيقةُ سُجُفُ الحياء الملقاة بين الجنسين ، المانعة من اختلاط أحدهما بالآخر ، تقيِّد اتصال الرجل حتى بزوجته في خارج بيته ، وتحول دون ما يراه الإنسان في بلاد المَدَنية الغربية ، وقد رأيته كثيرًا في شوارع باريس بعيني من أن الرجل يمشي آخذًا بيد امرأة يتحدّث معها ويقبّلها في غضونه على مرأى المارين (ومَسْمَعِهم) ولا يلزمَ أنْ تكونَ المرأة زوجته . فهذه حالةُ تلك التي يَدَّعي أنصارُ السُّفورِ مِنّا عدم كونِهِ فيها موجبًا للفساد ، ويصدِّقُهُم في ادِّعائهم كثيرٌ من الغافلين ، فلعلها قُبلاتٌ بريئةُ !! ويمكن أن يُسْتَدَلُّ على براءتها بإيقاعها جِهارًا نَهارًا !! .

ثم إنّ السُّفورَ بمعناه العصري الذي أوضحناه يعرفُ كلُّ الناس أن الإسلام يأباه ولا يقبَلُه . ثم بالرغم من ذلك ترى

كثيرًا من الكتاب المتَّسَمِّين بأسماء المسلمين يدعون له ، ويُشَجِّعون المرأةَ المسلمةَ عليه ، ويُنحون على من يخالفونَهم باللوائم ، ويعتبرونهم رجعِيين ؛ لا يُعْبأُ بقولِهم ومخالَفَتِهم ، وهم على الأقل يستمرون في نقاش المخالفين ، مثلًا ترى كاتب (ما قل ودلّ) في الأهرام ، واسمه أحمد ، وقد صَرَّح عند تمجيده لعيد الميلاد بأنَّه مسلمٌ مؤْمِنٌ بمحمد ﷺ وبسيدنا عيسى الذي كَلَّمَ في المَهْد صبيًا ، وقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [١٩ سورة مريم/ الآيتان : ٣٠ و٣١] . تراه الفَيْنَة بعد الفينة يصوّب سهام الاحتقار إلى مَنْ لا يَرْضَوْنَ بسفورِ المرأة المسلمة من العلماء والكتّاب ، فهل لا يعرف أنَّ الرجْعَة التي يعيبُها على مخالفيه رجعةٌ إلى الإسلام ! وأنَّهُ بهذه السهام البذيئة يكون يرمي دينَ الإسلام ، وكتابه الذي ينصّ على أنّ النساء يَضرِبْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾

[٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] .

فلو سألْتَه ماذا يقول في نَصِّ القرآن واعتنائِه بهذا التفصيل الجليل ؟ فهو لا يَحِيرُ جوابًا ، فكأنَّه يتعَجَّبُ منْكَ ، ويقول بلسانِ حالِهِ : إنَّ مَنْ يعيش في عصر القرن العشرين ، ويسْتَنِدُ في اقتناعاته الاجتماعية إلى القرآن ، فجوابه جواب الأحمق ! ولا يرَى من حقك أن تَتَعَجَّبَ مِنْهُ ، وهو مُسْلِمٌ مُثَقَّفٌ يحوم في كتاباته حول مسألة النساء ، كَيْفَ يجهل أطول آية في كتاب الإسلام عن النساء ؟! فإذا قرأْتَها عليه ، وعلَّمْتَه إياها ، ولَّى مُدْبرًا ، كأَنْ لَمْ يَسْمَعها ! وجعلَ جزاءَ تعلُّمِهِ منك أنْ لا يراك أهلاً للخطاب ، فكيف أنه مُتَعَلِّم ؟! وكيف أنّه مُسْلِمٌ يؤْمِنُ بما شاء من آيات القرآن ، ولا يؤْمِنُ بما شاء ، ولا يراه يَجْدُرُ بأن يكون دليلاً لمُستَدِلّ ؟!

وهناك بعد آية الحجاب [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] ، أحاديثٌ نبوية كثيرةٌ تأمر بِسَتْرِ النساء عن الرجال الأجانب ، وتنهى عن الاختلاط بهم ، لكنَّ الكاتِبَ وأضرابَه لا يعْبَأون بالآيات والأحاديث المتعارضة بتقاليد المدنية ٱلْغَرْبِيَّةِ مَهْمَا فُضِحَتْ مَغَبَّتُهَا ، كَأَنَّهُم رُسُلُ تِلْكَ المدنية في الشرق بعد رسل الله ، تنْسَخُ أنباؤهم عنها أنباءَهم عنه ! وبالرغم من

معارضة هؤلاء الرُّسُل المُحْدَثين لرسل الله ومحاربتهم من وراء الستار ، فإنَّهم مؤمنون بالله ورسله ومسلمون ! إنْ كانت دعوى الإيمان والإسلام تتفق مع هَدْم معالمه[١] .

والناسُ في هذا الزمان العجيب لا يَهْتَمُّون بتشخيصِ أعداء الإسلام المختَفِين تحت أسماء المسلمين النائلينَ منه في بلاده ما لم يَنَلْ كتّابٌ من غير الأمّة المنتسبة إليه ، لسهولةِ اجتراء الأولينَ عليه تحت جُنَّةِ الأسماء وسهولةِ استماع الناس منهم .

وفي مصر كُتَّابٌ مسلمون بالأسماء والادّعاء ، خرجوا على دين قومِهِم ، فقامت الأمَّة ضدَّهم ، ثم ما لبَثَتْ أنِ اعتَبَرَتْهم تائبين ، وأعادتهم إلى حظيرَتِها ، وسلَّمَت إليهم مقادَتَهَا ! فلو لم يَكُنْ لهم شفعاء من أسمائهم لما سَهُلَ عليهم الظهور بمظهر التائب ، ولما قَبِلَ الناسُ توبتَهم ، ولو كان الناسُ مشفقين على دينهم إشفاقَهم على أموالهم لأخذوا حِذْرَهمُ من أن يعيدوهم إلى مَأْمَنِهِم .

ولا يُعْتَرَضُ عليَّ بأنَّ المسلم قد يُخْطِئ ويقْتَرِفُ ذنبًا بل

(١) وللكاتب التركي جلال نوري رأي كتبه في بعض مؤلفاته ، وهو : إنَّ من دخل في دين الإسلام لا يخرج منه ، لأنَّ فيه ختانًا !!!

ذنوبًا ، ومذهبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّ الكبائر لا تُخْرِجُ الإنسان عن الدين ؛ لا يُعْتَرَضُ عليّ بمثل هذا ، لأنَّ معصيةَ الله ورسوله قولًا لا تُقاس بمعصيتها فِعلًا ، ولا يُمكنُ أنْ يكون المسلمُ معارضًا لله ورسوله في أقوالِه وَإِنْ أمْكَنَهُ أنْ لا تكون أفعالُه طِبْقَ ما أمر الله ورسولُهُ به .

نذكرُ له مثالًا من موضوعِنا ، كأنْ تُسْفِرَ المرأةُ المسلمةُ فعلًا السفور العصري ، وتشتركَ في بعض الحفلات الساهرة بثوبها غير الكاسي ، بل تعيشُ طولَ عمرها في السفور الحديث ، ماشيةً على ما يقتضيه من فنون الانكشاف والاختلاط ، ومماشية في كلّ ذلك هواها النفساني ؛ فيمكن أن تبقى هذه المرأة على إسلامها وإن كان استمرارها عليه يُضْعِفُ جدًّا احتمالَ بقائِها مسلمةً ! فهذا فِعْلُ المعصية لا يعتبر بمجرَّدِهِ مُرُوقًا من الدين ، وله دافع يدفعها إليه من الطبيعة الجنسية ، فلعلَّ اللهَ يغْفِرُهُ لها من أجْلِهِ ، وكذلك موقف الرجل المختلِطِ بها ، المستفيد من سفورها فِعْلًا .

أمّا القولُ المعارِضُ لصراحَةِ القرآن الآمِرَةِ بسَتْرِ النساء ، فهو أشدُّ من الفِعْلِ ، وحسبُ قائلِ ذلك مُروقًا من الإسلام ، إذ ليس له دافعٌ طبيعيٌّ غير عدم الإيمان بالقرآن .

فالسفور لا يمكن أن يُدْعى له أو يُدافَعَ عنه في بلدةٍ إسلاميةٍ كمصر بقلم كاتِب مُسْلم ، ومن جَرَّاء ذلك كان آخرُ قولي للداعين والمدافعين أنّ المنْطِقَ والأخلاق والشجاعة يحتِّم عليهم أنْ يقلِعوا عن دعوتهم ودِفاعِهِم ، أو عن دَعْوَى أنهُم مسلمون ولو بأسمائهم .

وقد آن للحكومات الإسلامية أن لا تَسْمَحَ للملاحِدةِ الناشئة في بلادها أن يندَرِجُوا في سجل المسلمين إن لم تقدر على أن تعاملهم معامَلَة المُرْتَدِّين . نعم ! إنَّ السفورَ يجدُرُ به أن يُدعى له جِهَارًا في بلاد صَرَّحَتْ حكومَتُها بانتزاعِها عن دينِها ، مثل تركية الحديثة .

وإذا كُنتُ اعتبرتُ الفِعْلَ المجرّد أهونَ شرًا من القول في المعاصي مثل السفور ، فإني أستثني منه ما قرأته في مقالة كُتِبَتْ لِذِكْرى سعد [زغلول][1] مِنْ أنّه هو الذي كشف بِيَدِه الستار عن النساء في محضر بُعولَتِهِنّ ، وعُدَّ ذلك من مَنَاقِبه ! لأنَّ فعْلَ زَعيمٍ عظيمٍ مثل سعد يُعتبر كوضع قانون لِحِزْبِهِ وتعليم المُنْحازين إليه ، وليس لهذا الوَضْع والتعليم دافعٌ

(١) راجع ما ورد عنه في الصفحة ٥١ من المقدّمة . بسام .

طبيعي إليهما ، فلا يغتفر ذلك الفعل له ، ويلحق بالقول والأمر .

وكأنِّي بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احترامًا لسَعْد ، أو انتقده عليه قليلٌ منهم من غير تصريح باسمه ، كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد ، لكنَّ النهيَ عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء ، وإنَّ الحقَّ وخاطرَ الإسلام أكبرُ من سعد وألف سعد ، وإني تذكَّرْتُ هنا سعدًا الصحابي وقول النبي ﷺ فيه : « تَعْجَبُون مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ! وَاللهُ لأنَا أغْيَرُ مِنْهُ ، والله أَغْيَرُ مِنِّي » . [البخاري ، رقم : ٧٤١٦ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٩٩] .

قد يقولون : إنَّ سفورَ المرأة من لوازم النهضة التي يحتاج إليها المسلمون ، ومن أجْلِ ذلك التزمَهُ سعد !

وأنا أقول : العَهْدُ الذي بَلَغَتْ نهضةُ المسلمين فيه أشدَّها لا شك أنه عهد سيدنا عمر الفاروق ، وما بَلَغَتْ أيُّ أمَّةٍ في أي أدوارها مبلغ تلك النهضة ، ولن ترى الدنيا مثل ما قام به المسلمون في ذلك العهد الذهبي من الأعمال الجليلة ، ومع هذا ، فإنّ أولَ مَنْ قال بلزوم الحجاب للنساء كان هو سيدنا عمر ، ثم نزل القرآنُ على وفْقِ قولِهِ رضي الله عنه .

هذا ، وتأمَّلِ الفَرْقَ بين وضْعِ الحجاب بعد أنْ لم يكن وبيْنَ رفْعِه بعد أن كان ودام طيلة تاريخ الإسلام ، ثُمَّ تأمَّل قولَ سيِّدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « لَنْ يَصْلُحَ أمرُ آخِرِ هذه الأمة إلا بما صَلَحَ بِهِ أوَّلُها » .

* * *

بقيَ أنَّه لا يجوز لِقُرَّاء مقالتي عن السفور والاحتجاب أن يحْسَبُوني لا أُوافقُ على تعليم المرأة كما لا أوافق على سُفورِها ، وهذا الحسبان منهم يحتَمِلُ أنْ يكون منشأه أنَّ أنصار السفور يحتكرون لأنفُسِهم نُصْرَةَ تعليمِ المرأةِ أيضًا ، وكل بدعة مضادة للإسلام تروجُ في زماننا باسم العلم ، حتى إنَّ اللادينية يعبَّرُ عنها عند معتنقيها بـ (العلمانية) تمدُّحًا أو تسترًا ! وأنت كثيرًا ما تصادف هذا التعبير في جرائد مصر تستعمله بمعنى اللادينية من غير حياء من العلم ، ومن غير أدب مع أهل الأديان من قرائها ، يَمنَعُها عن نسبتهم إلى الْجَهْل المفهومة من ذاك التعبير ، ولا أقل من احتقارهم بأنّهم لا يفهمون مغزى إطلاق ذلك اللفظ على مبدأ اللادينية .

نعم ! إني لا أمنع المرأة عن التعلُّم ، ولا من التبحّر في العلوم لِمَنْ يُسْتَشْعَرُ منها النبوغ ، لكن بشَرْطِ أنْ يكون كلٌّ من

التعلّم والتبحّر في مدارس خاصّة بالنساء لا يخالطهن الطلاب الذكور ، ومدرِّساتهنّ منهنّ ، فإن لم يوجد فيهنّ من يكفي لتدريس الدروس العالية ، ينتدب العلماء من الرجال يلقون الدروس على طالباتهم الممتلئات الشباب وعلى رؤوسهن خُمُرُهُنَّ ، ولا أجيزُ طبعًا بَعْثَ الفتيات إلى بلاد الغَرْبِ لِيَتَعَلَّمْنَ في مدارسِها ، وإذا كان لا بُدَّ مِنْ تلقِّيهِنَّ الدروس أمام علماء تلك البلاد ، فاستجلاب عدد منهم إلى بلادِنا وتوظيفِهم بمدارسنا أسهل وأسلم من إرسال أفواج من بناتنا إلى بلادهم يعشْنَ فيها عيشة بنات الإفرنج ، ويعدْنَ بعد سنوات لم يبقَ معهنّ من الإسلام إلا اسمه ، ومن قوميّتِهنّ إلا لغتها ، واستمع في ذلك الحين استقبالهن من الصحفيين المتفرنِجين بأنواع التحبيذ وأفانين التمجيد ! والإسلامُ ضايعٌ بين هذه الضوضاء المخدّرة ، وما أشدّ غفلة الآباء والأمهات المبتَهجين الفخورين بتلك البنات ! وأيُّ ارتياحٍ واطمئنانٍ للطَّبْع السليم إذا أبْدَلَ الإنسانُ بنْتَه بغيرها ، ولو كانت البَدَلُ أعلَم من المُبْدَلِ منها ؟! .

وليست النهضةُ المنشودةُ للبلاد أن تحصل فتياتٌ من بنات أشرافِها على دكتوراه أوربية في بعض العلوم ، أو تكون

لأغنيائها سيارات فخمة يرون الدنيا من شباكها ، وتكون صلتهم بجمهور مواطنيهم أن يُصَعِّبوا عليهم المشي في الشوارع حذَرًا من مصادَمَةِ سياراتِهم السريعة السير ، والعالم يرى حال الجمهور المصري ، ويرى مَن يَرْكَبُ السيّاراتِ العموميةَ أو الترامَ نماذِجَ من الرجال والنساء يتنافسون في الركوب والنزول والجلوس ، يحاوِلُ كلٌّ منهم أن يشغلَ من المقاعد أكثر مما يكفي لواحد ، ويُبقي لجارِه الأقلَّ ، وكثيراً ما يَطَأُ رجلَهُ ويذرُّ دخانَ سيجارتِهِ على وجهه ، أو يلقي رمادَها على ثَوْبِهِ ، وربَّما ترى بجنبك امرأةً احتضَنَتْ طفلًا يتزاحَمُ الذُّبابُ على مآقيه وشفتيه الملوثة بمُخاطٍ أو بقية طعام ، يُنْدِمُك منظرُهُ على ركوب العَرَبة ؛ وعند المشْي في الشوارع يُثِيرُ عليك عمَّال التنظيف الغبَارَ . قارِنوا ملايين المِصريّات من أمثال أمّ هذا الطفل مع فتيات مصريات من خرِّيجات المدارس العالية الغربية متجرِّداتٍ عن حجابِهِنَّ وملتَحِقات بنساء الغرب ، وٱنْشُدُوا المصريَّاتِ المهذَّباتِ الضائعات بين هذَين الفريقين ، ولا يستطيعُ من يعيش بمصرَ دون أن يَرَى أناسًا غارِقين في التمسُّكِ بتقاليدِهم ، حتى القبيح منها ، أو أناسًا نازعين بكلِّيَّتِهم إلى التجدّد والتَّفَرْنُج .

وعند كتابة هذه السطور ، قرأتُ يوميّة الأستاذ [أحمد] الصاوي [محمد] في الأهرام وهو يسعى جَهْد طاقَتِه لتعميم اختلاط الشبّان بالشوابّ في مصر ليعرفوهنّ ثم يصْطَفُوا منهنّ الزوجات ، وقد أيَّدَ مذهبَهُ هذا بنشر خِطابٍ ورد إليه من الدكتور ص . ن يقول : إنَّهُ ثائِرٌ على نظام مجتمعنا المصري ، وقد قضى عشر سنوات بين ألمانية وفرنسة وإنكلترة ، ورأى مقدار الرجعية التي بُلِيَتْ بها عائلاتنا ! .

وأنْتَ أيها القارئ قد عرفتَ مِمَّا أسْلَفْنا مِنَ القَوْلِ مَدى ذلك الاختلاط والتعرّف والتفنّن فيهما ، وتنقّل الشبّان بين الفتيات استيفاءً لِحَقّ الاصطفاء والاستقراء ، ممّا يؤدِّي إلى استغنائِهِمْ عن الزَّواج . وأصدقُ شاهِدٍ على ذلك أنّ أَزْمَةَ الزَّواج أشدّ والعزّاب أكثر في بلاد الاختلاط منهما في الشرق ، لكن الأستاذ الكاتب الذي يُفْتِي وَيَبُتُّ في مسائل الاجتماع دنيويةً أو دينيةً لا يُثْنِيهِ منقولٌ ولا معقولٌ .

* * *

وكنتُ قرأتُ قبل يومين في الأهرام لكاتب (على الهامش) مقالةً تندِّدُ ببقاء الطربوش على رؤوس المصريين ، وتعدهُ كارِثةً اجتماعية ، ونكبة صحيَّةً ، وعنوانَ الجهل

والتأخر ، ولا يَرى لَهُ أيَّ اتصالٍ بقومِيّة المصريين ، إلا أنّ الأتراك استَعْبَدوهم مدةً من الزمان وتركوا أثَرَ ذلك على رؤوسهم ، ثم يُفْتِي الكاتب بوجوب لبس القُبَّعة زَيِّ المدنية الذي اختاره اليوم حتى الأتراك أنفسهم بعد نبذ الطربوش ! .

وإني أستَشْعِرُ في هذا القول الشاكي من استعْباد التركِ أثَرَ استعبادِ الإنكليز أو استهواء الأتراك الحاضرين في زيِّهم الحديث لهذا الكاتب المصري وأضرابه ، حيث لم تكُنْ قبعة الإفرنج مرغوبًا فيها لبعض الشرقيين ، لاسيّما المسلمين ؛ إلا بعد أن اختارها ملاحدة الترك ، فصارَتْ مختارةً لغيرهم ، ونبذُوا الطربوشَ ، فأصبح منبوذًا ؛ أَسْتَشْعِرُ هذا الاستعباد الجديد مِنْ قَوْلِ الكاتبِ الَّذي استَعْبَدَه متى أنساهُ واجبَه الوطنيَّ إِزاءَ الطربوش الذي تضاعف كونه زيًا وطنيًا لمصر بهمّة جمعية مشروع القرش وما أنفقته في مصنوعاتها ، ولا يكون شيء أدلَّ على الجهل والتأخُّر من اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخّر . هذا مع أنَّ لبس القبعة لا يجوز للمسلمين كما استوفيتُ حق إيضاحه في تأليف مفرد[1]

---

(١) قال أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه «وحي القلم» ج٢/ ٣٣٣ في مقالة «سرُّ القبعة» : وَكَانَتْ فِكْرَةُ =

= اتِّخَاذِ الْقُبَّعَةِ فِي تُركية غِطَاءَ لِلرَّأسِ ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزَعَاتٍ مِنْ مِثْلِهَا ، كَمَا يَجِيءُ الحِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبسُ اللَّابِسُ ، فَلَمْ يَشُكَّ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبَّعَةً عَلَىٰ الرَّأسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّأسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً ، لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ وَلا سَجْدَةٌ ؛ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَرَىٰ هَذِهِ الْقُبَّعَةَ عَلَى رَأسِ الزِّنْجِيِّ وَالْهَمَجِيِّ ، وَعَلَى رَأسِ الأَبْلَهِ وَالْمَجْنُونِ ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتِ الأَسْوَدَ أَبْيَضَ ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ طَبْعِهِ ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتِ الْعَقْلَ النَّاقِصَ أَوْ رَدَّتِ الْعَقْلَ الذَّاهِبَ ، أَوِ انْقَلَبَتْ آلَةً لِحَلِّ مُشْكِلاتِ الرَّأسِ الْبَلِيدِ ، أَوْ غَصَبَتِ الطَّبِيعَةَ شَيْئًا وَقَالَتْ : هَذَا لِحَامِلِي دُونَ حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ .

وَقَدِ احْتَجُّوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لا يَرَى الوَجْهَ إِلَّا الْمَدَنِيَّةَ ، وَلا يَعْرِفُ الْمَدَنِيَّةَ إِلَّا مَدَنِيَّةَ أُورُبَّةَ ، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا ، وَمَا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ ، وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنًى عَنْهُ ؛ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ الأَوْرُوبِيِّينَ كَانُوا عُورًا بِالطَّبِيعَةِ ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ عُورًا بِالصِّنَاعَةِ لِيَشْبَهُوا الأُورُبِيِّينَ . . . نَعَمْ إِنَّها حُجَّةٌ تَامَّةٌ لَوْلا نَقْصٌ قَلِيلٌ فِي الْبُرْهَانِ ، يُمْكِنُ تَلافِيهِ بِإِخْرَاجِ طَبْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كُتُبِ الْفُتُوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، يَظْهَرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالأَبْطَالُ الْمَغَاوِيرُ الَّذِينَ قَهَرُوا الأُورُبِيِّينَ لابِسِينَ قُبَّعَاتٍ ، لِيَشْبَهُوا الأُورُبِيِّينَ . . .

قَالَ صَاحِبُ السِّرِّ : وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلالَةِ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِنَا ، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ إِلَىٰ التَّقَبُّعِ فِي مِصْرَ احْتِذَاءً لِتُرْكِيَّة ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدٍ بَاشَا رَحِمَهُ اللهُ يَطْلُبُ رَأْيَهُ ، فَكَانَ رَأيُه : (لا) بِمَدِّ الأَلِفِ . . . =

= وَعَهِدَ إِلَيَّ بَعْضُهُم أَنْ أَسْأَلَ ٱلْبَاشَا ، فَقَالَ :
وَيْحَهُمْ ! أَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَصْرِيِّينَ مُقَلِّدِينَ لِلتَّقْلِيدِ نَفْسِهِ ؟ إِنَّ هَذِهِ بِدْعَةٌ تَنْحَطُّ عِنْدَنَا دَرَجَةً عَنِ الأَصْلِ ، فَكَأَنَّهَا بِدْعَتَانِ [ٱلأَصْلُ تَقْلِيدُ تُرْكِيَّة لِأُورُبَّة ، وَهَذِهِ بِدْعَةٌ ؛ فَتَقْلِيدُنَا لِتُرْكِيَّة بِدْعَةٌ أَسْخَفُ مِنَ ٱلأُولَىٰ] . ثُمَّ ضَحِكَ ٱلْبَاشَا وَقَالَ : كَانَ فِي ٱلْقَدِيمِ رَجُلٌ سَمِعَ أَنَّ ٱلبَصَلَ بِٱلخَلِّ نَافِعٌ لِلصَّفْرَاءِ ، فَذَهَبَ إِلَى بُسْتَانٍ يَمْلُكُهُ وَقَالَ لِوَكِيلِهِ : ٱزْرَعْ لِي بَصَلًا بِخَلٍّ . . . هَكَذَا يُرِيدُونَ مِنَ ٱلْقُبَّعَاتِ : أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ تُرْكًا بِأُورُبِيِّينَ .
لَيْسَتْ هَذِهِ ٱلْقُبَّعَةُ فِي تُرْكِيَّة هِيَ ٱلْقُبَّعَةُ ، بَلْ هِيَ كَلِمَةُ سَبٍّ لِلْعَرَبِ وَرَدٌّ عَلَى ٱلإِسْلامِ ، ضَاقَتْ بِهَا كُلُّ ٱلأَسَالِيبِ أَنْ تُظْهِرَهَا وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، فَلَم يَفِ بِهَا إِلَّا هَذَا ٱلأُسْلُوبُ وَحْدَهُ ، وَهِيَ إِعْلانٌ سِيَاسِيٌّ بِٱلْمُنَاوَأَةِ وَٱلْمُخَالَفَةِ وَالانْحِرَافِ عَنَّا وَٱطِّرَاحِنَا ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِهِ لا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ فِي ثِيَابِهَا وَشِعَارِهَا ؛ فَبِهَذَا ٱنْفَتَحَ لَهُمْ بَابُ ٱلْخُرُوجِ فِي ٱلْقُبَّعَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِمَّا يَجْرِي فِيهِ ٱلتَّقْلِيدُ أَوْ يُبْدِعُهُ الابْتِكَارُ ؛ وَإِلَّا فَأَيُّ سِرٍّ فِي هَذِهِ ٱلْقُبَّعَاتِ ، ومَتَى كَانَتِ ٱلأُمَمُ تُقَاسُ بِمَقَايِيسِ ٱلْخَيَّاطِينَ . . . ؟
هٰهُنَا سَيْفٌ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِقَصًّا ، فَعَمِلَ أَوَّلًا مَا يَعْمَلُ ٱلْحُسَامُ ٱلْبَتَّارُ ، فَأَجَادَ وَأَبْدَعَ وَأَكْبَرَهُ ٱلنَّاسُ وَأَعْظَمُوهُ ؛ ثُمَّ صَنَعَ مَا يَصْنَعُ ٱلْمِقَصُّ ، فَمَاذَا عَسَاه يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَا يُنْكِرُهُ ٱلأَبْطَالُ وَٱلْخَيَّاطُونَ جَمِيعًا ؟
أَكُتِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَظَلَّ دَهْرَنَا نَبْحَثُ فِي ٱلتَّقْلِيدِ ٱلأَعْمَىٰ ، وَأَلَّا يَحْيَا =

= ٱلشَّرْقِيُّ إِلَّا مُسْتَعْبَدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أُمُورِهِ مَنْ يَقُولُ لَهُ : ٱشْرَعْ لِي . . . ؟ إِنْ بَحَثْنَا فَلْنَبْحَثْ فِي زِيٍّ جَدِيدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ ، فَتَكُونُ ٱلْقُوَىٰ ٱلْكَامِنَةَ فِينَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجَوِّنَا هِيَ ٱلَّتِي ٱخْتَرَعَتْ لِظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَهَا ، كَمَا يُخْرِجُ زَوْرُ ٱلأَسَدِ لِبْدَةَ ٱلأَسَدِ ، غَايَةً فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْمُلاءَمَةِ .

أَنَا أَلْبَسُ مَا شِئْتُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَ ٱلْقُبَّعَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِيَّتِي ٱلْفَرْدِيَّةُ ، فَلا أَرَىٰ ثَمَّةَ مَوْضِعَ ٱنْفِرَادٍ وَلَكِنْ مَوْضِعَ مُشَاكَلَةٍ ، وَلا أَعْرِفُ صِفَةَ مَنْفَعَةٍ لِي بَلْ صِفَةَ حَقِيقَةٍ مِنِّي ، وَيَعْتَرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي يَصِيرُ بِهِ ٱلنَّوْعُ إِلَىٰ ٱلْجِنْسِ ، وَٱلْوَاحِدُ إِلَىٰ ٱلْجَمَاعَةِ . وَمَا دُمْتُ مُسْلِمًا أُصَلِّي وَأَرْكَعُ وَأَسْجُدُ ، فَٱلْقُبَّعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

وَهَؤُلاءِ ٱلرِّجَالُ ٱلَّذِينَ لَبِسُوهَا فِي مِصْرَ ، إِنَّمَا ٱشْتَقُّوهَا مِنَ ٱلْمَصْدَرِ نَفْسِ ٱلْمَصْدَرِ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ ٱلتَّهَتُّكُ فِي ٱلنِّسَاءِ ، وَكِلاهُمَا مَنزَعٌ مِنَ ٱلْمُخَالَفَةِ ، وَكِلاهُمَا ضِدٌّ مِنْ صِفَةٍ ٱجْتِمَاعِيَّةٍ تَقُومُ بِهَا فَضِيلَةٌ شَرْقِيَّةٌ عَامَّةٌ . وَلَيْسَ يَعْدَمُ قَائِلٌ وَجْهًا مِنَ ٱلْقَوْلِ فِي تَزْيِينِ ٱلْقُبَّعَةِ ، وَلا مَذْهَبًا مِنَ ٱلرَّأْيِ فِي ٱلاحْتِجَاجِ لَهَا ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَذَاهِبَ ٱلْفَلْسَفِيَّةَ لا يُعْجِزُهَا أَنْ تُقِيمَ لَكَ ٱلْبُرْهَانَ جَدَلاً مَحْضًا عَلَى أَنَّ حَيَاءَ ٱلْمَرْأَةِ وَعِفَّتَهَا إِنْ هُمَا إِلَّا رَذِيلَتَانِ فِي ٱلْفَنِّ . . . وَإِنْ هُمَا إِلَّا مَرَضٌ وَضَعْفٌ ، وَإِنْ هُمَا إِلَّا كَيْتَ وَكَيْتَ ، ثُمَّ تَنْتَهِي ٱلْفَلْسَفَةُ إِلَى عَدِّهِمَا مِنَ ٱلْبَلاهَةِ وَٱلْغَفْلَةِ ، ومَا ٱلْغَفْلَةُ وَٱلْبَلاهَةُ إِلَّا أَنْ تُرِيدَ فَلْسَفَةٌ مِنَ فَلْسَفَاتِ ٱلدُّنْيَا أَنْ تُقْحِمَ فِي كِتَابِ ٱلصَّلاةِ مَثَلاً فَصْلاً فِي . . . فِي . . . ٱلدَّعَارَةِ . =

= لَا يُهولَنَّكَ مَا أُقَرِّرُ لَكَ : مِنْ أَنَّ ٱلْقُبَّعَةَ ٱلأُورُوبيَّةَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمُسْلِمِ ٱلْمِصْرِيِّ ، تَهَتُّكٌ أَخلاقيٌّ أَوْ سِياسِيٌّ أَوْ دِينِيٌّ أَوْ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا مَعًا ، فَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلَّذِينَ لَبِسُوهَا لَمْ يَلْبَسُوهَا إِلَّا مُنْذُ قَرِيبٍ ، بَعْدَ أَنْ تَهتَّكَتِ ٱلأَخلاقُ ٱلشَّرْقِيَّةُ ٱلْكَرِيمَةُ وَتَحَلَّلَ أَكْثَرُ عُقَدِهَا ، وَبَعْدَ أَنْ قَارَبَتِ ٱلْحُرِيَّةُ ٱلْعَصْرِيَّةُ بَيْنَ ٱلنَّقَائِضِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَخْتَلِطُ ٱلْحُدُودُ ٱللُّغَوِيَّةُ ؛ فَحُرِّيَّةُ ٱلْمَنْفَعَةِ مَثَلًا تَجْعَلُ ٱلصَّادِقَ وَٱلْكَاذِبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، فَلا يُقَالُ : إِلَّا أَنَّه وَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَصَدَقَ ، وَوَجَدَ مَنْفَعَتَهُ فَكَذَبَ ؛ وَعِنْدَ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَصْرِيَّةِ أَنَّهُ مَا فَرَّقَ بَيْنَ ٱللَّفْظَيْنِ وَجَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا حُدُودًا إِلَّا جَهْلُ ٱلْقُدَمَاءِ ، وَفَضِيلَةُ ٱلْقُدَمَاءِ ، وَدِينُ ٱلْقُدَمَاءِ . وَهَذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ : ٱلْجَهْلُ وَٱلْفَضِيلَةُ وَٱلدِّينُ ، هِيَ أَيْضًا فِي ٱلْمِعْجَمِ ٱللُّغَوِيِّ ٱلْفَلْسَفِيِّ ٱلْجَدِيدِ مُتَرَادِفَاتٌ لِمَعْنَى وَاحِدٍ ، هُوَ ٱلاسْتِعْبَادُ أَوِ ٱلْوَهْمُ أَوِ ٱلْخُرَافَةُ .

وَمَتَى أُزِيلَتِ ٱلْحُدُودُ بَيْنَ ٱلْمَعَانِي ، كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَلْتَبِسَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ ، وَأَنْ يَحُلَّ مَعْنًى في مَوْضِعِ مَعْنًى غَيْرِهِ ، وَأَصْبَحَ ٱلْبَاطِلُ بَاطِلًا بِسَبَبٍ وَحَقًّا بِسَبَبٍ آخَرَ ، فَلا يَحْكُمُ ٱلنَّاسَ إِلَّا مَجْمُوعَةٌ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلْمُتَنَافِرَةِ ، تَجْعَلُ كُلَّ حَقِيقَةٍ فِي ٱلأَرْضِ شُبْهَةً مُزَوَّرَةً عِنْدَ مَنْ لا تَكُونُ مِنْ أَهْوَائِهِ وَنَزَعَاتِهِ ، فَيَحْتَاجُ ٱلنَّاسُ بِٱلضَّرُورَةِ إِلَىٰ قُوَّةٍ تَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فَصْلًا مُسَلَّحًا ، فَيَكْسِبُونَ ٱلْقَانُونَ بِمَدَنِيَّتِهِمْ قُوَّةً هَمَجِيَّةً تَضْطَرُّهُ أَنْ يُعِدَّ لِلْوَحْشِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَدْفَعُ هَذِهِ ٱلْوَحْشِيَّةَ أَنْ تُعِدَّ لَهُ .

وَمِنَ ٱخْتِلاطِ ٱلْحُدُودِ تَجِيءُ ٱلْقُبَّعَةُ عَلَى رَأْسِ ٱلْمُسْلِمِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا حَدٌّ يَطْمِسُ حَدًّا ، وَفِكْرَةٌ تَهْزِمُ فِكْرَةً ، وَرَذِيلَةٌ تَقُولُ لِفَضِيلَةٍ : هَأَنَاذِي=

= قَدْ جِئْتُ فَاذْهَبِي .

مَا هُوَ الأَكْبَرُ مِنْ شَيْئَيْنِ لا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِينِ الصِّغَرِ ؟ وَمَا هُوَ الأَصْغَرُ مِنَ شَيْئَيْنِ لا حَدَّ بَيْنَهُمَا لِتَعْيِينِ الْكِبَرِ ؟ إِنَّهَا الْفَوْضَى كَمَا تَرَى مَا دَامَ الْحَدُّ لا مَوْضِعَ لَهُ فِي التَّمْيِيزِ وَلا مَقَرَّ لَهُ فِي الْعُرْفِ وَلا فَصْلَ بِهِ فِي الْعَادَةِ ؛ وَمِنْ هُنَا كَانَ الدِّينُ عِنْدَ أَقْوَامٍ أَكْبَرَ كَلِمَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ فِي عَامَّةِ لُغَاتِهَا وَأَمْلأَهَا بِالْمَعْنَى ، وَكَانَ عِنْدَ آخَرِينَ أَصْغَرَهَا وَأَفْرَغَهَا مِنَ الْمَعْنَى ؛ وَمَا كَبُرَ عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَّا مِنْ أَنَّهُ يَسَعُ الاجْتِمَاعَ الإِنْسَانِيَّ وَهُوَ مَحْدودٌ بِغَايَاتِهِ الْعُلْيَا ، ومَا صَغُرَ عِنْدَ هَؤُلاءِ إِلَّا بِأَنَّ الاجْتِمَاعَ لا يَسَعُهُ فَلا حَدَّ لَهُ ؛ وَكَأَنَّهُ مَعْنًى مُتَوهَّمٌ لا وُجُودَ لَهُ إِلَّا فِي أَحْرُفِ كَلِمَتِهِ .

فَجَمَاعَةُ الْقُبَّعَةِ لا يَرَونَ لِأَنْفُسِهِم حَدًّا يَحُدُّونَهَا بِهِ مِنْ أَخْلاقِنَا أَوْ دِينِنَا أَوْ شَرْقِيَّتِنَا ، وَقَدْ مَرَقُوا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ وَأَصْبَحُوا لا يَرَوْنَ فِي زِيِّنَا الْوَطَنِيِّ مَا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ السِّرِّ الْخَفِيِّ الَّذِي يُلْهِمُنَا مَا أَوْدَعَهُ التَّارِيخُ مِنْ قَوْمِيَّتِنَا وَمَعَانِي أَسْلافِنَا .

وَأَنا أَعْرِفُ أَنَّ مِنَّا قَوْمًا يَرَى أَحَدُهُمْ فِي ظَنِّ نَفْسِه أَنّه قَانُونٌ مِنْ قَوَانِينِ التَّطَوُّرِ ؛ فَهُوَ فِيمَا يُلابِسُهُ لا يَنْظُرُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَ النَّوامِيسِ . . . وَمِنْ هُنَا الثِّقَلُ وَالدَّعْوَى الْفَارِغَةُ ، وَمَا هُو أَكْبَرُ مِنَ الثِّقَلِ وَفَرَاغِ الدَّعْوَى . وَإِنَّهُ لَحَقٌّ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْبِيَاءَ ، وَلَكِنَّ أَقْبَحَ مَا فِي الْبَاطِلِ أَنْ يَظُنَّ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ نَبِيًّا .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُزَيِّنُونَهُ لِلشَّرْقِي مِنْ رَذَائِلِ الْمَدَنِيَّةِ الأُورُوبِيَّةِ ، إِنْ هُوَ إِلَّا مَنْطِقُ شَهَوَاتٍ فِي جُمْلَتِهِ ، وَلَقَدْ تَسْمَعُ الْجَائِعَ يَتَكَلَّمُ عَنِ

لكن في صدر كلّ جريدةٍ مِصْرِية مُفْتِين من المسلمين والمسيحيين يُغْنُون عن مفتي الديار المصرية ؟! .

وكان السبب في استئناف مسألة الطربوش والقبعة في الأهرام إمطار السماءِ مساء يوم من أيام الأسبوع الماضي ، أمطرت فأحوَجَتْ بعضَ الطرابيش إلى تجديد كَيِّها ، والمطرُ لا ينزلُ في مصر إلا نادرًا ، ولا يكلِّف لابسي الطربوش من المصاريف ما يُذْكَرُ ، ولا يعادل مجموعُه بسعر القبعة لا سيما من نوعها الفخم ، مع أنّ للطربوش من جمال المنظر في عيون الشرقيين ما لا يوجد في القبعة ، ولا يُضحَّى به لأجرة المَكْوى اللازمة في النادر ، وإنِّي أظنُّ أنَّ بعضَ غلاةِ التجديد في مصر جرَّبُوا لبس القبعة في العلانية أو الخفاء فاستقبحوا بها وجوههم ، حتى رضوا بطرابيشهم ! وكم نسمع حسرات الشعب التركي وتشوّقه إلى الطرابيش ، لولا

= ٱلطَّعَامِ ، فَتَرَى كَلامًا تَحْتَهُ مَعَانٍ وَمَعَانٍ لا يَعَدُّهَا غَيْرُ ٱلْجَائِعِ إِلَّا حَمَاقَةَ سَاعَتِهَا . . .

انتهى النقل عن « وحي القلم » وقد طبعتُه طبعةً مضبوطةً مشكولَةً مراجعةً على أُصولِهِ ونشرتُهُ لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ليماسول ، قبرص . بسام .

أن السَّيْفَ مُصْلَتٌ على عنقه .

وبالنظر إلى أنَّ كلَّ ما يمتُّ بصلةٍ إلى الشرق والإسلام ، حتى الأخلاق والآداب وأستار الحياء وخدور النساء وعمائم العلماء ، أصبح عرضَةً للنَّبْذِ والتبديلِ بأتْفَهِ الأسباب ، فلا مانع ـ كما كتَبْتُه فيما علَّقْتُه على قول الكاتب الطالب في جامعة ليفربول ـ من أنْ يكتُبَ كاتب [في] إحدى الصحف بالقياس على قول كاتب [في] الهامش : « إنَّ بقاء البلاد المصرية على الإسلام أثرٌ من استعباد الأتراك الذين صَمَدُوا تحت راية الدولة العثمانية في وجوه الدول الصليبية التي خَضَعَت أمام قوة تلك الدولة قرونًا ، وأجمَعَتْ أمرها وشُرَكاءها للعَمَلِ في كَيْدِها وإضعافِها قرونًا أخرى ، وعاش الإسلام مدةَ تلك القرون الطويلة مستَنِدًا إليها ، ولم يخطُرْ في خَلَدِ أيّ دولة نصرانية فكرةَ تَنْصير أيّ قَوْم من الأقوام المسلِمَة ، حتَّى إذا انْقَرَضَتْ هذه الدولة بعد اللَّتَيَّا والَّتي ، ٱرْتَدَّتْ تركيةُ عن دينها ، وتوالَتِ الاعتداءاتُ على دين الإسلام في أنحاء العالم من الداخل والخارج ، حتى غدا لا يُحْتَرَمُ في بلاده وبين أبنائه ، وتجرَّأ اليهودُ الَّذِين ضُرِبَتْ عليهم الذِلَّةُ والمَسْكَنَةُ لتأسيس دولة قَوْمِيّة لَهُم في وسط بلاد

العرب ، ولا يعلم غير الله مقدار عمر الإسلام بعد هذه العلامات الباعثة على التشاؤم ! فهل ينبغي للمصريين سلالة الفراعنة ذوي المجد ـ على تعبير هدى هانم شعراوي في خطبتها عن نهضة المرأة المصرية ، الخطبة التي أذاعها الراديو قبل أيام ، فطنَّتْ في فضاء مصر ـ فهل ينبغي للمصريين بعد نَبْذ الأتراك أنفسهم الإسلام بفَضْل مجدِّدهم الأعظم ! أن يستمسكوا به وهو عنوان التأخُّر[1] ؟! وفي مصر مجدّدون إن لم يستطيعوا القيام بالقضاءِ على الإسلامِ ومعالِمِهِ بسيوفِهِم ، فهم قادرون على القيام به بأقلامهم » .

* * *

نعود إلى ما نحن بصَدَدِه :

ثم إنِّي أخْتارُ في غير النوادر من البَنَات أنْ يكونَ تعليمَهُنَّ مقصورًا على ما يهمُّهُنَّ في تدبير منازِلِهِنَّ أو تربِيَة أولادِهِنَّ وتهذيب أخلاقِهِنّ ، وعلى قواعد حِفْظِ الصحَّة والانتظام والاقتصاد ، وخلاصتُهُ إعدادُهُنَّ لأنْ يَكُنَّ خيرَ أمَّهاتٍ وخيرَ زوْجات ، لا ليكُنَّ عِدْلًا للرجال في جميع الأعمال ، لأنَّ

(١) وفي اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخر إشارةٌ إلى هذا المعنى .

ذلك لا يمكُنُ ولا يَنْفَعُ ، ودعوى مساواتهن بالرجال على معنى أنَّ المرأة تَصْلُحُ لكلِّ ما يَصْلُحُ له الرجل كما نقلتْ إحدى الكاتبات الشهيرات بمصر عن أفلاطون الحكيم ، وكتَبَتْه بجنب عنوان مقالها المنشور في الأهرام : « ليس من عَمَلٍ في نظام الهيئة الاجتماعية تختصُّ به المرأة كامرأة أو يختص به الرجل كرجل ، لأنَّ الطبيعةَ ساوت بين الرجل والمرأة فيما منحتهما من النِّعَمِ والمواهب ، ولذلك يحقُّ للمرأة أن تقوم بكلِّ عَمَلٍ يقوم به الرجلُ رغم كونها أضعف جسمًا منه » ـ دعوى فارغةٌ ، أَفَضْتُ في إبطالها بعضَ الإفاضة في المقال الموضوع لمسألة تعدّد الزوجات[1] ، مع أنّ أفلاطون يناقض نفسه عند دعوى المساواة ، ويعترف بكون المرأة أضعف جسْمًا من الرَّجُلِ ، فهل ليست زيادة الحظّ في القوة الجسمانية من نِعَمِ الفِطْرَةِ ومواهِبها ؟ مع أنّ الامتياز بزيادة القوة هو عنوان السيادة في العالم ، به تُفْتَحُ البلاد ، ويَحْكُم الأممُ بعضُهم على بعض ، فَحسْبُك ذلك في نَقْضِ دعوى المساواة ، ولذا قال الشاعر [من الخفيف] :

---

(١) راجع الصفحة : ١٣٣ .

خَلَقَ اللهُ لِلْحُرُوبِ رِجَالًا
وعَلى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ[١]

وفَضْلًا عن ذلك ، فلو فُرِضَ بلوغُ المرأةِ من مساواة الرجل مَبْلَغَ أن تَصْلُح لكلّ ما يَصْلُحُ له ، فهي لا تَقِفُ في حدّ المساواة به بل تفوقُه ، لأنَّ الرجل لا يَصْلُح لكلٍّ ما تصلُحُ له المرأة ، فهو لا يقدر على حَمْل الجنين في بطنه ، وولادة الولد ، وإرضاعه ، وحضانَتِهِ ، ومحبَّتِهِ ، وخِدْمتِهِ ، والحنان والشفقة عليه ؛ كما تحضنه المرأة وتحبه وتخدمه وتحنُّ وتشفق عليه ؛ فدعوى المساواةِ للمرأة المُنْتَهِيَة إلى تفوُّقِها عليه تستَلْزِمُ خلاف المفروض ، وهو باطِلٌ ، ويستبين منه بطلان الدعوى أيضًا .

وقد رأيتُ الكاتبةَ التي استشهدتْ بكلام أفلاطون Platon

---

(١) كُتِبَ ٱلْقَتْلُ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْنَا
وَعَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ جَرُّ ٱلذُّيُولِ
خَلَقَ اللهُ لِلْحَزْبِ رَجَالًا
وَرِجَالًا لِقَصْعٍ وَثَرِيدِ
راجع «ديوان عمر ابن أبي ربيعة» ، صفحة : ٣٣٨ ، وشرحه لمحمد محيي الدين عبد الحميد ، صفحة : ٤٩٨ . بسام .

على مساواة المرأة بالرجل تحوّلت في مقالتها المشار إليها من دعوى المساواة إلى دعوى تفوُّق المرأة على الرجل ، حيث قالت : « اختصاصُنا بالأمومة معناه أَنَّا زُوِّدْنا بامتيازٍ عظيم عن الرجل ، بما يستلزمه ذلك الامتياز من مواهب وقوى وتصرفات . ذلك إلى جانب مشارَكَتِنا الرجل فيما اختَصَّ به » وعند الصفح عن دلالة هذا الكلام على أن دعوى مساواة المرأة بالرجل التي طالما ٱجْتَهَدَ في إثباتها المجتهدون تُبْطِلُ نَفْسَها ، فليستعدّ محامو المرأةِ من الرجال بخَيْلِهم ورِجْلِهم ، فقد أتيح لهم واجبٌ جديدٌ من إثبات رجحانِها على الرجل فضلاً عن دعوى تساويهما . ولعلّ مجاوزتهنّ درجة المساواة بالرجال إلى رتبة التقدّم والتفوق خَولَتِ المرأةَ العصريةَ حقَّ الزيادة في سفورها على سفور الرجل أضعافًا مضاعفةً ، حتى بَرَزَتْ في الأندية والمحافل نصف عُرْيانة !!! .

وإذا عُدْنا إلى جَدِّ القول ، فهذه الحالة وحدها ، أعني : توغَّلَ النساء حديثًا في السفور أمام الرجال ، وفيما يحاكيه من التبرُّج قديمًا وحديثًا ، التوغل الذي عُنينا بِلَفْتِ النظر إليه في مقالتنا هذه ، والذي لا مِراءَ في أنَّ الغَرَضَ منه اكتساب المكانة لهنَّ عند الرجال مما يدلُّ دلالةً باهرةً على احتياجهنّ

واستنادِهِنَّ إليهم في الحياة ، والذي لا تستغني عنه عامَّتُهُنَّ وخاصتُهُنَّ وقديمتُهُنَّ وحديثتُهُنَّ ، والذي لا يقابلهُنَّ الرجال بمثْلِهِ ، مع أنَّ حاجتهم إِلَيْهِنَّ في الميولِ الجنسية ليست بأنقص مِنْ حاجَتِهِنَّ إليهم إن لم تكُنْ أشدّ ، فتوغّل الحديثة في السفور والتبرُّج أمام الرجال ظاهرٌ ، والقديمة المحتجبة أيضًا تتوغل في السفور والتزين أمام رَجُل تختصٌّ به ، أعني زوجَها ، حتى المرأة التي تُنْفِقُ ثَمَنًا على زَوْجِها في سبيل زواجِها به وتعطيه (دُوْطة) عكس الزواج الإسلامي الذي يُعطِي فيه الزوجُ زوجتَه مَهْرًا ، تُزَفُّ إلى زوجِها وتتبرَّج له ، ولم يسبق في الدنيا أن رجلًا زُفَّ متبرِّجًا إلى زوجته كما تُزَفُّ العروسُ إلى عريسها ! ولن يأتي عليه هذا الموقفُ في الزمان الآتي ، فالتبرُّجُ وُجِدَ في الدُّنيا مع المرأة ، ويفنى بفنائها ، ولن يغيِّرَ هذا النظامَ الغريزي الاجتماعي أيُّ انقلابٍ يحدُثُ في المرأة من التعليم والتكامل والاشتراك في أنحاء العمل مع الرجل ؛ فهذا التوغُّلُ منهن في السُّفورِ والتبرُّجِ الحديثين أمام الرجل ، ورسوخ الزينة فيهنّ ، بحيث امتزجت بدمائهنّ وأرواحِهنّ ، هذه الحالة المشهودة وحدها كافية في الدلالة

على أَنَّهُنَّ خُلِقْنَ للرجالِ أكثر من كلِّ شَيءٍ يُنْبِىءُ عن الاستقلال ، في حين أَنَّ الرجال خُلِقُوا للقيام بوظائِفِهِمْ في الحياة ، فأيْن مساواتهنّ بالرجال بَلْهَ تَفَوُّقَهُنَّ عليهم ؟! وأين قول أفلاطون الحكيم أو قول كاتبة المقالة المشار إليها (زينب الحكيم) من قول القرآن الحكيم : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/الآية : ١٨] وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [٣٠ سورة الروم/الآية : ٢١] فلو اجتمعت الإنس والجنّ وشياطين الزمان على أن يأتوا في تحديد موقف المرأة في الحياة بأبلغ من هاتين الآيتين ما استطاعوا ، ثم لا ينقصُ هذا الموقف ما تستحقّه من الاحترام الفائق ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [٤٦ سورة الأحقاف/الآية : ١٥] وقال ﷺ : « أُمَّك ، ثُمَّ أُمَّك ، ثم أُمَّكَ ، ثُمَّ أَبَاكَ » [البخاري ، رقم : ٥٩٧١ ؛ مسلم ، رقم : ٢٥٤٨] وقال : « الجنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأمَّهَاتِ » [« مسند الشهاب » للقضاعي ، رقم : ٨٢] .

وفي الآية والحديثين إشارةٌ إلى أنَّ أشرفَ أوْصاف المرأة

كونها أمًّا ، وبه تمتازُ وتتقدَّم على الرجل عند المقارنة بين الجنسين ، ويمتلئ فراغ نقصانها بالنسبة إليه امتلاءً يذهب بها من النقصان إلى الزيادة والرَّجَحَان ، لا أنه ينضمُّ إلى المساواة الحاصلة بدونه ! فيقلبها زيادة كما زَعَمَتِ الكاتبة ! .

« تمَّ »

* * *

ٱلسُّفُورُ وَٱلْخَلاعَةُ

لمَّا اطّلَعَ الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النَّجْمِي على هذه الفصول النفيسة في صحيفة « الفتح » ، جاشَتْ شاعِرِيّتُهُ بالقصيدة الآتية [من الكامل] :

زَعَمَ السُّفُورَ وَالاخْتِلاطَ وَسِيلَةً
لِلمَجْدِ قَوْمٌ في المَجَانَةِ أَغْرَقُوا

كَذَبُوا مَتَى كَانَ التَعَرُّضُ لِلْخَنَا
شَيْئًا تَعِزُّ بِهِ الشُّعُوبُ وَتَسْبِقُ

أَيَكُونُ كَشْفُ السَّوْأَتَيْنِ فَضِيلَةً
فَيُذِيعُهَا هَذَا الشَّبَابُ الأحْمَقُ

مَا بَالُهُمْ وَالبِنْتُ قَدْ فُتِنَتْ بِمَا
قَالُوا وَحَلَّ بِها الْجُنُونُ المُطْبِقُ

وَبَدَتْ مقَاتِلُ عِرْضِهَا لِرُمَاتِهِ
حَتّى لَهَمَّ بِهِ الجَبَانُ الأخْرَقُ

وَالْقَوْلُ أَصْبَحَ في الخُرُوجِ لَهَا فَلَا
كَفٌّ تُكَفُّ وَلا رِتَاجٌ يُغْلَقُ

كَرِهُوا الزَّوَاجَ بِهَا وبَاتَتْ سُوقُهَا
بَعْـدَ التَّبَـذُّلِ عِنْـدَهُـم لَا تَنْفُـقُ
مَـا خَطْبُهُـمْ كَلِفُـوا بِنَـزْعِ حِجابِهَـا
وتَكَلَّفُـوا فِيـهِ الْبَيَـانَ وَنَمَّقُـوا
وَتَنَاوَلُوا بِالضَّعْفِ مِنْ حَاجَاتِنَا
وَاللِّيـنِ مَـا هُـوَ بِـالصَّـرَامَـةِ أَخْلَـقُ
أَغْـدَتْ مَشَـاكِلُنَـا الكَبِيـرَةُ كُلُّهـا
ذَيْـلًا يُجَـرْجِـرُهُ السُّفُـورُ المُطْلَـقُ
أَمْ أَنَّهُـمْ ضَلُّـوا السَّبِيـلَ وَغَـرَّهُـمْ
بِبَـرِيقِـه هـذا الْجَـدِيـدُ المُخْلِـقُ

* * *

أَشَبَـابَنَـا المَـرْجُـوَّ صَيْحَـةُ جَـازِعٍ
أَغْـرَى بِهَـا هَـذَا البَـلاءُ المُحْـدِقُ
وَنَصِيحَـةٌ يُفْضِـي بِـرَائِـعِ سِـرِّهَـا
لِقِـوَامِ نَهْضَتِنَـا مُحِـبٌّ مُشْفِـقُ
لَا تُـرْهِفُـوا سَمْـعَ الْحَفِـيِّ لِقَـالَـةٍ
أَبَـدًا بِهَـا بُـومُ البَطَـالَـةِ تَنْعِـقُ

لَـمْ يَقْصُـدُوا خَيْـرًا بِهَـا ، لكِنَّهُـمْ
رَأَوْا القَــوِيَّ يُسِيغُهــا فَتَمَلَّقُــوا
وَلَـرُبَّمـا اجْتَـرَحَ القَـوِيُّ خَطِيئَـةً
فَمَضَى الضَّعِيفُ بِمَدْحِهَا يَتَشَدَّقُ
قُـوا أَهْلَكُـمْ وَنُفُـوسَكُـمْ عَـارًا إذَا
لَـمْ تَتَّقُـوهُ بِغَيْـرِكُـمْ لا يَعْلَـقُ
وَتَنَـاوَلُـوا بِـالـزَّجْـرِ حُمُـرًا كُلَّمَـا
هِيجَـتْ إلـى مُتَـعِ الإِبَـاحَـةِ تَنْهَـقُ
لَيْسَ التَّمَـدُّنُ أَنْ نَـرَى رُوحَ الحَيَـا
بِيَـدِ الخَـلاعَـةِ كُـلَّ يَـوْمٍ تَـزْهَـقُ
وَالْبِنْـتُ يَـدْفَعُهـا بِـرَاحَتِـهِ الهَـوَى
فَتَـرُوحُ تَهْـوَى مَـنْ تَشَـاءُ وَتَعْشَـقُ
لَكِنَّــهُ العِلْــمُ اهتَــدَى بِضِيــائِـهِ
غَرْبُ البَسِيطَةِ حِينَ ضَلَّ المَشْرِقُ

النَّجْمِي(١)

---

(١) هو الشاعر محمد حسن النَّجْمي الأنصاري (. . . ـ ١٣٥٩هـ = . . . ـ ١٩٤٠م) والنجمي نسبة إلى جدٍّ قديمٍ له اسمه نجم الدين ، كان رئيساً للقبائل العربية النازلة في بعض نواحي قنا ، ما زالت تسمى =

. . . .

= مجموعة القرى العربية إلى اليوم باسم أولاد نجم . كان ينشر قصائده في مجلة « الفتح » التي كان يصدرها محب الدين الخطيب بمصر . للشاعر ديوان جَمَعَهُ أخوهُ الطّاهر النجمي بعد وفاة الشاعر ، طبع منذ عدة أعوام . راجع « مجلة الدوحة » العدد : ٩٧ كانون الآخر ، ١٩٨٤م مقال عن الشاعر بقلم كمال النجمي .

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

٢ ـ السفور والاحتجاب

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة